بنو إسرائيل

بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم

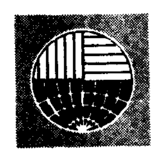



بقلم الدكتور
صابر طعيمة

عالم الكتب


بنو إسرائيل
بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم





بيروت - المزرعة بناية الايمان - الطابق الاول - ص.ب. ٨٧٢٣
تلفون : ٣٠٦١٦٦ - ٣١٥١٤٢ - ٣١٣٨٥٩ - برقياً : نابعلبكي - تلكس : ٢٣٣٩٠



بقلم الدكتور

صابر طعيمة

عالم الكتب

الطبعـة الاولى
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

في عام ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ صدرت الطبعة الأولى من كتابي (بنو إسرائيل في ميزان القرآن الكريم) ولم تكن الساحات الإسلامية، سواء في المنطقة العربية أو حيث يتجمع المسلمون على امتداد قارات الدنيا، أقليات كانوا أم أكثرية قد شهدت المتغيرات السياسية والاقتصادية، التي وثب بعضها بما يشبه الطفرة، واندفع بعضها الآخر بما يشبه الصدمة، وقد أسعدني أنه على كثرة ما صدر بأقلام بعض علماء الإسلام في هذا الموضوع الشائك فإن الغالبية العظمى من المسلمين شيبها وشبابها، الذين يرتجى منهم الخير كل الخير إن شاء الله، أقبلوا على الكتاب في طبعته الأولى مثلما اقبلوا على غيره، مما له صلة بموضوعه. الأمر الذي دفعني إلى إعادة طبعه وإضافة مادة مقارنة لمعظم قضايا هذا الكتاب، والتي كنا نراها بمنظار القرآن الكريم وحده، وجاءت هذه الطبعة تتضمن المادة التاريخية وتتضمن مناهج مصادر التاريخ وأساليبها، فضلاً عن بعض كتب اليهود الدينية في تناولها لهذه القضايا التي طرحناها للدرس بمنهج القرآن الكريم. باعتباره الحكم الأول والأخير.

ومن هنا جاءت هذه الدراسة، وهي أشبه ما تكون بعرض مجمل تاريخ بني إسرائيل الديني في ميزان القرآن الكريم أمام مفتريات وزيف كتب التاريخ والعقيدة عند بني إسرائيل.

هذا ومما يجدر ذكره في هذا المقام أنه قد تقرر بادىء ذي بدء أن بني إسرائيل في

القرآن الكريم قد حظوا بنصيب وافر من الإحاطة والشمول لكل ما يتعلق بالعقيدة الإلهية كلية أو بوظيفة الرسالة الدينية بين الناس، كما بيّن الله سبحانه ذلك وكشف عن بيئة الرسالة ونوعية المؤمنين بها من بني إسرائيل وموقف المعاندين والمكابرين لها.

وكان من المنطقي والمعقول أن القرآن الكريم، وهو كتاب الله الأتم والذي ستنتقل به النبوة والرسالة الدينية على يد النبي الخاتم محمدﷺ من بيت إسحق ويعقوب أي من بيت إسرائيل بعد مطاف طويل بدأ بأبناء يعقوب وانتهى بالمسيح (عيسى بن مريم عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم) - إلى بيت إسماعيل في عمومية وشمولية لهذا الدين الجديد، على يد أشرف العرب في الجزيرة العربية الذين تعلقت بهم مشيئة الله أن يكونوا بالإسلام أداة الرسالة الخاتمة، أقول كان من المنطقي أن يقص القرآن الكريم على رسول اللهﷺ كل ما يمكن أن يعين على فهم رسالة الله الخاتمة إلى الناس كافة، ومن هنا كان الخبر القرآني في كل ما يتعلق بالتاريخ الديني والسياسي لبني إسرائيل فضلاً عن خبره فيما انتهوا إليه من أمر العقيدة الدينية ونظرتهم إلى الأوامر الإلهية خبراً مستفيضاً يمتلىء بالدرس والعظة فضلاً عن تمييزه الحق من الباطل والخبيث من الطيب.

ولما كان بنو إسرائيل قطاعاً من البشر مستهدفاً من الرسالة الإسلامية بحكم عموميتها ودعوتها الناس جميعاً بأن ينضموا تحت لواء عقيدة التوحيد التي قامت عليها وبأن يؤمنوا بالحق الذي جاء به الإسلام فطهر العقائد مما شابها من فكر الصنم والوثن وما يتعلق بفكر الصنم والوثن من رموز وطقوس كهذه التي لوثت أسفار العهد القديم وحرفتها، ولما كانت مشيئة الله التي تستهدف بالرسالة الدينية العون الإلهي للبشر من خلال النماذج المختارة من الأنبياء والمرسلين، فإن النهج القرآني قد راح - في تفصيل موسع وقصد بارز - يكشف للناس عن نوعية الذين استجابوا للعون الإلهي وأنماطهم والذين رفضوا ذلك العون وذلك لترشيد الإنسانية وترقيها نحو الأمثل والأكمل مُتَخَلِّصَةً من أسر الغرائز وسيطرتها، ومن هنا أفاض القرآن الكريم

بالحديث عن بني إسرائيل في أطوار العقيدة الإلهية التي آمنوا بها، وفي أطوار النبوة والرسالة الإلهية باعتبار أن الرسالة الإلهية في بيت إسرائيل لم يستجب لها ردحاً طويلاً من الزمن ولم تتمكن من قلوبهم ولم تستثمر أهدافها المرجوة في الحق والخير والعدل في عواطفهم أو مجتمعهم، ولم يمض على مسارها إلا بضع سنين، وإذا بكل مقررات العقيدة الإلهية على يد صفوة من أنبياء الله ورسله في بني إسرائيل قد تلاشت ولم يعد بمقدور المتطهر أو الناسك على طريق الحق في اتجاه رب العالمين، أن يجد لملامح عقيدة التوحيد في الواقع اليومي أثراً أو يستشرف لها في الأفق مستقبلاً.

ومن المعجز حقاً أن القرآن الكريم ـ بعد أن وجه الدعوة الإلهية في الإيمان الحق إلى بني إسرائيل إبَّان عصر الدعوة الإسلامية مفترضاً أن فيهم بقيةً من دين، وأن ما بين أيديهم فيه بعض الحق والذي يتممه الإسلام ويكمله ـ انتظر زمناً طويلاً للحوار والدرس والمراجعة، ويتمثل ذلك في الفترة التي أسلم فيها بعض من العامة اليهود والخاصة رجالاً ونساءً، لكن الكهانة اليهودية استطاعت أن تجعل الرأي العام مضللاً، ولذا كان الرد بالرفض والمقاومة والكيد لدعوة الإسلام، وانتقل الرفض إلى التكذيب والمطاردة لما نزل به الوحي الإلهي على قلب الأمين محمدﷺ، ثم الدخول في مراوغات ومساومات حول العقيدة الدينية في الإسلام القائمة على (التوحيد) لله رب العالمين.

ومن هنا استحضر القرآن الكريم للمؤمنين على وجه الخصوص تجارب بني إسرائيل في النبوة والرسالة الإلهية، وكشف زيف موقفهم التقليدي الذي ألفوه المقاوم لكل التزامات الإنسانية الكاملة لعقيدة الإيمان بالله رب العالمين، وكشف القرآن في نهاية المطاف عن إخفاق بيت إسرائيل في حمل التراث الإلهي وتداوله والدعوة له، أو حفظه في القلوب والصدور، وأخذ القرآن الكريم يقص البداية التاريخية القديمة التي منّ الله فيها عليهم بالنبوة والرسالة، ثم أخذ يفصل في قضايا الحوار والنزاع الذي أثاره اليهود إثر موقف الرفض الذي اتخذوه من الإسلام ونبيه محمدﷺ، وتمثل

ذلك في حديث القرآن عن أنباء بني إسرائيل وأحداثهم، فضلاً عن تناوله بالتطهير والتكريم لسيرة جملة من أنبياء بني إسرائيل بغير ما تداولته كتبهم وأسفارهم التي صنعها كهان بني إسرائيل وأحبارهم فيما رُوي عنهم وسجلته أسفار التراث الإسرائيلي في العهد القديم.

تمهيد

في الحديث عن بني إسرائيل في القرآن الكريم دروس تستحق من كل الهيئات العلمية المعنية بقضايا التراث الإنساني ومشكلات الدين والسياسة أن تقف عندها طويلاً.

ذلك أن القرآن الكريم كتاب تفيض جوانبه بالطهر والنقاء وتتكامل وحداته الموضوعية فيما يتعرض له بالحيدة والإنصاف.

فهو عندما يتعرض لخصوم الوحي الإلهي وأعداء الرسالة المحمدية - رسالة التوحيد - إنما يدخل عليهم بمنهج إلهي فذ، يستدرج العصيان الاجتماعي ويرقق النفور الديني ويهذب الطبع الإنساني إذا ما أعوج عن المسارات التي رسمها. ولا يقصّ قصصاً، أو يستحضر تاريخاً، أو يستنطق ماضياً دون أن يكون في الاعتبار ترشيد الإنسانية، وتقديم نتاج التجربة في تاريخ حملة الرسالات السماوية الماضية في العصور الغابرة.

هذا حديث القرآن الكريم في تعامله مع النوع الإنساني باعتباره كتاب - رب السموات السبع وما أظللن، ورب الأراضين السبع وما أقللن - كتاب رب العالمين ختم به النبوة والرسالة وجعله يوم نزل على قلب محمد ﷺ في مرحلة من الرشد الإنساني بحيث يُتَاح للإنسان أن يتلقَّى عون الله في حفظ هذا الكتاب وصيانته، فضلاً عن تقديسه والإيمان به، لكونه الأملَ المرتجى لبني الإنسان، وحديث القرآن

الكريم عن بني إسرائيل حديث لا يستطيع باحث، أو دارس، أو مؤرخ أن يعثر عليه في كتاب واحد في الدنيا غير هذا القرآن. فقد تعرض لبني إسرائيل منذ عصر أبي الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) حتى بعثه النبي الخاتم محمد رسول الله ﷺ، وأنصف هذا القطاع من البشر ففي الموقف الذي كان يوجههم إلى الايمان بالرسالة الخاتمة كان يعمل على تذكيرهم بأنهم أهل لتقبلها، والايمان بها، وأنهم أصحاب نبوة ورسالة وميراث وتراث، ومن أجدر الناس بحملها، وفي الموقف الذي ينعى عليهم فيه جحودهم وكفرهم بآيات الله وأنعمه، يخبرهم عن الإيمان والخير الذي تنطوي عليه قلوب بعضهم.

وفي الموقف الذي يعيب عليهم فيه قتلهم الأنبياء ومقاومتهم للمرسلين وركوبهم الشيطان وطغيانهم على الناس بالإثم والعدوان، يستحضر لهم حياة الاطهار فيهم ويعاتبهم ليقتدوا بهم ويهتدوا إلى طريقهم.

ولن تجد كتاباً غير القرآن الكريم يضع أنبياء إسرائيل ورسلهم في الموضع الكريم اللائق بهم كرسل من عند الله العزيز الحكيم.. فحين تراكم غبار الزمن على سيرة أنبياء الله في بني إسرائيل، وحجبت التراكمات المادية والوثنية إمكانية الرؤية الصحيحة أو الإقتداء السليم، كان القرآن وحده يمسح عن سيرة أنبياء بني إسرائيل ورسلهم كل ما علق بها من رجس ودنس ليعود بها للتاريخ الإنساني نقيةً طاهرة تمثل معنى القدوة والهداية التي مَنَّ الله بها على بني الإنسان تمهيداً للكمال والرشد الأتم الذي يدعو إليه النبي الخاتم محمد ﷺ.

هذا وقد تعرض القرآن الكريم في الحديث عن بني إسرائيل لكل ما يعاون على فهم مشكلات هذا النمط من البشر وحلّها، فقد أعان على تفهم مشكلات الدين والتاريخ عند آبائهم الأولين، وقدم دروس السلب والإيجاب، والخير والشر.

ثم ميز الخبيث من الطيب على طول تاريخهم، فعدد المخازي، والمآسي، وأبرز

مواقف الرفض، والبهتان، والكفر، والعصيان، عند الذين كفروا وجحدوا وبدلوا وغيّروا دين الله الذي ارتضاه لعباده.

وأشاد بطهر الذين قاوموا واعتصموا في مواجهة إنحراف الكثرة الكثيرة من بني قومهم وكفرهم وعدوانهم.

كما تحدث القرآن الكريم عن قضية الجنس الإسرائيلي وعنصرية ادعاءاته رافضاً ومفنداً تناقضاته. كما تحدث عن متعلقات العهود والعقود والمواثيق التي أخذها الله عليهم فتنكروا لها وجحدوها.

هذا وقد أفاض الذكر الحكيم في ذكر أخبار العشرة الكبار من بني إسرائيل وأخلاقهم بعد أن أفرد موضوعفا مستقلاً وقضية بذاتها للنبي يوسف (عليه السلام) باعتباره من أبناء يعقوب (عليه السلام) الأب المباشر لمن يحملون التسمية (بنو إسرائيل).

هذا ولما كان السيد المسيح (عيسى بن مريم عليه السلام)، واحداً من بيت النبوة في إسرائيل قد توجه بالدعوة الدينية إليهم دون أن تثمر جهوده فيهم فإن القرآن الكريم أفاض في الحديث عن شخصية السيد المسيح عيسى (عليه السلام) بشكل يسعف الباحث، أو الدارس، ويقيم الدليل على نوعية العلاقة التي كانت تقوم بين بني إسرائيل وأنبياء الله ورسله إليهم.

ولما كان القصص كله والحديث بجملته يجري به الوحي الإلهي قرآناً عربياً على قلب رسول الله محمدﷺ وهو يقود الحوار والمجابهة ويتعرض للمراوغة والمناورة من جانب اليهود في يثرب، حين كان عليه أن يوجه إليهم دعوة الإسلام ويجدد فيهم ما تبقى من بعض الحق الذي عليه بعضهم ليطهر ويصحح غالبيتهم، فقد كان من المنطقي والمعقول أن يتعرض الذكر الحكيم بالتفصيل لجوانب المراحل التي تعرض فيها بنو إسرائيل للإسلام ونبيهﷺ. سواء في مراحل رفض الدعوة الإسلامية ومقاومتها، أو إشهار السلاح ومحاولة مطاردتها إلى أن لجأوا الى مكنون أخلاقهم وسر

طبعهم وتكوينهم وهو: العمل بالخديعة والوشاية والمؤامرة والتشهير بهدف عزل مضمون العقيدة الإسلامية عن قلوب المؤمنين بها وعواطفهم وعن المدافعين عنها.

ومن هنا كان حرص كتّاب التراث الإسلامي، ومؤرخي السيرة النبوية أن يبرزوا هذه المرحلة من تاريخ الدعوة الإسلامية وخاصة التآمر اليهودي على رسول الله ﷺ في المدينة المنورة زادها الله تشريفاً وتعظيماً.

وكتابنا هذا «بنو اسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم» محاولة موضوعية لابراز نهج الرصد القرآني لبني اسرائيل من الناحية الدينية والتاريخية والسياسية، والعقيدة والأخلاق.

ولئن كُنّا في كتب سابقةٍ عالجنا الناحية الدينية والتاريخية عند بني إسرائيل وذلك من خلال كتبنا (اليهود بين الدين والتاريخ) و(إسرائيل بين المسير والمصير) و(التاريخ اليهودي العام) فضلاً عن رسالتنا (التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه) وهي مصادر موسّعة وطويلة، كنا نعالج فيها قضية الوجود التاريخي والديني والسياسي بنهج يستهدف التمييز بين حقائق التاريخ وأباطيله. فإننا هنا نحاول أن نرى لغة (القرآن الكريم) وبيانه في منهجه المحكم الذي ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1] وهو يتناول بمنهج الرصد والتسجيل الإلهيين حياة هذا القطاع من البشر وتاريخهم وعقيدتهم وذلك لكي يتضح أمام الباحث تهافت النص الديني بين أيدي غير المسلمين اليوم.

ولعلنا في النهاية نستطيع أن نقرر: أن القرآن الكريم هو الحكم الوحيد في قضية التاريخ الإسرائيلي وما يتعلق به من دعوى أو مشكلات. ومن ثم فهو الحكم

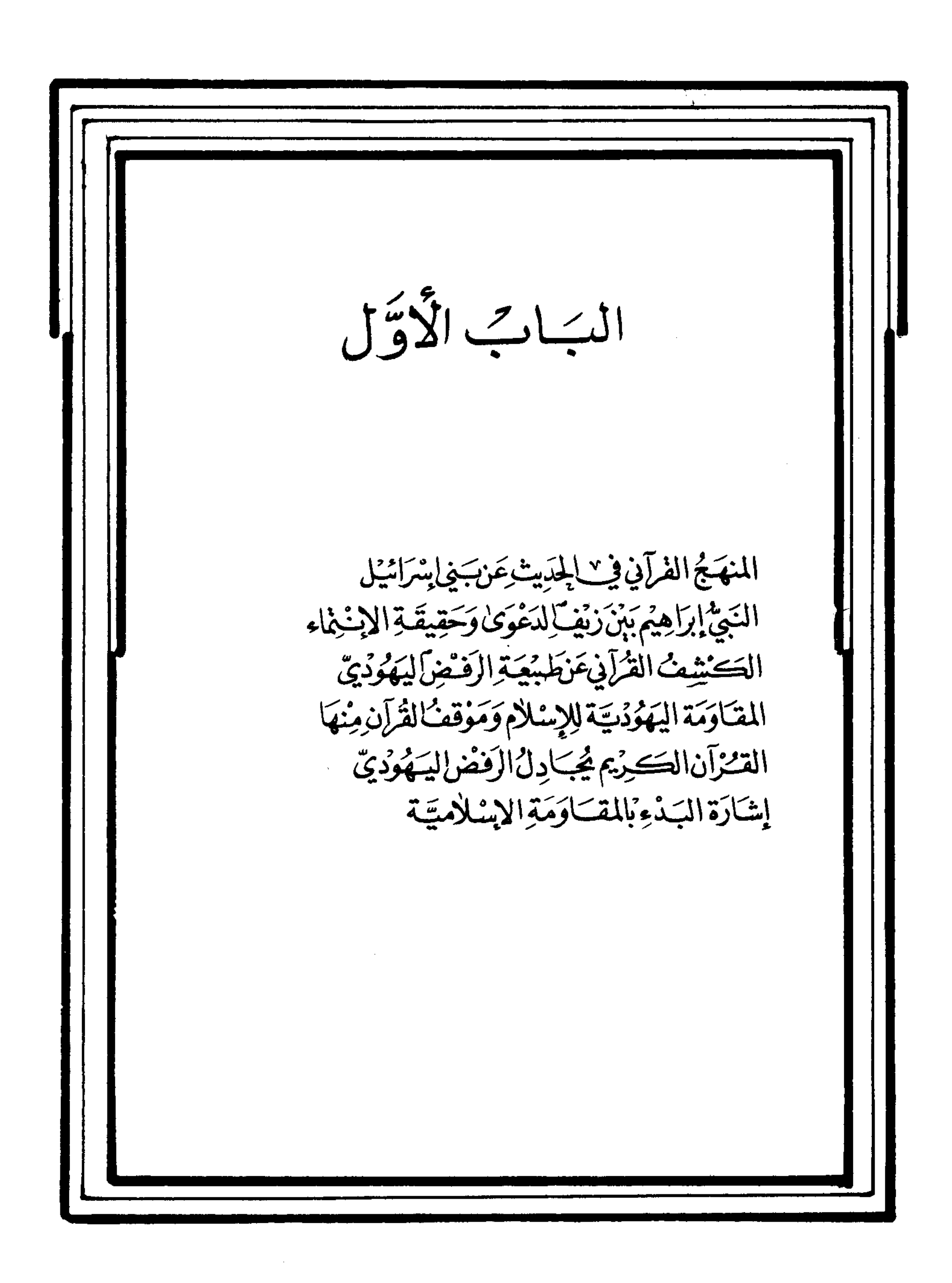
---

(١) سورة فصلت الآية ٤٢.

الفيصل في وجه من يريد أن يقيم دعوى ارتباط أو انتماء بين يهود العالم المعاصر ببني إسرائيل. وبين يهود العالم ممن سلف.

وحتى نتأكد من أن الصراع الذي يجري على الأرض العربية بين المسلمين العرب ومن يدّعون اليوم الانتماء لبني إسرائيل إنما هو صراع أطماع سياسة مستغلة الدين اليهودي. فتعالوا بنا في صفحات هذا الكتاب ننظر بني إسرائيل بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم.

المؤلف



الباب الأول

المنهج القرآني في الحديث عن بني إسرائيل

النبيُّ إبراهيم بين زيف الدعوى وحقيقة الانتماء

الكشف القرآني عن طبيعة الرفض اليهودي

المقاومة اليهودية للإسلام وموقف القرآن منها

القرآن الكريم يجادل الرفض اليهودي

إشارة البدء بالمقاومة الإسلامية

المنهج القرآني في الحديث عن بني إسرائيل

حظي بنو إسرائيل في القرآن الكريم بنصيب وافر من الإحاطة والشمول لكافة المتعلقات التي تتصل بالعقيدة الإلهية. أو بأنماط الرسالة الدينية وما يستتبع ذلك من الكشف عن بيئة الرسالة ونوعية المؤمنين بها وموقف المعاندين أو المكابرين لها.

وكان من المنطقي والمعقول أن القرآن الكريم وهو كتاب الله المبين الذي ستنقل به النبوة والرسالة على يد نبي الإسلام محمدﷺ من بيت يعقوب بن إسحق أي من بيت إسرائيل بعد مطاف طويل بدأ بأبناء يعقوب وانتهى بالسيد (المسيح عليه الصلاة والسلام) إلى بيت (إسماعيل عليه السلام)، أي إلى العرب الذين أرادت مشيئة الله لهم أن يكونوا أداة الرسالة الخاتمة، أن يقص على رسولهﷺ كل ما يمكن أن يعين على فهم رسالة التوحيد الخاتمة إلى الناس كافة. ومن هنا كان الخبر القرآني في كل متعلقات التاريخ الديني والسياسي لبني إسرائيل.. خبراً مستفيضاً يمتلىء بالدرس والعظة.

ولما كان بنو إسرائيل قطاعاً من البشر مستهدفاً من الرسالة المحمدية بأن يؤمنوا بالله وبالمنهج الذي جاء به الإسلام وصحح به عقيدة التوحيد وطهرها من كل ما شابها من صنم، أو وثن، أو ما يتعلق بها من رمز. ولما كانت مشيئة الله تستهدف بالرسالة الدينية العون الإلهي للبشر من خلال النماذج المختارة من الأنبياء والمرسلين. فإن النهج القرآني قد راح - في تفصيل موسع وقصد بارز - يكشف للمستقبل

الإنساني عن نوعية الذين استجابوا للعون الإلهي، كما يكشف عن الذين رفضوا هذا العون. وقد ظهر ذلك كلّه في ترشيد الإنسانية وترقيّها نحو الأمثل والأكمل متخلصة من أسر الغرائز وسيطرتها. ومن هنا أفاض القرآن الكريم في الحديث عن بني إسرائيل في أطوار النبوة، والرسالة، باعتبار أن الرسالة الإلهية في بيت إسرائيل خاضت تجربة لم تثمر أهدافها المرجوة في هذا البيت فترة طويلة من الزمن. ولم يمض على مسارها بضع عشرات من الأجيال، وإذا بكل مقررات العقيدة الإلهية قد تلاشت ولم تعد ملامح قضية التوحيد يمكن لمتطهر أو ناسك أن يجد لها في الواقع اليومي أثراً. أو يستشرف لها في الأفق مستقبلا.

ومن عَجَبٍ أن القرآن الكريم بعد أن وجه الدعوة الإلهية إلى بني إسرائيل إبّان عصر الدعوة الإسلامية مفترضاً أن فيهم بقيةً من دين. وأن ما بين أيديهم فيه بعض الحق الذي يتممه الإسلام ويكمله، انتظر فترة معقولة للحوار والدرس وللمراجعة. ويتمثل ذلك في الفترة التي أسلم فيها بعض قيادات اليهود. لكن الرد العام والأغلب كان بالرفض وبالمقاومة وانتقل الرفض من جانب اليهود إلى المطاردة والتكذيب ـ التكذيب لما جاء به الوحي الإلهي على قلب محمدﷺ، ثم الدخول في مراوغات ومساومات حول جوهر المعتقد الإلهي في الإسلام ـ وهو التوحيد. ومن هنا استحضر القرآن الكريم للإنسانية كلّ تجارب بني إسرائيل في النبوة والرسالة وأبَان عن موقفهم التقليدي المقاوم لكل التزامات الإنسانية الكاملة لعقيدة الإيمان بالله رب العالمين. وكشف القرآن في نهاية المطاف عن فشل بيت إسرائيل في حمل الميراث الإلهي وتداوله في الدعوة له بين بني الإنسان وأخذ القرآن الكريم يقص البداية التاريخية القديمة ويفصل في قضايا الحوار والنزاع الذي أثاره اليهود إثر موقف الرفض الذي اتخذوه من الإسلام ونبيهﷺ.

النبي إبراهيم بين زيف الدعوى وحقيقة الانتماء:

جاء القرآن الكريم فوجد أحاديث بني إسرائيل عن أبي الأنبياء (إبراهيم عليه

السلام) تدور حول أباطيل وأضاليل نسبوها زوراً وبهتاناً إلى نبي الله (عليه السلام). ووجدهم قد خلعوا عليه من صور الانحراف والإثم ما يُسَوِّغُ خطيئتهم وما يدفعهم إلى الاستمرار فيما يقومون به من أخطاء وآثام.

ولما كان اليهود قد خضعوا لأهوائهم وشهواتهم وعبدوا المال وجعلوه مدخلا لكل ضروب العبادة، والتقرب إلى ما يبغون وما يستهدفون، فقد قَصَّ القرآن الكريم عليهم خبر التزام إبراهيم (عليه السلام) لعبادة ربه وأوامره. وتوجهه إليه بالعبادة صباحَ مساءَ. والتزام بنيه من بعده بما التزم به من العبادة، وأفادهم القرآن الكريم أن حقيقة الانتماء إلى إبراهيم (عليه السلام) وادعاء الأهلية به، هي اتباع منهجه في الطريق إلى الله، وممارسة ما كان يقوم به، من عبادة ربه وما يلتزمه من طهر وتقرب ونقاء.

قال تعالى في محكم آياته: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّـٰلِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ، وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهاً وَٰحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[1].

وبيـّن القرآن الكريم هنا في هذه الآيات حقيقة الاقتداء والانتماء إلى إبراهيم، وذلك من خلال منهج إبراهيم في علاقته بربه.. ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ

(١) البقرة ١٣٠ ـ ١٣٤.

لِرَبِّ الْعَـٰلَمِينَ ﴾[1]. فرب إبراهيم هو رب العـالمين وليس رب فئة أو جماعة، والقضية عند إبراهيم التزام مطلق بالتوحيد والتطهر من الأدناس وكل ألوان الخطيئة. وذلك من خلال الانقياد التام لله، الانقياد الذي هو إسلام تام لا يشوبه التناقض ولا تشوهه أوضاع الاستغلال، انما هو انقياد يلتزم به الأبناء بعد الآباء:

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[2] وهناك عند إبراهيم وأبنائه الحقيقيين الالتزامات الحقيقية بالمسؤولية الدينية والمسؤولية الدنيوية: ﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3]. ومن عجب أن التزييف اليهودي لقضية الآباء الدينية وتحديد نوع علاقتهم بها على ضوء ما يرسمون وما يتفق وأمانيهم لم يقف بهم هذا التزييف عند الأب الأعلى إبراهيم عليه السلام. وإنما تناول أبناءه من بعده فالخلق اليهودي المعوج والقائـم على العـدوان والعقيدة الدينية المحرفة القائمة على التزييف وصور التجسيد والتشبيه التي يخلعونها على الإله والتي كانوا عليها في بدء عصر الدعوة الإسلامية. كانوا يلبسونها أيضـاً لأنبياء الله ورسله فلقد كانوا يخلعون على أنفسهم أوصاف الارتباط والانتماء إلى يعقوب وأنهم بما هم عليه إنما هم على دينه لذا نجد القرآن الكريم يرفض هذا اللغط العدواني الآثم ويقول: ﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي ﴾ ويقرر القرآن الكريم أن الموقف الأولي والمبدئي لأبناء يعقوب قبل أن يعمل فيهم الطبع الملتوي والخلق النهاز عمله ﴿ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَـٰهاً وَٰحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[4].

وعلى الرغم من أن القرآن الكريم قد توجـه بالدعـوة الصريحـة لبنـي إسرائيل

(١) البقرة: ١٣١.
(٢) البقرة: ١٣٢.
(٣) البقرة: ١٣٤.
(٤) البقرة: ١٣٣.

وكشف لهم خلالها عن بعض مزاياهم التي يمكن ان يصححوا وجودهم وأن يبدأوا عملية تصحيح لوجودهم الا انهم رفضوها. يقول الذكر الحكيم في الـكشف عن السماحة الاسلامية التي التزم بها نبي الاسلام تجاه اليهود:

﴿ يَـٰأَهْلَ الْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَـٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُ سُبُلَ السَّلَـٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[1].

ومن هذا المنطلق الإسلامي تجيء الدعوة الإلهية في النهج القرآني عظيمة الغاية، تحمل في ثناياها الوضوح الإسلامي والطهر الإلهي في التعامل وفي الاتجاه نحو الاله الواحد. يقول الله في الذكر الحكيم ملزماً نبي الاسلام وموجهاً الى نهج لم تألفه الدنيا من قبل:

﴿قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[2].

هكذا يحسم القرآن الكريم القضية الدينية ويحدد موقف اليهود منها ويطلب من نبي الإسلام أن ينادي الدنيا بأعلى صوته: «يأهلَ الكِتَابِ إنَّ هُنَاكَ كَلِمَةِ سَوَآءِ بَيننَا وَبَينكُم» وهي حقيقة مطلقة في التوراة والانجيل جاء بها القرآن الكريم طاهرة نقية وبهذه الكلمة تلتقي الأهداف ويتحدد المسار الطويل للرسالة الإلهية ويصبح به المضمون العقدي المستهدف حقيقة واقعة بيننا وبينكم وهي: ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ

---

(١) المائدة: ١٥ - ١٦

(٢) آل عمران: ٦٤.

وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً﴾ وينتهي القرآن الى قضية اجتماعية وسياسية واقتصادية بهذه الكلمة ﴿ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً ﴾ ومنطلق هذه القضية أن المعتقد إذا كان هكذا لا عبادة الا الله فإن المنطقي أن تبرأ الإنسانية من معبود غير هذا الاإله الفرد الصمد، وتصبح القضية الجديدة المطروحة في النهج القرآني وهو يطرح الدعوة الإسلامية أمام اليهود: ﴿ وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ قضية العدل والحب. . والخير والمساواة.

ومن عجب أنه رغم كل هذه الجهود القرآنية التي تحاول ان تستنطق اليهود للسير معاً نحو الهدف المبتغى والمستهدف فان القرآن يفترض الرفض اليهودي وعند ذلك: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾.

الكشف القرآني عن طبيعة الرفض اليهودي:

المتتّبع لجملة الآيات الكريمة التي يحتويها القرآن الكريم والمتعلقة بالحديث عن بني إسرائيل يجد أن القرآن الكريم المصدر الوحيد من بين كل المعطيات العقدية هو الذي يقرر أن اليهود كان لديهم مما يتداولونه من التواراة بعض الحق الذي يمكن أن يثوبوا إليه وأن يكون البداية لتصحيح ما هم عليه. ورغم أن القرآن الكريم وهو يخاطبهم من أجل اتباع محمدﷺ قد قرر صراحة أنهم في حاجة ماسة إلى اتباع محمد ﷺ لأنهم أصبحوا مشركين لا يعرفون الإله الحق، وأن الشرك كفر عظيم ومن ثم فلا حق لهم في الأدعاء لنبي أو لميراث وحي، ومع ذلك يقرر القرآن أنه كان لديهم بعض الحق، وأنهم على هديه لا بد من الإيمان بمحمدﷺ ولكنه الخلق الملتوي الرافض لكل معونات السماء. يناديهم الرحمن الرحيم في كتابه المحكم التنزيل:

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ

وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً، إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ﴾[1].

ولا شك آن المؤدى واضح وبدهي على ضوء هاتين الآيتين الكريمتين. فإن الذين كان بين أيديهم الكتاب أي التوراة من بني إسرائيل كان لديهم ومعهم ما يلزمهم بالاستجابة لدعوة محمدﷺ، ومن عجب أنهم لم يتنبهوا للتهديد الإلهي:

﴿ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ ﴾. وعلى ضوء ما جاء في تفسير ابن جرير[2]: عن ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله، خاطب رؤساء من أحبار اليهود منهم: عبد الله بن صوريا، وكعب بن أسد، فقال لهم: «يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فوالله أنكم لتعلمون أن الذي جئتكم به لحق فقالوا ما نعرف ذلك يا محمد، وجحدوا ما عرفوا وأصروا على الكفر، فأنزل الله فيهم: ﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ ومن هنا كان الواجب على اليهود أن يؤمنوا بمحمد ﷺ وأن لا يقاوموا ولا يختلفوا، ولما أعرض الكثيرون وقاوموا كان الخطاب الإلهي لرسول الله ﷺ في سورة «آل عمران»[3].

﴿ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَـٰغُ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾.

---

(١) النساء: ٤٧و٤٨.

(٢) انظر تفسير ابن جرير ٥/ ١٢٤.

(٣) آل عمران ٢٠.

ويَلْفِتُ القرآن الكريم الناس إلى حقيقة تتعلق بالطبع اليهودي وهي البغي والعدوان والغل والحقد والحسد فهذه النوازع الشريرة لم يهذبْـها خلق او دين وهذه الحقيقة المرضية هي التي كانت وراء رفضهم ومقاومتهم يقول تعالى:

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ ﴾(1).

وهذا البغي الذي كان سبباً في الاختلاف حول الإيمان بنبوة محمدﷺ ورسالته هو الذي كان سبب الفرقة اليهودية بل هو الذي كان سبب الشك والريبة وهو الخلـق الذي يميز السلوك اليهودي عبر كل العصور. تقول الآية الكريمة رقم ١٤ من سورة الشورى:

﴿ وَمَاتَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُم وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَـٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾(2).

ويركز القرآن الكريم لعل الإنسانية تنتبه الى هذه الخـاصية اليهـودية، خاصية البغي، فآيات الجاثية وهي تقص أخبار نعمة الله على بني إسرائيل لـم تغفل التنبيه الى هذا المرض الخطير.

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَـٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَفَضَّلْنَـٰهُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ، وَءَاتَيْنَـٰهُم بَيِّنَـٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓاْ

---

(1) آل عمران ١٩.

(2) الشورى: ١٤.

﴿ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيَۢا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾(١).

ويتابع القرآن الكريم إحاطته وشموله لكل الجوانب المتعلقة ببني إسرائيل فبرغم التشخيص الدقيق الذي يكشف عن تأصل غريزة البغي عندهم يفرز القرآن من بينهم العناصر التي التزمت وتطهرت حتى وان كانت مجموعة قليلة لم يتيسر لها أن توصل قضية الرسالة الإلهية الى أهدافها المرجوة بين الناس بالحق والخير. وتجيء الآية رقم ٨٣ من سورة البقرة لتحدثنا عن حكم قرآني على بني اسرائيل في منتهى الدقة والحسم:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴾(٣).

وعند قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ ﴾ تبرز العدالة القرآنية في الحكم على نوعيات بني إسرائيل في الاستجابة للحق والطهر عند قليل منهم وفي الرفض والبغي والتولي عن الحق والخير عند الأكثرية الغالبة فيهم.

وعندما ندقق في النظرة القرآنية لجوانب الوجود الإسرائيلي كله نرى القرآن يرفع مجموعة من بني إسرائيل على طول تتابع الرسالة الدينية منذ عصر أبي الأنبياء إلى درجة عالية من الإيمان بالله والتعبد له. بل والالتزام بقضايا الحق والعدل حتى وان كانت بلغت هذه المجموعة حداً من الضآلة في تعدادها. إلا أن القرآن باعتباره الكتاب الحق لا يغفل ربه عن أن يسجل فيه لكل ذي حق حقه حتى لو كان صاحب الحق من بين بني إسرائيل، يقول رب العزة عن العناصر الخيرة من بني إسرائيل:

---

(١) الجاثية: ١٦, ١٧

(٢) البقرة: ٨٣.

﴿ لَيْسُواْ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْـلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ، يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلأَخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَـٰئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ، وَمَا يَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

وهكذا تتجلى قِيَمُ الحق والعدل كلُّها في القرآن الكريم حتى وهو يتحدث عن خصوم الوحي والرسالة الإلٓهية: ﴿ وَمَايَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾. لكنّ القرآن الكريم وهو يستقصي كل الجوانب المتعلقة بتاريخ بني إسرائيل لا يغفل عن التنبيه إلى طبيعة العناد أوالتخويف عند الكثرة. وبلغةٍ تفيضُ تسامحاً ومحبة يكشف عن مواقف متناقضة لليهود. وتجيء الآيات المتتابعة في سورة المائدة لتبَين عن مواقف متناقضة لليهود مع أنفسهم ومع ما في أيديهم من تراث بعضهُ حقٌ وأكثرُه باطل.. يقول ربُّ العزة لنبيه الخاتم محمدﷺ:

﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[2].

وحتى لا يضيق المؤمنون صبراً وهم يبذلون أقصى الجهد الإنساني في مخاطبتهم ومحاولة التعامل الديني معهم بمنهج الحق والعدل فإن آيات الذكر الحكيم تكشف في تشخيص دقيق عن واقعهم وسوء العاقبة جلّ شأنه: ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[3].

---

(١) آل عمران ١١٣ ـ ١١٥

(٢) المائدة: ٥٩.

(٣) المائدة: ٦٢.

ويقول تعالى في السورة ذاتها:

﴿ تَرَىٰ كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي ٱلْعَذَابِ هُمْ خَـٰلِدُونَ ﴾[1].

ومع كل ما كشفه القرآن عن الطبيعة العدوانية لبني إسرائيل وبكل رصيد التجارب الذي كان عند المسلمين عن الخلق اليهودي الشحيح، فإن القرآن في محاولة عظيمة للاشعار بروح التكامل الإنساني والأخلاقي في الإسلام قد أباح للمسلمين إذا ما رغبوا في التعامل مع العناصر المؤمنة من بني إسرائيل أن يتعاملوا وأن يأكلوا طعامهم بل وأن يتزوجوا من نسائهم، وعلى نفس المستوى الأخلاقي الذي يتعامل به المسلم مع أخيه المسلم، وغيرُ غريب على المسلم زواجُ الصحابي الجليل عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه من «نائلة بنت القرافصة الكلبية» وهي نصرانية.. وقد تزوج حذيفة من يهودية.. وكذلك فعل طلحة حين تزوج من يهودية من أهل الشام، وكان المنطلق الذي تحركوا على هديه: قول رب العزة في سورة المائدة:

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَـٰتُ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَـٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخْدَانٍ ﴾[2].

ومع كل هذه السماحة وهذا الخُلُق القرآني، فإن طبيعة الرفض اليهودي لكل ما هو حق وخير.. وعدل ـ عملت عملَها في نفوسهم، فأعدوا العدَّة لحربٍ ومقاومةٍ عنيدة ضد الإسلام ونبيه عليه السلام، وكانت البداية أنه حين ظهر ـ المصطفى ﷺ، أنكروا دعوته وقاوموه وحاربوه، كان ذلك حين هاجر ﷺ من مكة إلى يثرب.

---

(١) المائدة: ٨٠.
(٢) المائدة: ٥.

ولما آمن به جماعة من اليهود مثل: عبد الله بن سلام، ومخيريق الذي كان حبراً يهودياً وقاتل مع الرسول في غزوة أحد ضد أهل مكة. ومثل ثعلبة بن سعية وسعد بن عبيد، كان على القوى الجاحدة والمنكرة أن تقاوم هذا التيار الذي بدأ يتعاطف مع المسلمين بل وينضم إليهم، ومن هنا فإن عناصر المقاومة اليهودية ضد الرسول ﷺ بدأت تعلن عن مواقف القُوى التي تنتمي إليها وتعبر عنها. فبرز من التنظيم اليهودي الخفي في بني النضير مجموعات تقود المطاردة ضد النبي والمسلمين، ثم تتابع جهدها بالتشهير والتجريح وإشاعة الفتن، ويتمثل ذلك في أساليب حيي بن أخطب وأبي ياسر بن أخطب، وسلام بن مشكم، وسلام بن أبي الحقيق وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وعمرو بن جماش وكعب بن الأشرف، وكردم بن قُدَيْس وغيرهم.

وتعاونت هذه العناصر اليهودية مع عناصر أخرى من اليهود المنتشرين في مناطق الشمال.

وحين وقعت معركة «بدر» وظهر من نتائجها ما يمكن أن يغير في أوضاع المسلمين بيثرب، ويحولهم إلى قوة سياسية تمثل خطراً على قوى الرفض اليهودي للإسلام والمسلمين، كان على قيادات التنظيم اليهودي أن تكشف للجماهير اليهودية عن قدرتها على المقاومة والرفض لهذه الأوضاع الإسلامية الجديدة فظهر بجانب العناصر اليهودية القائدة في بني النضير عناصر من يهود ثعلبة وكان منهم ابن الفطيون: عبد الله بن صوريا الأعور، وكان معلماً فلم يكن أحد بالحجاز في زمانه أعلم منه بالتوراة، وظهر من يهود قينقاع ابن اللُّصيت وسعد بن حنيف، ومحمود بن سليمان، وعزيز بن عزيز، ورفاعة بن قيس وفنحاص، وأشيع، ونعمان بن عمرو، وكعب بن أبي رافع.

وبرز للمواجهة والمطاردة من مواقع العمل الخفي مع العناصر التي تصدت للإسلام والمسلمين من بني النضير وثعلبة وقينقاع عناصر قيادية أخرى من يهود بني

قريظة، وكان من أشهرهم الزبير بن باطا بن وهب، وعزال بن شمويل، وكعب بن أسد، وكان هذا من العناصر اليهودية الثرية التي تقود الجماعة اليهودية في بني قريظة، فتولى القيام بعقد مع المسلمين لصالح بني قريظة، ولما أحس أن الوقت في غير صالح المسلمين في حصار الأحزاب ليثرب في السنة الخامسة من الهجرة، نقض عهده وقبل أن يمد يده لجيوش مكة في انقضاضها على المسلمين. وكان من يهود بني قريظة الذين دفعتهم العداوة للإسلام أن يعملوا وجهاً لوجه، ويتركوا مواقعهم الخفية وأساليبهم المستترة شمويلُ بن زيد، وجبل ابن عمرو بن سكينة، والتام بن زيد، وفردم بن كعب، والحارث بن عوف، وكردم بن زيد.

وأما يهود بني زُرَيْق فكان منهم لبيد بن أعصم، وهو الرجل الذي تولت نساؤه القيام بمحاولات لإيذاء الرسول ﷺ.

وفي المراحل الأولى لتطور أوضاع المسملين وأحوالهم في المدينة فإن القُوَى الخفية للتنظيمات اليهودية قد ألقت بهؤلاء في وجه الإسلام، والمسلمين، وذلك قبل أن يعلنوا الحرب على الرسول ﷺ ويدخلوا في القتال.

* * *

المقاومة اليهودية للإسلام وموقف القرآن منها:

تمثلت المقاومة اليهودية للإسلام في باديء أمرها بمواقف الإنكار والتشكيك التي بدأ رجال الدين اليهودي يقومون بها. ولما أحسوا أنّ الموقف يوشك أن يفلت من أيديهم (نتيجة المواقف المؤمنة التي قادها بعض أحبار اليهود) من الذين رأوا الحق حقاً فاتبعوه، قامت العناصر اليهودية التي تتوارث التوجيه اليهودي وتسيطر عليه أجيالاً بعد الأخرى لتعمل عملها ضد الإسلام والمسلمين.

ويقول الحصين بن سلام اليهودي، الذي كان حَبْرَاً كبيراً من أهل التوراة ثم أسلم وتسمى باسم عبد الله بن سلام: لما سمعت برسول الله ﷺ عرفت صفته

واسمه وزمانه الذي كنا نترقبه، فكنت على ذلك مسراً وصامتاً عليه حتى قدم رسول الله المدينة، فلما نزل بقباء في بني عمرو ابن عوف، أقبل رجل حتى أخبر بقدومه، وأنا في رأس نخلة لي أعمل فيها، وعمتي خالدة بنت الحارس تحتي جالسة، فلما سمعت الخبر بقدوم رسول الله كبرت، فقالت عمتي حين سمعت تكبيري: خَيَّبَكَ الله! والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران ما زدت. قال فقلت لها: أي عمةُ هو والله أخو موسى بن عمران وعلى دينه بُعِثَ بما بُعثَ به، قال فقالت: أي ابن أخي، هذا النبيّ الذي كنا نخبر أنه يبعث مع نفس الساعة؟ قال فقلت: نعم، قال فقلت: فذاك إذا، ثم خرجت إلى رسول الله ﷺ فأسلمت، ثم رجعت إلى أهل بيتي، فأمرتهم فأسلموا.

ومن البداهة التي لا يغفلها رجل في مثل قلب عبد الله بن سلام وعقلِهِ أنَّ رد الفعل اليهودي في مواجهة ما أقدم عليه وما استجاب له سيكون ولا شك خطيراً، خاصة وأنهم يدركون قيمته ومنزلته الأدبية بين قومه.

ويُشيرُ ابن سلام بفراسته إلى ما يمكن أن تقوم به القُوَى اليهودية من التخفيف والتهوين من إسلام رجل في منزلته، ويعمل جهده في أن يضرب أسلوبهم في المراوغة والتشويش للمواقف والمبادىء فيقول:

«وكتمت إسلامي من يهود، ثم جئت رسول الله ﷺ، فقلت له: يا رسول الله إن يهود قوم بهت، وأنا أحب أن تدخلني في بعض بيوتك، وتغيبني عنهم، ثم تسألهم عني، حتى يخبروك، كيف أنا منهم قبل أن يعلموا بإسلامي فإنهم إن علموا بي يهينوني ويعيبونني. يقول ابن سلام: فأدخلني رسول الله ﷺ في بيوته ودخلوا عليه فكلموه وسألوه، ثم قال لهم: أيُّ رجلٍ الحصينُ بنُ سلام فيكم؟ قالوا: سيدنا وابن سيدنا، وحَبْرنا وعالمنا! يقول ابن سلام: فلما فرغوا من كلامهم خرجت عليهم فقلت لهم: يا معشر يهود اتقوا الله واقبلوا حاجاتكم به، فوالله إنكم لتعلموا أنه رسول الله ﷺ، وأنا أؤمن به وأصدقه وأعرفه!».

وفي هذا الموقف الدقيق والرهيب الذي أعد لهم من قبل رجـل، كان بالأمس واحداً منهم يعرف خلقهم وسرائرهم وما تنطـوي عليه نفوسهـم من غدر وخيانـة اتضح الموقف الذي ستتخذه القوى اليهودية بمختلف فئاتها من المصطفى ﷺ، ذلك أنهم حين فوجئوا بإسلام الحصين بن سلام بعـد إقرارهـم بقيمتـه الأدبية والـدينية بينهم، قالوا لابن سلام: كذبت! ويصف لنا الحَبْرُ الإسرائيلي الجليل الحصـينُ بن سلام أخلاقَ قومه اليهود بعد أن أصبح أنصارياً من صحب رسول الله والمؤمنين به: ألم أُخْبِرْكَ يا رسول اللهِ أنهم قَوْمٌ بُهْتٍ وأهل غدر وكذب وفجور ثم يقول بعد هذه الواقعة: فأظهرت إسلامي وإسـلام أهـلِ بيتـي، وأسلمـتْ عمتـي خالـدة بنـتُ الحارث، فَحَسُنَ إسلامها وكذلك أسلم «مخيريق» ولما كان رجلاً قد استقر قلبه وعقله على الإيمان بالإسلام وبمحمد عليه السلام، فإنه قد آثر أن يكون لإسلامه تأثيره الحاد في نفوس اليهود ويبدو من جملة تاريخ هذا الصحابي الجليل أنه كان كبير السن كثير المال قليل العيال.

وكان يعرف رسول الله ﷺ ويطمئن إليه كثيراً، فلم يزل على ذلك حتى كانت غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة، وكانت في يوم السبت، فوقف «مخيريق» على مَلأٍ من جَمْعٍ يهودي وقال: يا معشر اليهود، إنكم لتعلمون أن نصر محمـد عليكم لحق! وبهِتُوا من موقفه منهم في يوم السبت، وقالوا له: إن اليوم يوم السبت. قال لا سَبْتَ لكم، ثم أخذ سلاحه وانطلق ليشترك مع المسلمين في معركة أحد بعد أن ترك وصية بنقل امواله فضلاً عن مزارعه من النخيل، إنْ هو استشهد، الى رسول الله ﷺ.

وأمام البداية العلمية لتأثير الإسلام في بعض العنـاصر من اليهـود جن جنـون قيادات المقاومة السرية المتحكمة في مصير التجمع اليهودي ومقوماته.

وانضم إلى القيادات اليهـودية بعض رجـال الأوس والخـزرج ممـن ظلـوا على جاهليتهم وانضم إليهم بالولاء بعض العناصر المنافقة التي تعتنق الإسلام ظاهراً، أما

حقيقة عواطفهم فكانت مرتبطة بالقوى المقاومة للإسلام.

ومن هنا فإنّا نرى أن أسباب انتشار المغالطات التي كان يروج لها اليهود بين سكان المدينة كانت من خلال هذا التجمع المتلاقي على أهدافٍ محددةٍ ضد الإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام.

ولقد أعان على تفاقم التباين وتصاعد حدة التناقض بين ما يبينه الإسلام في عالم الروح ونظام الاجتماع وأمور الاقتصاد والسياسة، وبين ما يمتلكه اليهود وما يطمعون فيه من تسلط وعدوانية وإرهاب، هو أن عناصر يهودية من الأحبار والكهان أسلمت نفاقاً ورياءً، واندست تحت ظل ارتداء ثوب الإسلام بين المسلمين، واطلعت على ما هم بصدده من أمور الحياة وشؤون الدين.

وكان من أبرز هذه العناصر اليهودية: سعد بن حنيف، وزيد بن الليث ونعمان بن أرقى بن عمرو، وعثمان بن أوفى، ولقد عمل التنظيم اليهودي الخفي عمله في الدفع بهذه العناصر اليهودية لتأدية دورها المرسوم لها ضد الإسلام والمسلمين، فزيد بن اللصيت مثلاً هو الذي قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بسوق قينقاع، وهو الذي قال حين ضلَّتْ ناقة رسول الله ﷺ: (يزعم محمد أنه يأتيه خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟) وعلم ﷺ بقول هذا اليهودي المستتر، فغضب من هذه القولة اللئيمة التي أراد بها هذا اليهودي الهزء بالمصطفى عليه السلام ودله الله تعالى على مكانها فقال: (إنَّ قائلاً قالَ: يزعم محمدٌ أنه يأتيه خبر السماء ولا يدري أين ناقته، وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها فهي في هذا الشعب قد حبستها شجرة بزمامها، فذهب رجال من المسلمين، فوجدوها حيث قال رسول الله ﷺ، وكما وصف).

وهذه العناصر اليهودية بكل ما تؤمن به وما تلجأ إليه من أساليب في الخفاء أو العلانية صَعَّدَت المقاومة ضد الرسول ﷺ والمسلمين إلى مرحلة الصدام المسلح، ويكفينا في التدليل على روح العناد والمقاومة عند اليهود ضد الإسلام والمسلمين

شهادة «صفية» ـ رضي الله تعالى عنها ـ بنت حيي بن أخطب، تقول فيما يرويه ابن هشام في سيرته، عن ابن اسحق الذي يقول: وحدثني عبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمر بن حزم قال: حدثت عن صفية بنت حيي بن أخطب أنها قالت: «كنتُ أحبَّ ولدِ أبي إليه وإلى عمي أبي ياسر، لم أَلْقَهُمَاَ قطُّ مع ولد لهما إلا أخذاني دونه، قالت: فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة ونزل قباء في بني عمرو بن عوف غدا عليه أبي حييٌ بنُ أخطبَ وعمي أبو ياسر بن أخطب، مغلسين قالت: فلم يرجعا حتى كنا مع غروب الشمس، قالت: فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهُوَيْنَى، قالت: فهششت إليهما كما كنت أصنع، فوالله ما التفت إلى واحد منهما مع ما بهما من الغم. قالت: وسمعت عمي أبا ياسر وهو يقول لأبي حييّ بن أخطب: أهو هو؟ قال: نعم والله! قال: أتعرفه وتثبته؟ قال: نعم، قال: في نفسك منه؟ قال: عداوته والله ما بقيْتُ»[1]

بهذه الروح المنكرة الكافرة والجاحدة عامل اليهود رسول الله ﷺ، في كل مراحل دعوته لهم أو مجاورتهم له. حتى كانت المرحلة التي ابتدأوا فيها يمثلون الخطر المحقق على حركة المسلمين وأمنهم، وخاصة بعد أن ضاق اليهود بانتصار المسلمين في السنة الثانية من الهجرة على جيش مكة في معركة بدر، ومنذ السنة الثانية من الهجرة والعداوة اليهودية للمسلمين قد استنفدت كل ما لديها من ألاعيب وأساليب، حتى كانت الحرب بين المسلمين واليهود، وقد تمكن فيها المسلمون أن يفرضوا ارادتهم على التجمعات اليهودية ويهيئوا الجو العام من حولهم لعلاقات إسلامية جديدة شريفة وفاضلة، تقوم على قضايا الحق والخير والمساواة، وحتى لا تستقر هذه القيم على الأرض بدأ اليهود جولاتهم المتآمرة ضد الإسلام والمسلمين.

(١) انظر وفاء الوفاء للسمهوري ١/ ٢٧٠.

القرآن يجادل الرفض اليهودي:

قبل أن نتعرض للمنهج القرآني في بيانه لاستدراج الرفض اليهودي ومحاولته أن يغير من طبيعته العدوانية. يجب أن نؤكد بعض القضايا المقررة والمتفق عليها، لأنها تعين في تفهم مدى العنت والصلف الذي جابهه القرآنُ الكريم في اليهود بصدق ومسؤولية.

يقرر القرآن الكريم صراحة أن اليهود من بني إسرائيل وخاصة في منطقة (يثرب) كانوا على علم بالعصر الذي سيظهر فيه النبي العربي، الذي سيؤول إليه ميراث النبوة والرسالة منذ عصر أبيه إبراهيم عليه السلام.

وثاني الأمور أن اليهود كانوا على علم بظهور دعوتهﷺ في مكة، قبل أنْ يفِدَ الى يثرب مهاجراً، فقد كان بعضهم يفد إلى مكة للتجارة وشراء ما يحتاجون إليه من حَلْيٍ وأدوات الزينة وبعض الأسلحة، هذا فضلاً عن أنّ قريشا في إبّان اشتداد الأزمة، بينها وبين رسول الله ﷺ بعثت رجالاً من أشرافها على رأسهم «النضر بن الحارث»، و «عقبة بن معيط» للتعرف على حقيقة ما يدعيه «محمد» من أخبار النبوة والوحي السماوي باعتبار أن اليهود في يثرب أهل كتاب!! وبالفعل فان القيادات الدينية اليهودية في يثرب تعاونا مع أهل مكة وجهت وفداً إلى مكة وطلبتْ منه أن يبلغ قريشا لتطلب من محمد الإجابة المحددة عن بضعة أمور في الغيب السحيق والمستقبل الغامض فإن أجاب كما لَقَّنَ التوراتيون من بني إسرائيل وفد أهل مكة فإن الرجل في دعوته صادق ولا شك ونبي من غير جدال.

وكان أشد ما في الأسئلة التي وجهتها قريش بالفعل إلى رسول الله، بناء على توجيهات اليهود من بني إسرائيل، السؤال عن فتية ذهبوا في الدهر الأول فقد كان أمرهم جللا وحديثهم حدثاً؟!..

ثم السؤال عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؟!..

ثم كان السؤال الثالث عن ذلك السر العظيم والخالد الذي احتفظ به وبمكنون أسراره وما يحيط به رب العالمين كان السؤال عن: الروح.

ومن عجب أن الرسول ﷺ في حوار قريش له حول الأسئلة الثلاثة وعدهم بالإجابة في اليوم التالي للحوار، وقال لهم: «أخبركم غدا عما سألتم عنه» ولم يقل إن شاء الله، فكان تأجيل الوحي بالإجابة ثقيلا على الرسول لكنه الدرّس والتوجيه.

ومع أن الإجابة التي جاءت للرسول من ربه، كانت مفحمة لليهود، ولعلمهم وكل ما يدعونه عبر التاريخ، فإنهم ظلّوا على موقفهم من العناد والرفض، وفي هذا يقول رب العزة:

﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴾[1].

وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا.. فقال لهم سبحانه وتعالى: **﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا۟ فَقَدْ جَآءَكُمُ ٱلْفَتْحُ ﴾**[2].. وكان هذا الأسلوب القرآني الرقيق بمثابة التوجيه المسالم واللفت المهذب.. لقد كنتم أيها اليهود تخبرون المشركين بقرب ظهور نبي فلما جاء هذا النبي رحتم تنكرونه وتقاومونه.. ألا لعنة الله على الظالمين!

وبهذا المدخل القرآني الفذ في المعاملة والتوجيه وإدارة الحوار مع بني اسرائيل كان رسول الله ﷺ يلتزم بهذا النهج القرآني في كل أموره مع اليهود حتى في مراحل غدرهم به ﷺ.

وحين وجدهم في يثرب قوّةً تبتغي تحطيم العنصر البشري في حرب أهلية،

---

(١) البقرة: ٨٩.
(٢) الأنفال: ٧١٩

وذلك حين قسموا أنفسهم باديء الأمر على مجموعات تُعين العناصر العربية المتنافرة والمتحاربة وحين انضمت طائفة من يهود فينقاع والنضير إلى الخزرج وانضمت قريظة إلى الأوس. وتطور الصراع بين الجانبين وتورط فيه اليهود وكانوا في بعض المراحل يقاتل بعضهُم بعضاً لنصرة من يحالفونهم من العناصر العربية المتحاربة، حتى تُضْعِف الحرب روح الحياة عند العرب وتهد كيانهم وتقلل من بأسهم. جاءت آيات البقرة لتلفت النظر إلى أنه لا ينبغي أن يكون الأمر هكذا بين اليهود، وأنه قد آن الآوان بظهور الإسلام أن يكفوا عن العداوة والبغضاء والتنازع. يقول رب العزة:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[١].

وهكذا كان الحرص القرآني على إشاعة جو من السلام أمام الإسلام وأهله، حتى لو كان مطلب السلام يسري على القطاعات اليهودية المختلفة، التي تقاتل لغير ما هدف في القتال سوى العون على إراقة الدم العربي أصلاً. ثم حدث أنّ الرسول ﷺ استطاع أن يؤاخي بين الأوس والخزرج، فاستظلوا براية الإسلام واجتمعت كلمتهم بعد أن كانوا متفرقين بل أعداء، وكنتيجة طبيعية لوحدة الموقف العربي الذي كانت تتحرك عليه دعوة الإسلام، فإن اليهود في المدينة عجزوا عن العداء السافر، ولم يعودوا إلى مجابهة النبي بعد. ولكنهم في الرفض الصريح والمقاومة الجادة آثروا

---

(١) البقرة: ٨٤ ـ ٨٥.

المهادنة فترة من الوقت. . عقد لهم فيها الرسول ﷺ عهداً بلغ فيه التسامح الإسلامي درجةً كبيرة حتى أنّ أكثرَ بنودِهِ كانت لصالح اليهود.

لكنهم أدركوا أن نجاحات الإسلام تسير بخطى متقدمة، وأن المسلمين يحققون أوضاعاً اقتصادية وسياسية أفضل، فأحزنهم وضايقهم وفجر أحقادهم ما رأوا أمامهم من أن المناخ الذي يفرضون فيه مُرَكَّيدِهِمْ، ويعبرون من خلاله عن مصالحهم قد ابتدأ يزول تماماً، ذلك أنهم رأوا أن عدد المسلمين يزيد ولا ينقص وأن الأخوة الإسلامية تظلل بلوائها الجميع.

ولما رأوا أن الرسول ﷺ يلح عليهم في ضرورة متابعته، وأنهم بكل ما يمثلونه غير خارجين عن نطاق دعوته ﷺ، باعتبار أن الإسلام رحمة للعالمين، غاظهم النبي واعتبروه منافساً يقضي على امتيازاتهم وكلّ أوهام ادعاءاتهم، فدخلوا في مناورات معه ضربها القرآن وقَصّها للدرس والتدبر. أعلنوا أنهم لم يؤمنوا بمحمد ليس لأنه يمثل خطراً عليهم أو يهدد امتيازاتهم وأوضاعهم، ولكن لأنه لم يقم الدليل على صدق دعوته وبأنه نبي، ذلك أنه لم يأت بمعجزات من مثل التي أتى بها الأنبياء السابقون، وبرروا عذرهم في عدم قبول دعوته بهذا الادعاء.

ولما كان تاريخ بني إسرائيل من النبوة والرسالة، ومن الأنبياء على وجه مخصوص يتخذ موقف الرفد والمكابرة، بل والعناد، والتآمر والقتل حتى ضجت منهم السماء وسجلت عليهم بهتانهم وكفرهم بآيات الله، فإن الوحي في الذكر الحكيم كان يقص على نبي الإسلام سخف الهراء اليهودي ويكشف عن مدى كذبه وتضليله. . يقول تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾[1].

---

(١) آل عمران: ١٨٣.

واستمرأ اليهود هذا الأسلوب، رغم أن القرآن الكريم كان يوبخهم عليه أولا بأول حتى جاء حَبْر يهودي كبير لرسول الله ﷺ، هو «رافع بن حريملة» وقال للمصطفى: يا محمد، إن كنت رسولاً حقاً من عند الله كما تقول فأثبت لنا ذلك بالدليل، قل لربك أن يكلمنا نحن حتى نسمع كلامه عندئذ نؤمن بك! ولما كان هذا المطلب يعتبر تعطيلاً لوظيفة الوحي في الناس فضلاً عن أنه عدوان على أنبياء الله وإهمال للمشاعر والقلوب التي يمكن أن تتعرف على الله من خلال بعض آياته وهو مناف أصلاً لقضية الإيمان التي يدعون إليها. فإن الذكر الحكيم يسجل عليهم هذا المطلب السخيف ويضرب لهم الأمثال لعلهم يعقلون: يقول رب العزة:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾[1]. وحتى لا يكون هناك أدنى شك في قلوب كل الذين استمعوا لرد القرآن الكريم على هذا المطلب اليهودي في أن يكلمهم الله بالرفض الإلهي القاطع، قص الله سبحانه وتعالى على نبيه سبب الرفض وعدم الاستجابة لهراء ما يطلب الكهان من بني اسرائيل، فقال لنبيه ﷺ:

﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾[2].

وفي هذه الآية الكريمة يكشف القرآن عن النيات اليهودية، ويوضح أن الموقف اليهودي منذ ماضيه غير مستعد لتقبل الوحي، ولا مهيأ للاستجابة له.

---

(١) البقرة: ١١٨.

(٢) النساء: ١٥٣.

ولما قالوا لرسول الله ﷺ يُسوِّغُونَ عدم الاستجابة له وكان يتزعم الموقف حبْر يهودي اسمه (ابن صوريا الفطيوني) يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك بها.. كان الرد القرآني الحاسم ليخرس الحواس المتبلدة والقلوب الغليظة:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾[1].

وأعلنوا أنهم ليسوا في حاجة الى الإيمان بمحمد، ولا إلى اتباع دين جديد لأنهم بما لديهم من تراث في الدين ومن انتماء إلى إبراهيم عليه السلام وما يحفظونه من تعاليم، ليسوا في حاجة إلى جديد.

ولما كانت توراتُهم وكل ما يتعلق بها ـ إن كان بها بقية من صدق ـ كانت في زمن متأخر عن إبراهيم بفترة طويلة، ولما كان ينازعهم في نفس الدعوى نصارى عصرهم ويحاورونهم في أمر أحقية من هم أولى: اليهود أم النصارى في دعوى الانتماء.. والارتباط بإبراهيم ودينه فإن رب العالمين يكشف لعباده حقيقة الانتماء الذي ينسب إليه إبراهيم عليه السلام، يقول رب العزة:

﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ، إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[2].

---

(١) البقرة. ٩٩.

(٢) آل عمران: ٦٥ ـ ٦٨.

وكان من الممكن لو كان عند اليهود بعض حياء أن يتأدبوا أمام هذه الروح . . الإسلامية، وأن لا يكرروا مواقف التزييف والتضليل ثم استسلامهم لروح الحقد التي تسيطر عليهم، تجاه كل ما هو حق من خلال روح الإسلام التي قوي بها بأس الأمة العربية، والتي كانت تتقاتل بالأمس ويريق بعضها دمَاءَ بَعض فأكرمها الله بالإسلام ونبيه عليه الصلاة والسلام.

وكان لا بد من نذير.

اشارة البدء بالمقاومة الإسلامية لليهود:

حدث بعد المعركة العظيمة التي خاضها المسلمون في الشهر الثامن من السنة الثانية للهجرة في بدر حين فرض عليهم القتال، وهم كانوا قد خرجوا لمصادرة بعض أموال قريش كرد فعل لما قامت به قريش ضدهم طوال ثلاثة عشر عاماً في مكة أن اليهود لم يتقبلوا نتائج هذه المعركة ولم يرضوا أن يسكتوا على ما يمكن أن تؤتيه من ثمار ولجأوا في مقاومة نتائجها إلى أكثر من أسلوب بعضه خفي متآمر وبعضه صارخ قد أعلنوا عنه.

وكانت بداية تصعيد موقفهم العدواني وتطويره في مواجهة زيد بن حارثه وعبد الله بن رواحة اللذين ذهب كل واحد منهما يزف إلى أهل المدينة بتوجيه من الرسول ﷺ أخبار فضل الله على المسلمين في معركة بدر.

وكان اهتمام الرسول بأن يزف الخبر بالنصر إلى أهل المدينة شديداً إلى حد أن أعطي عبد الله بن رواحة ناقته الخاصة (القصواء) ودخل بها المدينة ليطمئن الجميع على نتائج المواجهة الحربية بين المسلمين أنصاراً ومهاجرين وبين مكة. . لكن اليهودي «كعب بن الأشرف» الذي يمتد نسبه إلى طيء وإلى بني النضير قاد موقفاً عدوانياً في مواجهة هذه الأنباء، ثم تزعم حملة التشكيك في نتائج حرب بدر وحين كان يقص الصحابيان الجليلان أخبار عون الله للمسلمين حتى تمكنوا من قتل كذا

وكذا من رؤوس الكفر، هب «كعب بن الأشرف» في جمع يقول: أحق هذا؟؟ . . أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمي هذان الرجلان، فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لبطن الأرض خير من ظهرها!

وحين قدم الرسول من بدر إلى المدينة ومعه أخبار النصر في بدر، فضلاً عن مجموعات الأسرى من قيادات قريش، شد كعب رحله وذهب إلى مكة، ونزل على «عبد المطلب بن أبي وداعة السهمي» يحرض قريشا من جديد على أن تثأر من محمد لقتلاها، ويعدهم بالعون والنصرة.

وحين عاد من رحلة التآمر اليهودي إلى المدينة، قاد حملة إعلامية صاخبة ضد المسلمين ونسائهم، حتى تضرر المسلمون، من التيار الذي يمثله «كعب بن الأشرف» ضرراً شديداً. وفي مواجهة هذا التحدي كان لا بد من عمل لاسكات هذا الصوت الشيطاني. . فقبيل منتصف السنة الثالثة من الهجرة وإِثْرَ المضايقات التي تعرض لها المسلمون من هذا المخرب قال رسول الله ﷺ: «اللهم اكفني شر ابن الأشرف بما شئت» ثم حدد موقفاً إيجابياً تجاه هذا العدوان المتمثل في ابن الأشرف حين قال: «من لي بابن الأشرف فقد أذاني» فقال «محمد بن سلمة» أخو بني عبد الأشهل: أنا لك به يا رسول الله، أنا أقتله، فأعطاه الرسول الموافقة على قتله، وقال له: إفعل إن قدرت على ذلك، لكن المهمة لم تكن يسيرة على محمد بن سلمة، وذلك أنه مكث ثلاث ليال لا يأكل ولا يشرب وتسرب الخبر إلى رسول الله فقال لابن «سلمة»: لم تركت الطعام والشراب؟ فقال: يا رسول الله قلت لك قولاً لا أدري هل أفي لك به أو لا؟ قال لهﷺ: إنما عليك الجهد. فقال للرسولﷺ: يا رسول الله لا بد لنا من قتل كعب بن الأشرف من الحيلة. فوافق الرسول على استعمال الحيلة في قتل كعب وقال للمجموعة التي قادها محمد بن سلمة: أنتم في حل من ذلك فاجتمع على قتله محمد بن سلمة، وأبو نائلة سلكان بن سلامة بن وقش، وعباد بن بشر بن وقش، والحارث بن أوس بن معاذ، وأبو عيسى بن جبر، وهذه القوة العسكرية أشبه

بمجموعة «كوماندوس» أوكلت إليها هذه المهمة الخاصة «قتل كعب بن الأشرف» نظراً لامكاناته وما يحيط به من استعداد، وأُوكلت إلى هذه السرية مهمة تهيئة الجو لعملية قتل كعب بن الأشرف، لكي تؤتي ثمارها في إلقاء الرعب والفزع في قلوب اليهود ولكي تكون بمثابة إشارة البدء للمقاومة الإسلامية لليهود، لعل اليهود يتداركون موقفهم العدواني قبل أن يتفجر الموقف تماماً. وبالفعل تقدم إليه أبو نائلة سلكان بن سلامة وتحدث معه بعض الوقت وأثار قضايا عديدة حتى اطمأن كعب بعض الشيء إلى حديث بن سلامة.

ثم استدرج أبو نائلة كعب بن الأشرف قائلاً له: ويحك يا ابن الأشرف! إني قد جئتك في حاجة أريد ذكرها لك فاكتم عني: قال: لك ما تريد. قال أبو نائلة: قد كان قدوم هذا الرجل، يقصد رسول الله ﷺ بلاء من البلاء، عادتنا العرب ورمتنا عن قوس واحدة، وقطعت عنا السبيل حتى ضاع العيال وجهدت الأنفس، وأصبحنا قد جهدنا وجهد عيالنا، فقال كعب: أنا ابن الأشرف، والله لقد كنت أخبرك يا ابن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما أقول. فقال له سلكان: إنا نريد التنحي منه، ومعي رجال قومي على مثل رأيي وقد أردت أن آتيك بهم فنبتاع منك طعاماً وتمراً، ونرهنك ما يكون لك فيه ثقة ووفاء.. وهنا ظهر الخُلُقُ اليهودي المعوج المنحرف المتاجر بأعراض النساء والمتعيش على الانحلال وذلك في رد كعب بن الأشرف على قول سلكان: نرهنك ما يكون لك فيه ثقة ووفاء قال: ترهنونني نساءكم!.. قال أبو نائلة: كيف نرهنك نساءنا وأنت أشب أهل يثربَ وأعطرهُم! فقال: أترهونني أبناءكم؟ قال أبو نائلة: لقد أردت أن تفضحنا وأن يعير أبناؤنا، فيقال عن الواحد منهم هذا رهينة طعام وتمر، ثم عرض أبو نائلة على كعب بن الأشرف أن يرهنوا سلاحهم، وهذا من جانب سلكان إمعان في تضليل كعب بن الأشرف، حتى إذا ما قدمت السرية الموكل إليها قتل كعب تحمل سلاحها لا يتخوف منها كعب، ولا يلجأ إلى الحماية، ولا يشهر السلاح حتى يكون لموته الوقع المقصود.

وهنا ذهب سلكان بن سلامة إلى رسول الله ﷺ وأخبر أصحابه بما توصل إليه، وفي اليوم المتفق عليه لقتل كعب والذي يزجح كتّاب السيرة أنه لأربع عشر خلت من ربيع الأول، على رأس خمسة وعشرين شهراً من الهجرة، مشى معهم رسول الله ﷺ بنفسه يودعهم ويبارك مهمتهم، قائلاً: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم. وحين رجع ﷺ إلى بيته كانوا هم قد قطعوا الطريق إلى بيت كعب وحين انتهوا إلى حصنه نادى أبو نائلة على كعب بأعلى صوته، وكان ابن الأشرف في أيام عرس جديد، وحين نزل من حصنه بعد أن حاولت امرأته أن تثنيه عن النزول في هذا الوقت المتأخر من الليل، كان سلكان ماهراً في أداء مهمته للغاية، فبعد أن اطمأن إلى المجموعة التي بصحبة أبي نائلة قال له سلكان: هل لك يا ابن الأشرف أن تتماشى إلى شعب فنتحدث فيه بقية ليلتنا؟ فقال: إن شئتم، وحتى لا يقع أدنى شك في قلب ابن الأشرف كان سلكان بن سلامة كل فترة من الوقت يضع يده على رأس ابن الأشرف ووجهه ليشم عطره ويقول له: ما رأيت الليلة طيباً أعطر من هذا! وحدثهم أنَّ هذا عِطْرُ العروس الجديدة. وفي شَعْب بظاهر المدينة حين اطمأنّ الرجال الى إمكانية نجاح مهمتهم صاح فيهم سلكان بن سلامة قائلاً: اضربوا عدو الله! اضربوا عدو الله! فضربوه، وكاد كعب بن الأشرف أن يفلت من السيوف.. يقول محمد بن سلمة: فذكرت مغولا أي خنجراً في ثوبي حين رأيت أسيافنا لم تُغْنِ.. فطعنته ما بين سرته وعانته بعد أن تحاملْتُ عليه في شدة حتى صاح عدو الله صيحة لم يبق لها حصن إلا أوقدت عليه نار. وأنجزت السرية المجاهدة عملها وأعطت إشارة البدء في إمكانية قطع أَلْسِنَةِ القُوَى اليهودية واحداً بعد الآخر إذا ما ظلوا على موقفهم المعادي للإسلام ونبيه عليه السلام.

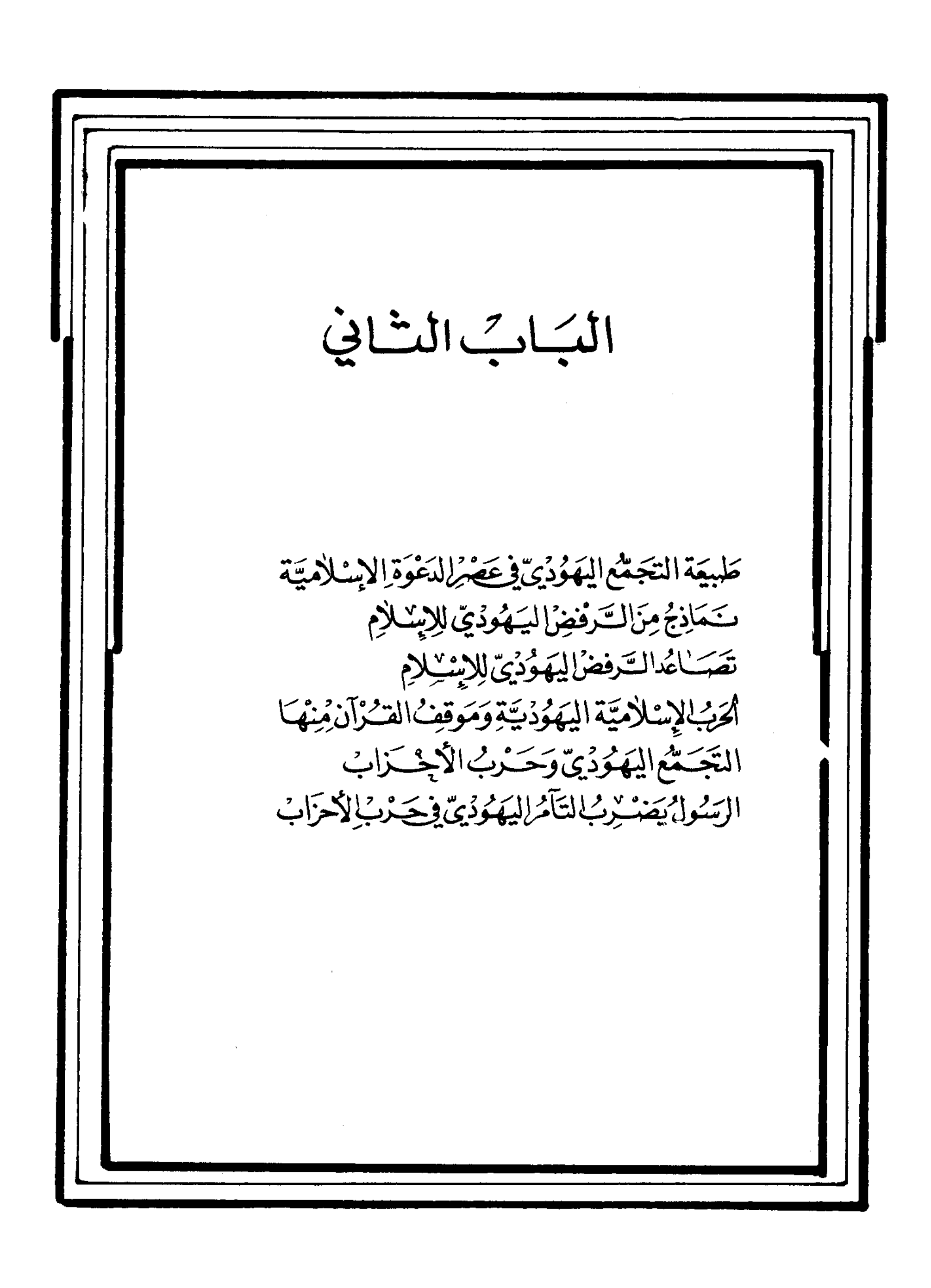
ومن عجب أن أعداء الإسلام بالأمس البعيد والقريب والواقع المعاصر يرون في أمر رسول الله ﷺ بقتل كعب بن الأشرف عدواناً عليهم، ولا يرون في مطاردة اليهود للمسلمين ونسائهم وتحريضهم القبائل والبطون على حرب رسول الله ونقضهم عهدهم معه، لا يرون في ذلك عدواناً على الإسلام والمسلمين.

وفي مقتل كعب بن الأشرف يقول عباد بن بشر:

صرخْـتُ فلـم يعـرض لصوتي وأوفى طالعـاً من رأس جُذْرِ
فعـدتُ له فقـال: مَنِ المُنَادي؟ فقلْـتُ: أخـوك عبـادُ بنُ بِشرْ!
وهـذي درعُنـا رَهْنـاً فخذْها لشهـرٍ. . إنْ وَفَى أوِ نصفِ شَهْرِ
فقـال: معـاشرٌ سغِبُـوا وجاعوا ومـا عدِمـوا الغِنَـى من غـير فَقْرِ
فأقبـلَ نحونـا يهْـوِي سريعاً وقـال: أمـا. . لقـدْ جئتُـم لأمْرِ!
وفي إيماننـا بيضٌ حِدَادٌ. . مجَّربَـةٌ بهـا الكُفَّـار تفري
فعانَقَـهُ ابـنُ مسلمـة المردَّى به الكفـار كالليث الهِزَبْرِ.
وشـد بسيفِـهِ صَلْتـاً عليه فقطـره أبـو عبسٍ بنِ جَبْرِ
فكان الله سادسَنـا فأُبْنَا بـأنعـم الله. . وأعـز نصر
وجـاء برأسِـهِ نفـرٌ كرام وهـم ناهيك من صِدْقٍ. . وبرٍّ

* * *

وبهده المهمة الفدائية التي كان الله فيها عوناً وسنداً كما يقول عباد بن بشر، فإن رسول الله -ﷺ- قد آذن اليهود بأنه من الممكن وضع حد لمقاومتهم للإسلام وأهله ومع ذلك واصلوا معه رحلة العدوان.



الباب الثاني

طبيعة التجمع اليهودي في عصر الدعوة الإسلامية
نماذج من الرفض اليهودي للإسلام
تصاعد الرفض اليهودي للإسلام
الحرب الإسلامية اليهودية وموقف القرآن منها
التجمع اليهودي وحرب الأحزاب
الرسول يضرب التآمر اليهودي في حرب الأحزاب

طبيعة التجمّع اليهودي في عصر الدعوة الإسلاميّة

من الأشياء التي تثير الدهشة أنه في بدء دعوة الإسلام كانت ارض العرب في منطقة الحجاز مقسمة قسمة عجيبة، بين نفوذ العرب ونفوذ اليهود وسيطرتهم، ففي بدء بعثة النبي محمد عليه السلام كانت قوة اليهود الاقتصادية والسياسية كبيرة ومزعجة في شمال الحجاز، ولقد بلغت القوة اليهودية في السيطرة على شمال الحجاز ما تعادل به نفوذ قريش وقوتها في جنوبِهِ. ويمكن القول إنّ سيطرةَ قريشٍ كانت تشمل جنوبي الحجاز من منطقة يثرب (المدينة) حتى الطائف: وكذلك كان نفوذ اليهود يمتد في شمال الحجاز إلى حدٍّ يمكن معه القول: إن هذا النفوذ كان يمتد من المدينة حتى تيماء، في أقصى حدود الحجاز الشمالية، ملتقياً بحدود سوريا لمسافة تقدر الآن بحوالي ٤٥٠ كيلومتراً. وأمام هذا النفوذ الممتد على طول هذه المنطقة من شمالي الحجاز.

لو لم يكن للعرب القرشيين في جنوبي الحجاز من المقام الأدبي والارتباط بالأرض والخلق العف الكريم لكان من الممكن القول: إنّ نفوذ اليهود الاقتصادي إبّان عصر البعثة المحمدية، يشكل أسس حركة السيطرة اليهودية التي كان يمكنُ أن تمتد وتتسع، فقد كانت أوضاع توزيع الوجود اليهودي في شمال الحجاز في منتهى الدقة والحرص على نيّات مبينة في التوسع والسيطرة، وذلك أن يهود «بني قينقاع» التي ورد ذكرها في رواية ابن خلدون كانت تقيم في منطقة يثرب (المدينة) وكان معها قبائل بني عوف وبني النجار وتقيم حولها قبائل الأوس والخزرج، وتنزل في المناطق

الزراعية التي كانت تهتم بها.

أمّا بنو قريظة فكانوا ينزلون في ضاحية يثرب (المدينة) من جهة الجنوب الشرقي.

وبنو النضير كانوا ينزلون في ضاحية يثرب (المدينة) من جهة الغرب.

أما منطقة «خيبر» ففيها أعظم مركز لتجمع اليهود في شمالي الحجاز وتقع ما بين المدينة ومنطقة تيماء الملاصقة لأقصى حدود الشمال عند سورية[1].

وكان هذا التوزيع لمراكز القوة اليهودية يكفل لليهود بأن يمكنهم وقتها من القدرة على الانتشار، وأن يمدوا أيديهم على مساحة كبيرة من الأرض يعملون على استغلالها واستثمارها. ولذا كان عليهم أن يقوموا بتحصين أماكن تجمعهم، وإمدادها بالقوة العسكرية وتخزين كميات من السلاح، وإعداد مجموعات منهم للقتال بغية الحفاظ على ما اكتسبوه حتى يمكن لهم دوام السيطرة والبقاء. ولكن! ما إن أحس اليهود أنّ القرشيين أخذوا يباشرون أسلوب عملٍ في النظام الجديد المرتبط بعقيدة الإسلام وآدابه وتعاليمه، حتى أدركوا تماماً أن هذه البداية الدينية، بما تقرره وتصنعه من إعدادِ قوة بشرية ودينية، تصطدم مع واقع الوجود اليهودي في الأرض العربية وآماله ومصالحه وما لبثوا أن أعلنوها حرباً قاسية ومريرة ضد محمد والإسلام والعرب. ولم تفتر حدة الردّ إلا بعد أن تمكن العرب المسلمون من تصفية مراكز القوى وبعثرة مواقع التجمع اليهودي في أرض العرب وأبقوا عليهم أفراداً وجماعات دون أن يتركوهم يشكلون خطراً للجماعات الطامعة المتوسعة.

وحين اضطر المسلمون الذين آمنوا بمحمدﷺ أن يستجيبوا لما وجههم إليه رسول اللهﷺ، ولما فعله بنفسه حين تم له تغيير موطن الإقامة في مكة، حيث إنه في المدينة لم يكن في تقدير الرسول ولا أحد من الصحابة أن يواجهوا قوة اليهود مبكراً

---

(١) انظر: «تاريخ الإسلام السياسي» ـ الأستاذ أمين سعيد، صادر عن عيسى الحلبي وشركاه ـ القاهرة.

ولا أن يتعرضوا لهم، وكان الرسول عليه السلام يدرك أن وراء ظهره في الجنوب طغيان مكة وجبروت أهلها ورفضهم تقبل دعوته ومطاردتهم إياه، فليس من الحكمة أن ينهج نهجاً يثير به ثائرة هذه القوة اليهودية التي تسيطر على كثير من أمور هذا الموطن الجديد وحياته، وهذا ما اضطر المسلمون إلى الهجرة إليه، وكان في تقدير الرسول ﷺ العملُ والإعداد على أن لا يصبح بين قوتين في الميدان الذي ابتدأ يوجه فيه الدعوة إلى الله، بين قوة المكيين في الجنوب واليهود في الشمال، ولذا كانت توجيهاته عليه السلام أن لا يتعرض أحد من المسلمين لليهود، بسلوك يجرح مشاعرهم أو يضايق سلوكهم، بل إنه قد أخذ بنفسه زمام المبادرة وأفصح عن رغبته في حسن الجوار والمشاركة في الأمور التي تسكن الفتنة[1]. وذلك حين عرض على اليهود أن يكون بينهم وبين المسلمين عقد اتفاق كان من بين بنوده أن «اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين: لليهود دينهم وللمسلمين دينهم». وكان كذلك من بين بنود الاتفاقية[2]: «أن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة «الاتفاقية» وأن بينهم النصح والنصيحة والبردون الإثم، وأنه لم يأثم امرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة».

كان الأمل كبيراً في قلوب المسلمين أن تسير العلاقة بين اليهود والمسلمين سيرة حسنة، وأن يتعاون الطرفان، إلا أنه كانت العداوة وكانت المضايقة والتربص من جانب اليهود، ثم كانت الحرب من جانب اليهود ضد المسلمين، وإعلان هذه الحرب ومداومة القيام عليها حتى مرحلة التآمر على النبي، ومحاولات التخلص منه

---

(١) انظر (الرسول القائد) تأليف اللواء الركن (محمود شيت خطاب) الطبعة الثالثة ـ عن دار القلم، القاهرة عام ١٩٦٤.

(٢) «تاريخ الإسلام السياسي» للاستاذ أمين سعيد، الجزء الأول صفحات ٢٦ ـ ٢٨.

نهائياً باعتباره رمزاً لسيادة المسلمين في المدينة الموطن الجديد لهم، الموطن الذي ضايق اليهود بوجود المسلمين فيه ومواصلتهم نشر الدعوة الإسلامية منه.

وبدأت العداوة تصبح طابع العلاقة بين اليهود والعرب المسلمين، وأخذت هذه الحرب الصامتة تقوى وتشتد من جانب اليهود ضد المسلمين على مراحل، وفي كل مرحلة كان موقف اليهود فيها يكشف عن طبيعة وجودهم وعقائدهم في أي موقع يسيطرون فيه، ويبرز نوع تعاملهم مع أي أمة يعيشون معها أو بينها، فقد كانت بداية الإفصاح عن النيات السيئة المبيتة في قلوب اليهود نحو المسلمين تأخذ المراحل الآتية:

مرحلة الحذر والاستياء من المسلمين:

وتمثلت هذه المواقف من الحذر والاستياء في عدم الترحيب واستقبال المسلمين المهاجرين إلى أرض يثرب، وخاصة بعد أن علم اليهود أن من بين المسلمين المكيين القادمين من الجنوب مجموعةً من الرجال التجار، أصحاب همة اقتصادية ناشطة، ما إن استقروا في المدينة حتى قرروا إنشاء سوق اقتصادية خاصة بالمسلمين، وكان على رأس هؤلاء التجار - (عبد الرحمن بن عوف وأبو بكر الصديق) من الرجال الذين قادوا بالفعل جهوداً اقتصادية، في أن يكون للمسلمين اقتصادهم وميادين تجارة خاصة بهم ترتبط بما يمكن أن تقرره تعاليم دينهم.

والمرحلة الثانية التهيؤ لرفض المسلمين ومضايقتهم. وتمثلت هذه المرحلة بالتهيؤ والاستعداد لرفض المسلمين حين أدرك اليهود أن المسلمين ليسوا مجرد مجموعات مهاجرة ولا فئة فارّة تريد أن تعيش في أمن أصحاب المهجر الجديد وحمايتهم. وإنما هم قوة تريد أن تنمي نفسها وأن تصنع لنفسها الأرض التي تمكنها من النمو والقدرة على الحركة والحياة. كان ذلك حين أدرك اليهود عن قرب من المسلمين ما فعله رسول الله - ﷺ -، عقب إقامته بالمدينة وهو لما يزل - بَعْدُ - قريبَ

عهدٍ جداً بمقامه فيها كي يستقر ويبتعد عن الأذى والمضايقة، حين أخرج في الشهر السابع من مقامه بالمدينة سرية على رأسها عمه حمزة بن المطلب في ثلاثين مهاجراً كي يتعرفوا أحوال الطريق ما بين مكة والمدينة، ويوافوه بما يكون قد جد من حوادث أو ما أعد من مفاجآت.

ثم ما واصله الرسول بعد ذلك أيضاً من إرساله السرية الثانية، وكانت بمثابة الدورية المسلحة التي تستطلع أخبار الميدان على الحدود، حتى لا يؤخذ المسلمون على غرة.

وكانت هذه السرية (ويا للعظمة في الإعداد للأعمال الكبرى والترتيب لها!) في الشهر الثامن من مقام النبي بالمدينة، أي في الشهر الثاني من الدورية الأولى[1].

وهكذا في العام الأول من مقام النبي في المدينة فإنه قد واصل الإعداد لحماية المسلمين حتى لا يفاجؤوا بليل، وفي الشهر الثالث من إرسال السرية الأولى أرسل الثالثة بقيادة سعد بن أبي وقاص.

وما إن عادت هذه الدورية حتى قرر النبي عليه السلام، أن يخرج بنفسه على رأس قوة من المسلمين إلى شمال المدينة، وعسكر في منطقة شمال المدينة وتبعد عنها بحوالي ٢٨ كيلو متراً عند قرية اسمها (وادن) وكانت هذه أول مرة يخرج فيها النبي على رأس قوة شبه عسكرية.

ومن الدقة المعجزة في الإعداد أن الرسول عليه السلام حين أرسل السرايا الثلاث أي الدوريات المسلحة «المستطلعة» كان يوجهها إلى منطقة الساحل، أما هذه المرة والنبي على رأس القوة فإنه قصد جهة الشمال لا الغرب.

ولعله من المعقول أن الرسول عليه السلام في بعض ما كان يهدف إليه أن

---

(١) تاريخ الإسلام السياسي (للأستاذ أمين سعيد) الجزء الأول.

يصيب وضعاً سياسياً وعسكرياً واقتصادياً حتى يدرك أهل الموطن الجديد أن الرسول وصحبه ليسوا مجرد لاجئين، وأن على القوة التي قاومتهم أن تدرك أن وجودهم ينمو ويتصاعد، فلعلهم يكفوا عن المطاردة والتضييق.

وفي هذه المرحلة التي كان فيها اليهود يعدون أنفسهم لرفض الوجود الإسلامي كان الوجود الإسلامي ينمو ويتزايد. ولما أفصح عن شخصيته السلوكية بدأت الحرب بين اليهود والمسلمين، كان ذلك عقب النتائج التي ترتبت على أولى معارك الإسلام ضد الذين حاربوا الدعوة وقاوموها، وحاصروا وصادروا مقدرات أهلها عقب معركة «بدر» التي كان من نتائجها صدى بعيد الأثر في تكوين صورة سياسية عن ملامح الجماعة الجديدة المسلمة التي استطاعت أن تنظم وأن تقوم بعمليات مضادة من مصادرة وحصار ومضايقة. رداً على ما واجههم به أهل مكة بل إن المسلمين قد تأكدت قوتهم في المدينة بعدما أضيف إليها ما ترتب على عملية المواجهة مع قوى قريش وظفرهم فيها بالنصر، بما غنموه مما تقاضوه من فداء الأسرى وما حصلوا عليه، وما أخذوا من سلاح العدو الذي انتصروا عليه في المعركة وقد تبدل حال المسلمين تماماً عقب هذه المعركة فبعد عودتهم أصبح كيانهم الاقتصادي والسياسي أقوى مما كان عليه قبل المعركة بكثير وأصبح رسولُ الله زعيمُ المسلمين سيدَ «المدينة» بلا منازع يده عليها وصاحب الرأي فيها[1].

ولما كانت ظروف المعركة غير طبيعية وعنصر المكافأة بين الطرفين فيها منعدما فالقوة العددية ونوع العتاد كان في صالح قريش بنسبة كبيرة، ومع ذلك كان النصر بجانب المسلمين وحليفهم، فعقب عودة الرسول إلى المدينة تردد الحديث وكان الناس في أمر وحوار حول نصر المسلمين وعون الله لهم، فاغتنمها الرسول عليه السلام فرصة، قبل أن يكون رد الفعل عند اليهود قد تكون بعد ما طرأ على المسلمين

---

(١) انظر (غزوة بدر الكبرى من الناحيتين السياسية والعسكرية: تأليف الأستاذ جمال حماد ـ صادر عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة.

من قوة وتأكيد سيادته على الأرض التي هاجر إليها وعرض نفسه عليهم ووجه إليهم دعوة الله مجتمعاً بهم في سوقهم في المدينة وقال لهم: «يا معشر اليهود احذروا من الله عز وجل، مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل تجدون ذلك في كتابكم، وفي عهد الله اليكم».

فأجابوا وأفصحوا عن نياتهم وموقفهم من المسلمين ومن نبيهم: «يا محمد إنك ترى أننا كقومك. لا يغرّنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، أنا والله لئن حاربتنا لتعلمنّ «أننا نحن الناس».

واضح تماماً من هذا الموقف أن العلاقة بين الطرفين تتحول إلى حال من السوء والصراع والتناقض بعد الحوار المهذب من جانب الرسول والصلف المتعجرف من جانب اليهود، فالنبي عليه السلام مؤملاً في هداية القوم دعاهم إلى الله ووجه إليهم الدعوة مخوفاً إياهم من نقمة الله فلم يستجيبوا، ولم يلقوا بالاً إليه إلا أنه من المعقول أن يقال: إن الرسول عليه السلام هددهم دون أن يفصح عن هذا المعنى صراحة بأنه سيتبع معهم أسلوب مواجهته لقريش، ما داموا على موقفهم من رفض دعوته وعدم الاستجابة لها.

وكان اليهود يعبرون في ردهم عما تنطوي عليه نفوسهم وقلوبهم من غل وحقد وحسد للمسلمين، ويفصحون عن إحساسهم بالخطر مما يمكن أن يطرأ على حال المسلمين من اطراد القوة والمنعة والسيادة، بعد أن نجحوا في أولى المعارك ولذا كان موقفهم من المسلمين كلهم يقوم على العداء والحذر والتربص.

* * *

نماذج من الرفض اليهودي للإسلام

قلنا: إنه بعد أن انتقلت الزعامة السياسية في المدينة للمسلمين في شخص نبيهم ﷺ أصبحوا يمثلون خطر النظام الجديد على تناقضات الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية السائدة تلك، والتي كانت تعبر عن السيادة المستغلة لجماعات اليهود في

منطقة شمال الحجاز كلها تقريباً، ولهذا فإن الجماعات اليهودية بدأت تتعرض للمسلمين، وتستعد لهم قبل أن تستقر أوضاعهم وتتماسك دعائمهم ويتفرغون لمقاومة اليهود، ولقد مرت العلاقة العربية المسلمة بالجماعات اليهودية بالمراحل التي أشرنا إليها إلى أن تفاقمت وأصبح الصراع أشبه ما يكون بالعمل المكشوف والتعرض الصريح. وكانت هذه المرحلة عقب الموقف واللقاء المتوتر الذي تم بين النبيﷺ وبين اليهود في سوق (بني قينقاع) حين دعا اليهود إلى الإسلام والدخول في دين الله، فأبو وأغلظوا الرد لقولهﷺ مخاطباً إياهم: «يا معشر يهود، إحذروا من الله عز وجل مثل ما نزل بقريش من النقمة، وأسلموا فإنكم قد عرفتم أني نبي مرسل، تجدون ذلك في كتابكم وعهد الله إليكم»[1].

كانت إجابة هذه الدعوة الرقيقة الطيبة المسالمة موقفاً يفصح عن صلفٍ وغباءٍ وتحدٍّ واستعداد للمجابهة والمواجهة والعراك.

قالوا: «يا محمد إنك ترى أنَّا قومُك، لا يغرنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب فأصبت منهم فرصة، إنا والله لئن حاربناك لتعلمن أنا نحن الناس»[2].

وكان مما ساعد بعد ذلك على تصاعد المرحلة التالية للعداء المبيّت من جانب الجماعات اليهودية الحادث الذي وقع لفتاة مسلمة، هذا الحادث الذي صور نموذجاً للخلق اليهودي وانعدام جوانب المروءة أو النخوة أو العفة في الجماعات اليهودية في جميع أساليب تعاملها، منذ الزمن البعيد الذي كان عليه الأباء الأُول. وخلاصة هذا الحادث أن فتاة عربية مسلمة ذهبت إلى سوق «بني قينقاع» بحلى خاصة بهاكي تبيعها عند صائغ يهودي.

ولما كانت الفتاة كشأن كل فتاة مسلمة متحفظة متأبية تخفي مظاهر الجمال

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام أمر قينقاع ص ٨٠٨.

(٢) نفس المصدر.

ومواضع الإثارة من جسمها، فتعرض لها مجموعة من اليهود الذين كانوا عند الصائغ وأصروا على أن تكشف لهم عن وجهها، وضيّقوا عليها الطريق يعاونهم في ذلك الصائغ اليهودي اللئيم، الذي أدرك إصرار الفتاة وعدم تنازلها عن أن تكشف لليهود وجهها، فاختلس لحظة وعقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما قامت أنكشفت عورتها فضحك الجميع وسخروا من الفتاة المسلمة، وضاق شاب مسلم بالموقف وتألم له فدخل في عراك مع الصائغ اليهودي، تمكن فيه الشاب من قتل اليهودي ثأراً لكرامة أخته المسلمة، وعلى الأثر انتصر اليهود لصاحبهم فقاموا على المسلم وقتلوه، فغضب المسلمون وحملوا على يهود «بني قينقاع» حملة ثأر وضيق، فثارت ثائرة الجميع واحتمى اليهود في حصونهم في منطقة «بني قينقاع»، فواصل المسلمون الحصار حتى قطعوا عنهم كل صلة بالخارج[1].

وبهذا الموقف الذي عمل على تفاقم العلاقة بين المسلمين واليهود، وتصعيد حالات العداء التي كان يعمل المسلمون على تجنبها، فقد كان اليهود يدركون أن الوقت ليس في صالحهم فإذا لم يكسروا شوكة المسلمين من الآن، وخاصة بعد بدر، فإن خطر المسلمين سيتضاعف، ومع أن المسلمين كانوا يعيشون انتصار بدر وصداه العظيم في كل أرض الحجاز، فإنهم كانوا يدركون أن خطر قريش لا يزال قائماً. وأنه ربما تكون الجولة القادمة من جانب قريش طلباً للثأر من المسلمين، ثم إن بداية المضايقات وتصاعدها وبلوغها حالات الصدام في الموطن الجديد كانت تتمثل في قطاع هائل من اليهود وهم «بنو قينقاع» الذين توجه إليهم رسول الله بنفسه في سوقهم، فرفضوا دعوته ثم هددوه إن قامت الحرب بينه وبينهم، ثم ساروا على طريق الهزء بالمسلمين والاستخفاف بهم وبحرماتهم، ولعل موقف الصائغ اليهودي والجماعات التي كانت بمتجره كانت تعبر عن تيار عام وسلوك متعمد، خططله اليهود من «بني قينقاع» لإحراج المسلمين والهزء بهم، فلم يبال المسلمون أمام كل الظروف

---

(١) انظر «تاريخ الإسلام السياسي» تأليف الاستاذ أمين السعيد» السابق الاشارة إليه.

المحيطة بهم، وقاموا بمحاصرة يهود «بني قينقاع» في بطولة فدائية عظيمة، فقد كان عدد اليهود من «بني قينقاع» أكثر مما لدى المسلمين بكثير، فهم عند بعض المؤرخين: ٧٠٠ مقاتل ٣٠٠ دارع ٤٠٠ حاسر.

وكان هذا العدد يتحرك على أرض تمكنه من القتال ومن المناورة ذلك أنهم كانوا قد اتخذوا لهم حصوناً ومخابىء بالإضافة إلى كميات من التموين واحتياجات القتال ومع ذلك فإن أولئك الذين هددوا وتوعدوا الرسول عليه السلام في سوقهم «.. لئن حاربتنا لتعلمن أنا نحن الناس»، قد ظلوا في حصونهم ومخابئهم حتى قطع المسلمون عنهم كل صلة لهم بالخارج، واضطر اليهود أن يستسلموا دون قيد أو شرط، وعندما أعلن اليهود استسلامهم فوضوا أمرهم للنبي عليه السلام أن يفعل بهم ما يشاء. وقبل أن يتخذ الرسول عليه السلام قراره في القوم تقدم إليه «عبد الله بن أُبَيّ» وقال يا محمد: أحسن في موالي، وكان يهود «قينقاع» موالي وأنصار عبد الله بن أُبَيّ فلم يرد عليه الرسول وأعرض عنه وقال له: دعني. فاستجار عبد الله بن أبي بالرسول وقال: والله لا أدعك حتى تحسن في موالي: ٤٠٠ حاسر، ٣٠٠ دارع منعوني من الأسود والأحمر، تحصدهم في غداة واحدة، والله لا آمن وأخشى الدوائر. فأثر هذا الكلام في نفس الرسول وقال له: هم لك واكتفى باجلائهم وأوكل على الإشراف في عملية اجلائهم «عبادة بن الصامت» الذي أشرف على خروج بني قينقاع من المدينة إلى شمالها، حتى وصلوا إلى منطقة «الشرارات» التي تدخل في أراضي شرقي الأردن الجنوبية، ولم يقتل المسلمون من يهود «بني قينقاع» أحداً، ولم يمثلوا بصغير أو كبير بل عملوا بوعد الرسول لعبد الله بن أبي، حين سمح له بأن يخرجوا دون أن يثأر منهم المسلمون ويشفوا غليلهم[1].

وبهذه المقدمة المبكرة من الصدام بين المسلمين واليهود، أدرك اليهود الذين

---

(١) «السيرة النبوية لابن هشام» تحقيق مصطفى السقا - ابراهيم الابياري - عبد الحفيظ شلبي - الطبعة الثانية ١٩٥٥م، ملتزم الطبع والنشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - القاهرة.

ينتشرون في شمال الحجاز أنه لا بد لهم من العمل ضد الإسلام والمسلمين، وهذا هو ما ساروا عليه وخططوا له على المدى البعيد.

تفاقم العلاقة بين اليهود والمسلمين:

لم يكن تحلّل اليهود من الارتباط بالعهود والمواثيق أمراً غريباً أو مفاجئاً للمسلمين. ولم يكن غريباً أن يلجأ اليهود في ظل التحلل من العهود إلى أساليب إشاعة الفتنة وعمل العراقيل ضد المسلمين، وخاصة منذ المرحلة التي تلت السنة الثانية من هجرة المسلمين إلى المدينة وحتى إجلائهم لـ «بني قينقاع» عنها. ولذا فان المسلمين أخذوا حذرهم واستعدوا لليهود، فقد كانوا أمام المسلمين لا يقلون خطراً عن قريش.

وبعد ازدياد الوجود الإسلامي وتعاظم قوته منذ الهجرة إثر بطولة العمل العظيم في معركة بدر، ثم الإقدام على إجلاء «بني قينقاع»، فإن تحالفاً كبيراً من الأحابيش في جيش مكة، ومن المتطوعين من أبنائها، وقبائل من بني كنانة أحلاف قريش، وقبائل تهامة المرتبطة بتحالف هي الأخرى مع قريش، قد قاموا للثأر من محمد وصحبه في معركة أحد. وكانت فرصة عظيمة اغتنمها اليهود عندما تمكنوا من التخلي عن اتفاقهم مع المسلمين. فقد انتهزوا فرصة استجابة الرسول ﷺ لرأي صحابته بالخروج من المدينة لقتال قريش خارجها، بينما كان الاتفاق أن يكون اليهود عوناً للمسلمين داخل المدينة، كما تعذّر اليهود بأن المعركة يوم السبت وقالوا: نحن لا نقاتل يوم السبت والمعركة خارج المدينة والاتفاق على القتال داخلها. ووقف (عبد الله بن أُبَيّ) يقول لليهود: «ارجعوا أيها الناس ما ندري علامَ نقتل أنفسنا هنا فقد أطاعهم وعصاني». ويقصد ابنُ أُبَيّ بهذه الكلمة الرسول عليه السلام حين استجاب للرأي الذي قرر الخروج من المدينة ومواجهة جيش مكة خارج المدينة، بينما هو ﷺ قد رأى في أول الأمر أن يقاتل جيش مكة من داخل المدينة.

وبعد انكسار المسلمين في معركة أحد فإنه لم يكن أمامَ اليهود ميدان عمل يلعبون فيه ويشفون مرّ كيدهم وغيظهم من المسلمين سوى استغلال هزيمة المسلمين، ولذا فإنهم بدأوا يستغلون فرصة آلام المسلمين من عدم توفيقهم في معركة أحد ودخلوا بالمؤامرة مرحلةَ الوشاية والخديعة ضد المسلمين، وقد تمثل ذلك في استغلالهم ظروفاً سيئة مرت بالمسلمين وأرادوا فيها قتل النبي والتخلص منه أولاً؛ باعتباره الرمز الحقيقي للخطر الذي ينمو ويتصاعد، وباعتباره القوة التي تستطيع جمع المسلمين وتعبئة مشاعرهم والارتفاع بهم إلى مستوى أكبر من الظروف السيئة التي حاقت بهم بعد عدم الانتصار في أُحد.

وكانت الصورة في الموقف الذي طرأ على المسلمين أنه وراء الفشل في أحد جملة أسباب ولا بد من التخلص منها بعد أن تتابعت مصائب كثيرة كان منها:

- مقتل عاصم بن ثابت ومن معه من المسلمين.
- مقتل المنذر بن عمرو ومن معه من المسلمين.

والذي حدث في هذين الموقفين اللذين هزا كيان المجتمع الإسلامي الصغير أنّ بعض (بني لحيان من بني هذيل) - وكانت تقيم في منطقة من الحجاز بين مكة والطائف، وكان موقعها إلى مكة أقرب - جاؤوا (عضلا والقارة) وهما قبيلتان من بني الهون بن خزيمة بن مدركة، فجعلوا لهم إبلاً على أن يطلبوا رسول الله عليه السلام فيُخْرِجَ إليهم نفراً من أصحابه، فجاء سبعة من هؤلاء، إلى المدينة فأظهروا الإسلام واقترحوا على النبي ﷺ أن يرسل معهم نفراً من أصحابة يفقهم في الدين ويقرئهم القرآن ويعلمهم شرائع الإسلام، فبعث معهم ستة من الصحابة هم: عاصم بن ثابت الأنصاري، ومرثد بن أبي مرثد الغَنَوي، وحبيب بن عدي الأوسي البدري، وزيد بن الدغنة وعبد الله بن طارق وخالد بن البكير، فغادروا المدينة في شهر صفر من السنة الرابعة قاصدين إلى هذيل لتعليمهم.

وأخذ القوم السرية فجأة حينما بلغت «ماء الرجيع» قرب ديار هذيل، وأحاطوا

برجالها فهرعوا إلى سلاحهم للدفاع عن أنفسهم، فقالوا لهم: لا نريد قتالكم. فلم يطمئنوا إليهم وقالوا: والله لا نقبل من مشرك عهداً وقاتل خالد وعاصم ومرثد حتى قتلوا. واستسلم الثلاثة الآخرون فقيدوهم وقصدوا بهم مكة. وقبل أن يبلغوها تخلص عبد الله بن طارق منهم وانتضى سيفه لقتالهم فرموه بالحجارة فقتلوه، فلم يبق معهما سوى حبيب وزيد فباعوهما لأهل مكة فقتلوهما، وحزن المسلمون كثيراً على المصير السيء الذي حل بأخوانهم. ويشاء الله أن يواصل المسلمون جهادهم ويتعرضون لكثير من المصائب كالتي حدثت لهم، بعد مقتل عاصم بن ثابت ومن معه من المسلمين.. فلم يكادوا يفرغوا من آلام هذا الحادث وهم لما يزالوا في جراحهم منذ أحد وإذا بحادث يُعْرَفُ في التاريخ الإسلامي بحادث «بعث بئر معونة» وخلاصته: أنه قد وفد على المدينة من السنة الرابعة للهجرة في شهر صفر أبو براء عامر بن مالك بن جعفر العامري، ويعرف بملاعب الأسنة فعرض النبي عليه الإسلام، فوقف موقفاً لم يفصح فيه عما في دخيلة نفسه إذ لم يقبل ولم يرفض وقال: يا محمد إني أرى أن أمرك هذا حسن وشرف وقومي خلفي فلو أنك بعثت معي نفراً من أصحابك لرجوت أن يتبعوا أمرك.

ويرد عليه الرسول عليه السلام:

أخشى عليهم أهل نجد.

ويقول الرجل:

أنا جار.

وأملا في أن يصنع رسول الله ﷺ أرضاً جديدة للدعوة وللرجال، وثق بهذا الرجل الذي كان يعرف بملاعب الأسنة فانتدب سبعين من قراء القرآن، وكانوا يحفظونه ويرتلونه في المسجد وكان شيخ القراء المنذر بن عمرو معهم فسار مع جموع القراء إلى أرض نجد للتبشير بالدين والدعوة إليه.

وسار البعث الإسلامي إلى شرق المدينة حيث «نجد» ولما وصل القوم إلى

منطقة «بئر معونة» في الأرض التي تقع بين أرض بني عامر وحرة بني سليم أرسل المنذر بن عمرو رئيس البعث كتاباً إلى عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر الكلابي العامري، وهو ابن لأخ للبراء عامر بن مالك، وحمل كتاب المنذر بن عمرو «حرام ابن ملجان» وكانت المفاجأة أن يقوم عامر بن مالك بقتل الرسول الذي يحمل الكتاب دون أن ينظر ما جاء فيه، وأراد على الفور أن يعبىء قومه من بني عامر لكي يقوموا معه بقتل البعث المتجه إليهم من قبل المسلمين، وكان موقفهم منه الرفض بعد أن قالوا له: لن نخفر لأبي براء عهداً. إلا أن الرجل لجأ إلى بعض القبائل المجاورة من سليم وذكوان ورعل، بعد رفض قومه له واستطاع أن يستنفر هذه القبائل لقتال المسلمين فاستجابت، وبعد غيبة رسول المنذر بن عمرو رئيس البعث فأخذ البعث واتجه إلى بني عامر وفي الطريق لقيهم عامر بن الطفيل بمن معه من القبائل، وفوجىء المسلمون بالمؤامرة وبالحرب وبالانقضاض عليهم، وبأنهم في معركة دامية تقتضي الموقف الفدائي البطل وقد كان. وكانت معركة رهيبة لم تسعف الشجاعة التي قاوم بها المسلمون القبائل الموقف غير المتكافىء بين الطرفين، فقد تكاثرت القبائل المتآمرة بقيادة عامر بن الطفيل فقتلوا المسلمين جميعاً، ولم ينج من المسلمين سوى واحد هو عمرو بن أمية الضمري، فقد اطلق سراحه «عامر بن الطفيل» نفسه فداءً عن والدته بعد ما جز ناصيته.

كان لهذه المصائب الثلاث أثر كبير في نفوس المسلمين، بدءاً من معركة أحد ونتائجها ومروراً بمقتل عاصم بن ثابت ومن معه، وانتهاءً بمقتل المنذر بن عمرو وصحبه.

وكان لا بد للمسلمين أن يشحذوا هممهم ويعبئوا مشاعرهم في محاولة لتقوية الأرض التي كانوا يقفون عليها، منذ النصر المبكر الذي أحرزوه من أيام هجرتهم حتى معركة بدر إلى أن هاجموا «بني قينقاع» وما إن بدأ المسلمون يعدون أنفسهم للقوى المضادة من أهل مكة، ويحذرون من مجموعات المنافقين والمتلصصين من أهل

المدينة حتى فوجئوا بمحاولة ضربة غدر قاتلة، لو نجحت ما قامت للمسلمين قائمة بعدها، وكانت هذه الضربة هي حالة الخيانة التي تربص فيها يهود «بني النضير» الذين يقطنون المدينة إلى الشمال بخمسة كيلومترات، وأرادوا قتل النبي والتخلص منه ومن المسلمين في شخصه نهائياً حتى يفرغ لهم ميدان الحجاز بشماله، وحيث كانوا يسيطرون ويوسعون سلطانهم وعملون على استبقاء أوضاعهم وامتيازاتهم إلى الجنوب أيضاً. حيث يطمعون ويعدون ويخططون له على المدى الطويل، كي يكون الحجاز بشماله وجنوبه تحت سيطرة النفوذ اليهودي، وأسلوب التعامل القائم على السخرة والاستغلال في خدمة الخلق اليهودي وزيف العنصرية الجنسية القديمة المدعاة، والتي هي اليوم من بين أسلحة القوى التي تسيطر على الأرض العربية وتتحكم فيها، وإن كان للصراع اليوم جوانب أخرى، ولكن هيهات أن تصمد في وجه تلك الوثبة التي تجتاز كل ظروف التخلف التي فرضت عليها بتلك الصحوة الإسلامية التي يتعلق بها الجيل المعاصر أصلاً في منعة وعزة وسيادة تحت لواء الإسلام العظيم.

* * *

تصاعد الرفض اليهودي للإسلام:

من الأسباب الرئيسية في تفاقم العلاقة بني المسلمين واليهود وانتقالها إلى مرحلة من عنف الحرب والعداء، ما حدث للنبي عليه السلام من يهود «بني النضير» عقب الحوادث التي توالت على المسلمين، ولم يكن اليهود بمنأى عن توجيه هذه الحوادث والتأثير فيها.

والذي حدث هو أن النبي عليه السلام قصد «بني النضير» في مواقعهم في شهر ربيع الأول من السنة الرابعة للهجرة، ومعه مجموعة قليلة من المسلمين، وكان الرسول يقصد من زيارته ليهود «بني النضير» في أماكنهم أن يشتركوا مع جيرانهم من المسلمين في دفع دية رجلين من بني عامر، قتلهما عمرو بن أمية الضمري، وهو

الذي نجا من يد بني عامر، فقد التقى بهما في منطقة «القرقرة» على الطريق وهو عائد إلى المدينة فقتلهما ثأراً لنفسه ولأصحابه.

ولما بلغ النبي ذلك دفع ديتهما لأنهما كانا عنده وقد أخذ منهما عهداً لم يطلع عليه عمرو، ولما كانت التقاليد العربية التي توشك أن تكون قانوناً ملزماً فيما يتعلق بالدية والالتزام بها، وهو أن تشترك قبيلة القاتل وأحلافها إذا كان لها أحلاف في الدفع والغرامة كل بنسبته وقدرته، وتوزع أيضاً على قبيلة المقتول وأحلافها إذا كان لها أحلاف بنسب مقدرة ولما كان بنو «النضير» مرتبطين مع المسلمين بالتحالف الذي أشرنا إليه، فقد توجه إليهم النبي بنفسه يطلب منهم أن يتعهدوا بالتزامهم ويشتركوا مع المسلمين في دفع دية القتيلين لأنهما كانا مواليين لهم، فلا يجوز أن تذهب دماؤهما هدراً.

ورغم سوء العلاقة بين العرب المسلمين واليهود والتي مرت بأطوارها المختلفة من بدء الهجرة، حين توجه المسلمون إلى المدينة، إلى حين مطاردة النبي لمجموعة كبيرة من يهود «بني قينقاع» فإن أبسط أساليب التعامل المرتبط بالعرف والتقاليد وخاصة عند الخلق الإسلامي القويم الذي لم تطمسه ولم تمسخه نعرة التعصب والارتباط الذاتي والأنانية في التعلق بالمصلحة، وكل أوضاع الامتياز جعل اليهود حين يصل الرسول إلى «بني النضير» ومعه المجموعة القليلة من الرجال المسلمين يعدون مؤامرة بالخديعة والوشاية، حتى يأخذوا بالموقف قبل أن يتصاعد وجود المسلمين ويجتازوا محنتهم.

ومن عجب أن خيوط المؤامرة قد تم الاعداد لها هذه المرة ضد شخص الرسول نفسه عليه السلام.

والذي حدث أن الرسول عليه السلام حين وصل إلى مواقع تجمع يهود «بني النضير» رحب به الجميع واستقبلوه ووافقوا تماماً على ما عرضه عليهم من الدفع في الدية والاشتراك في غرمها، وقالوا له: «نفعل يا أبا القاسم ما أحببت» وكانوا قد

أعدوا جنايتهم ، حين علا الرجل اليهودي الذي يحدد اسمه ابن هشام «في سيرته» بأنه عمرو بن جحاش سطح الجدار الذي كان يجلس إلى جانبه النبي ، وأراد أن يلقي بصخرة كبيرة فوق رأس النبي كي تسحقه وينتهوا منه ومن تأثيره في خلق قوة جديدة ، وقد أصبحت تشكل خطراً عليهم ، وهذه الجناية الآثمة تضاف إلى الجريمة التي قامت بها زينب بنت الحارث زوجة سلام بن مشكم حين وضعت السم في الشاة التي يأكل منها النبي .

وأمام هذا التآمر وخطورة كل هذا الجرم فلعله من المعقول جداً أن المعجزة الإلهية قد لعبت دورها في توجيه النبي وحمايته ، ولعلها أيضاً الفراسة العربية وعمق شفافية نفس النبي وسرعة بديهته وادراكه ، قد علمت كل هذه المعاني في أن يفطن النبي إلى أن طبيعة الجو المحيط به غير آمنة ، فقد تكون هناك خدعة مفاجئة . فتظاهر عليه السلام بقضائه حاجة في وقعة «عمرو بن جحاش» وتوجه بأقصى ما تكون السرعة والدقة ليفاجئهم في اليوم التالي برسوله «محمد بن مسلمة» على رأس قوة من المسلمين تحمل انذاراً من النبي بضرورة الجلاء : «بني النضير» عن مواقعهم في ظرف عشرة أيام وإلا فإنه أمام محاولاتهم بالغدر قتله والتخلص منه بهذه المؤامرة ، فإن كل من يتواجد في موقعه منهم يضرب عنقه ويراق دمه .

وكان من تأثير هذه الجدية في المجابهة من جانب المسلمين في شخص نبيهم ، أن اليهود من «بني النضير» ضعفوا وتخاذلوا وغلب عليهم اتجاه التسليم بالجلاء في المهلة التي حددها لهم رسول الله ﷺ . إلا أن القوى المضادة للنبي وما يمثله من دعوة الحق والعدل كانت من قطاعات كثيرة يهودية من غير يهود «بني النضير» كانت قد تمكنت من عقد تحالفات فيما بينها وبين بعض القبائل العربية المناوئة أو الرافضة ، فاستغل الجميع الموقف الذي بادر به النبي لوضع حد التآمر ضده ، وأرادوا أن يجعلوها حرباً كبيرة ولعلهم فيها ينالون من قوة المسلمين وهيبتهم أو يتمكنون من النبي بأذى أو بقتل ، وبالدسائس التي دست استطاع حيي بن أخطب ، قائد يهود

«بني النضير» ، أن يجابه الانذار الإسلامي بعد التقاعس الذي دب فيهم أول الأمر من لهجة المطاردة الإسلامية ويقول للنبي: «إنَّا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك».

وفي تسجيل هذه المرحلة يربط المؤرخون الإسلاميون بين هذا الموقف المفاجىء الذي طرأ على حال اليهود، حين انذار النبي لهم والذي عبر عنه (حيي بن أخطب) في مواجهته للنبي بقوله: «إننا لا نخرج من ديارنا فاصنع ما بدا لك» وبين موقف التآمر الذي أخذه «ابن أبي» من المسلمين حين أرسل سراً إلى «بني النضير» يشجعهم على رفض الانذار ويغريهم بالمقاومة ويقول لهم:

«لا تخرجوا من دياركم، وأقيموا في حصونكم، فإن معي ألفين من قومي وغيرهم من العرب يدخلون معكم حصنكم فيموتون عن آخرهم وتمدون قريظة وحلفاؤكم من غطفان[1]. ورغم كل هذا الذي عبأ به اليهود أنفسهم من تآمر وتحالف فإن النبي قد وجه المسلمين إلى أن يقوموا إلى اليهود في مواقعهم ويهاجموهم في حصونهم ومع صبر المسلمين وجلدهم وقوة إيمانهم واصلوا حصارهم ليهود «بني النضير» خمسة عشر يوماً، لم يجرؤ خلالها اليهود في أن يحاولوا فك الحصار عن حصونهم ومواقعهم، بل إن المسلمين أثناء حصارهم لليهود قاموا بقطع بعض نخيلهم، الأمر الذي ساعد على كشف الطبع الأناني الشحيح الذي لا يعرف معاني البذل والتضحية في مواقف الشدة، فعندما قطع المسلمون النخيل في أثناء حصارهم ليهود «بني النضير» رفعوا أصواتهم بالاستسلام قائلين: لا تفعلوا فقد قبلنا شروطكم ونحن مستعدون للخروج[2]. وأمام هذا الاستسلام المخزي فإن المسلمين أعطوا في الموقف هذا تعاليم دينهم وخلقهم وكل ما ألفوا من قواعد العفو الصفح، وأنهوا

---

(١) انظر: «تاريخ الإسلام السياسي» للأستاذ أمين سعيد.

(٢) انظر في أمر إجلاء بني النضير ما جاء في سيرة ابن هشام صفحتي ١٩٠، ١٩١ من الجزء الثالث الطبعة الثانية، المشار إليها في الصفحات السابقة.

الموقف بينهم وبين اليهود من «بني النضير» بالشروط الآتية:

أولاً: تنفيذ انذار «بني النضير» بالجلاء عن الأرض التي منها يمثلون موقف المناوأة ضد المسلمين.

ثانياً: تعهد المسلمون بأن تصان دماء اليهود وأوراحهم أثناء عملية الجلاء عن الأرض.

ثالثاً: أباح المسلمون لأنفسهم أن يأخذوا من يهود متاعهم.

رابعاً: اشترط المسلمون على اليهود أن يسلموا سلاحهم للمسلمين ولا يخرجوا به.

وبهذه المرحلة من انفجار الصراع بين العرب المسلمين في بدء عصر الدعوة الإسلامية وبين اليهود، فإن الظروف التي أدت إلى انذار المسلمين ليهود «بني النضير» هو ما تم بعد موقف المسلمين من اليهود، قد أكد طبيعة التناقض التاريخية بين الأخلاق الإسلامية والطبيعية العدوانية عند اليهود، والتي تعبر عن اختلاف في الطبع والتكوين والعقيدة ومنهج الحياة، وكل أمور السلوك العام بين كل الخلق اليهودي القائم على أساليب الاستغلال والسيطرة، والمرتبط دائماً وأبداً بالسلوك المرتشى المتآمر والمنحرف والانتهازي، بدعوى العلم والنبوغ ونقاء الجنس، وميراث وتعاليم الدين السمح والعف الكريم الذي يحفظ حق الجوار وحرمة العهد والوعد وخاصة بعد أن امتزجت قيم المروءة والنخوة العربية بقيم وآداب وتعاليم الإسلام.

ونستطيع القول إنه في الصراع العربي اليهودي القديم جملة أسس من التناقض المستقر عند الطرفين، تمثل عدة اتجاهات متنافرة في طبيعة مكونات التراث عندهما، فقضية الرفض العربي واليهودي عند كل من الطرفين للآخر وإن اختلف هذا الرفض في طبيعته عند كل من العرب واليهود، باعتباره عند العربي الموقف الذي يعبر عن الإيمان بالإسلام، وعند اليهودي يعبر عن الطبع الذي يمتلىء بمشاعر العداء

للناس ونزعة الشر في السلوك والتعامل والجور والاستغلال في علاقة اليهودي بغيره من البشر، كان أساسها السلوك اليهودي.

اقول فإن تتابع المواجهة من جانب اليهود ضد العرب المسلمين بالتآمر والوشاية ضد الشخصية العربية المسلمة، التي بدأت تنمو وتقف على قدميها وسطجو السخرة والاستغلال الذي كانت الجماعات اليهودية تسود به في أرض العرب، حتى المراحل التي حدثت فيها مضاعفات المجابهة الصريحة بين العرب واليهود «في قينقاع» و«النضير» كان لا بد فيه للشخصية العربية التي تنمو على هدى دين الإسلام ان تعمل على التخلص نهائياً من خطر الوجود اليهودي في الأرض العربية، وعلى هذه الشخصية التي تمثل قضية الحق والخير والعدل والسلام أن لا تسمح للوجود اليهودي القوي بأن ينمو أو يتزايد وأن يتمكن من التعبير عن مطامعه ونزعات التعصب والاستغلال المرتبطبها والملتصقة بالطبع والذات اليهودية ديناً وتاريخاً وقد كان للعرب المسلمين ما أوجبته عليهم ظروف جهادهم مع جماعات اليهود من استعداد للبذل والفداء والتضحية، حتى لا تلتهمهم الأخلاق الأفعوانية ويضيعون تحت أساليب السمسرة والوشاية والدس بالخداع والنفاق، الأخلاق التي يجعل منها الإنسان اليهودي دائماً أبداً أداة له في خدمة واستبقاء أوضاع التفاوت والإستغلال.

* * *

الحرب الإسلامية اليهودية وموقف القرآن منها:

كان من الطبيعي بعد أن تعقدت العلاقة الإسلامية اليهودية، نتيجة لموقف اليهود المستمر في العداء، والمراوغ والمناور في مقاومة حركة انتشار الإسلام، أن تتجه الأمور نحو المجابهة الصريحة.

ورغم أن الرسول ﷺ قد أعطى اشارة البدء بمقاومتهم، وبالفعل قامت الحرب الإسلامية اليهودية بعد معركة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وكان هذا إيذاناً

بأن المسلمين لن يقفوا مكتوفي الأيدي إزاء المقاومة اليهودية لهم. ومع ذلك فإن الحرب الحقيقية التي وضع الرسول عليه السلام استراتيجيتها، لتحقق في نهاية المطاف تطهير مسرح الدعوة الإسلامية من عناصر الرفض اليهودي، لم تبدأ إلا بعد السنة الخامسة من الهجرة، إثر الدور الرئيسي بل الدور الأساسي الذي قام به اليهود في جهد مستميت، لتأليب كل القبائل العربية وحفزها لحرب الإسلام والمسلمين، فضلا عن قريش التي أعدت لمعركة الأحزاب والتي خرجت منها القوى المعادية من قبائل عربية تدعي السيادة على الأرض التي تمتد قوتها عليه، وترى في شوكة الإسلام خطراً عليها، فهذي قريش التي تريد أن تتأثر من محمد وترفض ما تمثله دعوته، والقوى اليهودية وما تمثله من عدوان في دفعها لكل جبهات العداء، في أن تعبىء امكاناتها وتشحذ هممها وتنطلق لحرب محمد، وتكاتفت الجهود بتوجيه يهودي عجيب حتى كانت معركة الأحزاب، فكيف نرى الدور اليهودي فيها وموقف القرآن الكريم، وهو يقص على الدنيا أخبار متابعة الوحي الإلهي لكل عمليات العداء ضد الإسلام ونبيه عليه السلام.

القوى اليهودية في معركة الأحزاب:

لما أدرك اليهود أن الدعوة الإسلامية قد مضى عليها في المدينة خمس سنوات دخلت بعض المعارك الأساسية في محاولة من أعدائها لقهرها واجهاضها دون جدوى ابتدأ تنفيذ مخطط يهودي كبير في فرض معركة على المسلمين لا قبل لهم بها، تستأصل فيها شأفتهم وينفذ أمرهم، ويمكن من خلالها قتل بني الإسلام، وبذلك يعاودون مرة ثانية العمل المرتشي المناور في إيجاد سيادة يهودية على الأرض العربية في يثرب وفي مكة إذا ما أتيح لهم.

وكانت البداية كما ترويها كتب السيرة الإسلامية، وعلى وجه الخصوص كما يشير إليها ابن هشام في الجزء الثالث المطبوع عام ١٣٧٥ هـ الموافق ١٩٥٥م من

الطبعة الثانية التي حققها مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي أن: «سلام بن الحقيق النضري» وحيي بن أخطب النضري، وكنانة بن أبي الحقيق النضري وهوذة بن قيس الدائلي، وأبو عمار الدائلي، في نفر من «بني النضير» ونفر من بني وائل اجتمعوا يقودون عناصر يهودية أخرى يذهبون على رأسها إلى قريش في مكة لدعوتهم إلى حرب محمد وللاتفاق معهم على خطوات اعداد وتنفيذ حرب كبرى لا قبل للمسلمين بها.

وفي هذه المرحلة انجلى الفرق الخطير بين وجدان الإنسان المسلم المتهيىء لقبول الحق والاستعداد لتقبله، وبين العدوان اليهودي القائم على روح البغي والتعصب ومن عجب أن الافصاح عن إمكان تقبل الحق في هذه المرحلة بين قريش والقيادات اليهودية وقيادات قريش لا تزال غير مؤمنة بما جاء به محمد ولا مؤمنة بما يدعو إليه.

وتمثل الموقف الذي أبان فيه الإنسان العربي عن بعض قلقه حين قالت قريش على لسان أحد أبنائها: «يا معشر اليهود، إنكم أهل الكتاب الأول وعلى علم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد. ونحن في هذه المرحلة التي نضع مسؤولية الحكم فيها قبل الاقدام على حرب كبرى كتلك التي جئتم من أجلها على عاتقكم وفي رقابكم». أفديننا خير أم دينه؟ فما كان من التآمر اليهودي وهم الذين أسلم بعض أحبارهم وصدق إسلامهم (كمخيريق) الذي قاتل مع رسول الله رغم كبر سنه في معركة أحد، واستشهد صحابياً أنصارياً جليلاً، إلا أن قالوا لقريش «بل دينكم خير من دينه. وأنتم أولى بالحق منه». وعند ذلك ترتب على هذه الفتوى الكافرة أن نشط بعض المترددين في حرب رسول الله ﷺ من عرب قريش، ولم يغفل الذكر الحكيم أن يسجل للإنسانية كلها دروس تآمر بني اسرائيل في عصر الدعوة الإسلامية. ومن أجل الروح العنصرية البغيضة التي تسيطر عليهم في كرههم للإنسان المسلم، وكل

ما هو حق وخير يقول رب العزة تسجيلاً لما حدث وكشفاً لرسول الله ﷺ عن كل ما يحيط به وما يحاك ضده.

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَـٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلاً، أُوْلَـٰئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيراً ﴾ سورة النساء الآية ٥١ ـ ٥٢.

واسترسل الوحي ليكشف الأسباب الكائنة وراء الكذب والتضليل والاعداد للعدوان:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكاً عَظِيماً، فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾. سورة النساء الآية ٥٤ ـ ٥٥.

* * *

التجمع اليهودي لحرب الأحزاب:

سعدت القيادات اليهودية التي قادت التخطيط لحرب رسول الله في معركة كبرى باستجابة قريش لها، وكان على (سلام بن أبي الحقيق النضري) أن يطمئن إلى كل مسببات نجاح كيده للإسلام، فانطلقت المجموعة اليهودية بعد قريش إلى قبائل غطفان من قيس عيلان، ونقلوا إليهم أخبار اعدادهم للحرب الكبرى التي لا قبل للمسلمين بها وبتحالفهم مع قريش، واطمأنت غطفان إلى تأكيدات اليهود في

استعداد قريش وهنا كان على القيادات التي استجابت لنداء العدوان أن تتحرك على مسرح المنطقة التي ستجري عليها عمليات التجميع لحرب الإسلام ونبيه عليه السلام، فكان أبو سفيان بن حرب يمثل ثقلاً في جانب قريش وعيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر يمثل جانباً عن غطفان من بني فزارة، والحارث بن عوف بن أبي حارثة السري عن بني مرة وانضم إلى هذه القيادات مجموعات عداء من بني كنانة وأهل تهامة وبعض أهل نجد.

ومع كل عمليات التجميع اليهودي التي استطاعوا تجنيد عشرة آلاف مقاتل بها ضد المسلمين الذين لم يكونوا ليقدروا على صد العدوان بأكثر من ثلاثة آلاف مقاتل. فإن اليهودي المتآمر «حيي بن أخطب» لم يكفه كل هذا الحشد وإنما راح ليحكم الطوق حول أعناق المسلمين، ولو كان ذلك بخيانة.

وبالفعل توجه «حيي بن أخطب» اليهودي إلى كعب بن أسد القرظي اليهودي، وكان كعب قد وادع الرسول عليه السلام وعاهده، وعندما قامت الفتنة وأدرك ما يعده بنو قومه للمسلمين آثر السلامة، وابتعد عما يجري ولم يشارك فيه. فقد كان يهودياً يحترم كلمته وعهده لرسول الله، وكانت «قريظة» نتيجة موقف سيدها غير مستعدة للتآمر مع باقي القوى اليهودية وتحالفها مع الأحزاب.

ولما حان وقت القتال وفي التقدير اليهودي أنه لا بد من فتح ثغرة في قلب المدينة للانقضاض منها على ظهر المسلمين. كان موقف «كعب بن أسد القرظي» أنه أغلق أبواب حصنه وابتعد عن جو الصراع، لكن العدوان اليهودي القائد جعل «حيي بن أخطب» يذهب إلى كعب بن أسد الذي أغلق باب حصنه في وجه حيي بن أخطب رافضاً أن يفتح له أو يقابله. ويسجل التراث العربي مواقف كعب الأولى من محاولات حيي بن أخطب بالشكر والتقدير حين قال لابن أخطب: ويحك يا حيي أنك امرؤ شؤم، وأني قد عاهدت محمدا، فلست بناقض ما بيني وبينه، ولم أر منه إلا وفاء وصدقاً. لكن الاستجداء الذي كانت عليه أخلاق ابن أخطب من أجل تحقيق

روح العدوان في نفسه. جعلته يقول لكعب بن أسد: افتح لي أكلمك ويرد عليه كعب: ما أنا بفاعل. لكن حيي يدخل إلى قلب كعب من باب غريب جداً حين قال لكعب: والله يا كعب أنك ما أقفلت باب حصنك ولم ترد أن أدخل عليك إلا خوف أن أكلفك طعاماً وشراباً! وعندما فتح الرجل باب حصنه وقال له: ماذا تريد؟ فيقول له حيي ويحك يا كعب! أمامنا فرصة العمر التي يجب أن لا تضيع، جئتك بعز الدهر في كثرة من الرجال ووفرة في السلاح، وجئتك بقريش على قادتها وسادتها حتى أنزلتهم بجوار جبل أحد، قد عاهدوني وعاقدوني على أن لا يبرحوا حتى نستأصل بجوار جبل أحد محمدا ومن معه. ورغم أن كعب بن أسد في بادىء الأمر قد وقف متشدداً من حيي بن أخطب حين قال له: جئتني والله بذل الدهر! فدعني وما أنا فيه فإني لم أر محمداً إلا صدقاً ووفاءً. لكن الإلحاح الشديد من جانب حيي بعد عهد وإيمان أقسمها لكعب أن قريشاً وغطفان ومن معهم إذا لم يقتلوا محمداً ويستأصلوا شأفته، فإنه سيحضر إلى حصن كعب ويعالجا موقفهما معاً.

وما زال حيي بن أخطب بكعب بن أسد حتى نقض عهده مع رسول الله ﷺ. وأعلن الخبر على الملأ - وخلَّف ذلك الموقف رد فعل سيء في نفوس الكثيرين. نظراً لانفتاح جبهة في القتال كان من الممكن إن لم تعاون أن يكتفي شرها وكان على الرسول عليه السلام أن يبدو رابط الجأش قوي العزيمة كعهده في كل المواقف العصبية التي تعرض لها المسلمون، من جراء كيد اليهود للإسلام ونبيه عليه السلام.

وقرر الرسول أن لا يحدث هذا الموقف تأثيره في نفوس المسلمين. فقبل أن يستشري الخبر ويعم الجميع، بعث رسول الله ﷺ وفداً يضم: «سعد بن معاذ بن النعمان» وهو يومئذ سيد الأوس و «سعد بن عبادة بن دليم» وهو سيد الخزرج يرافقهما في تأدية المهمة عبد الله بن رواحة، وانضم إليهم (خوات بن حبير) وأوكل إليهم الرسول مهمة دراسة الموقف مع يهود كعب بن أسد، وطلب منهم التثبت مما إذا كان اليهود بقيادة كعب بن أسد قد نقضوا عهدهم مع الرسول حقيقة، وظلوا

على موقفهم بعد ذهابكم إليهم ومعالجة الموقف، فأخبروني بطريقة لا تزعج الناس ولا تفت في عضدهم، وإن كانوا على البقاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس.

ولما ذهب الوفد الإسلامي إلى مواقع كعب وجدوا اليهود بقيادته على أشد ما يكونون نكراناً وجحوداً وكفراً بعهدهم وعقودهم مع الرسول عليه السلام. وحين كان الوفد يتحدث باسم رسول الله ﷺ كان الرد اليهودي: من رسول الله؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد!

وتوتر الموقف بين الوفد المسلم وبين اليهود وكادت تحدث مذبحة حين أهاج حديثهم عن رسول الله ﷺ بما لا يليق «سعد بن معاذ» الذي كاد أن يستل سيفه ويقاتل من حوله من يهود، وحين شاتمه اليهود وشاتمهم تدخل سعد بن عبادة، وقال لأخيه سعد بن معاذ: دع عنك مشاتمتهم فهم بنقضهم عهد رسول الله أصبح ما بيننا وبينهم أشد وأخطر من المشاتمة!

وبالفعل فإن نتائج نقض العهد الذي قام به يهود بني قريظة بقيادة سيدهم كان له تأثيره السيء في الجبهة الإسلامية، الأمر الذي اقتضى من رسول الله بذل أقصى الجهد لتعبئة الصفوف من جديد، وتقوية المعنويات التي قد يكون اعتراها بعض الفتور من أثر الدور الذي قامت به العناصر الموالية ليهود بني قريظة بين مجتمع المدينة.
وكان تأثير نقض اليهود من بني قريظة عهدهم مع المسلمين على قريش وحلفائها في حصارهم للمسلمين قوياً وعظيماً. فارتفعت الأصوات المنكرة تهلل وترفع السلاح وتتوثب للعدوان.

وكان على السؤال ﷺ أن يعالج هذا الحصار العسكري الذي لا قبل للمسلمين به، بمهارة سياسية فذة وبأسلوب جاد وجريء، فحين رأى البلاء قد اشتد على الناس استقبل غدر بني قريظة بثبات منقطع النظير ولجأ إلى رفع المعنويات بالتكبير: الله أكبر. الله أكبر. ابشروا يا معشر المسلمين بنصر الله! ثم أخرج الجيش

الإسلامي من قلب المدينة وأوكل إلى الصحابيين الجليلين «سلمة بن أسلم» وزيد بن حارثة مهمة حماية المدينة والدفاع عنها، فضلاً عن مهمة التنبيه لحركات الغدر المتمثلة من وراء الظهر التي ستقوم بها يهود قريظة، ولجأ الرسول بعد ذلك إلى المهارة السياسية لكي يخرج بأصحابه من الأزمة والحصار الذي أطبق على المسلمين، بسبب كيد اليهود ونقضهم للعهود والمواثيق.

* * *

الرسول يضرب التآمر اليهودي في حرب الأحزاب:

أرسل رسول الله ﷺ سراً وفداً مسلماً إلى عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر، وإلى الحارث بن عوف بن أبي المرىء، وهما قائدان يسمع لهما قومهما. وكانت تعليمات الرسول للوفد الذي تقابل مع عيينة والحارث أن يحدث الرجلان برغبة الرسول في أن ترجع غطفان عن نصرتها لقريش وتعاونها معها في هذا العدوان، وخاصة أن ليس هناك من صدام أو صراعات بين المسلمين وغطفان، وكان الثمن الذي أراد به الرسول أن يدفع بأحداث فرقة بين جبهة قريش التي يحركها اليهود ويشرفون عليها، هو أن يدفع لغطفان ثلث ثمار المدينة على أن ترجع عن انضمامها لقريش وتعلن ذلك على الملأ، ثم ترجع أدراجها فوراً إلى مواقعها. لكن مع الحرص الشديد من الرسول عليه السلام على أن لا يقطع أمراً من أمور الدنيا دون ممارسة كاملة لأعظم أشكال الحرية والشورى، جعلته يعرض عرضه باعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة على القيادات الإسلامية التي تعاونه، وذلك قبل توقيع الاتفاق والتصديق عليه.

وهنا جاء سعد بن عبادة وسعد بن معاذ وقالا: يا رسول الله، أهذا الذي تقدم عليه أمر ننظر فيه فنحبه فنضعه، أم هو مما أمرك الله به لا بد لنا من العمل؟ وهنا يسوق الرسول ﷺ دافعه إلى هذا العمل وهو اشفاقه عليهم من شدة المجابهة حين

قال لهم: والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة، وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما وهنا يتجلى إيمان أصحاب رسول الله في فدائية منقطعة النظير في الدفاع عن الدين وكل ما يتعلق به حين قال سعد بن معاذ: يا رسول الله، قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك وعبادة الأوثان لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا من ثمرة إلا قرى أو بيعاً. يا رسول الله، ما لنا بهذا من حاجة والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. قال رسول الله عندئذ: فأنت وذاك. فتناول سعد بن معاذ الصحيفة فمحا ما فيها من الكتاب الذي كان يزمع إعطاءه لغطفان، لتنصرف عن انضمامها لجبهة قريش.

وكان لا بد للرسول عليه السلام أن يبذل قصارى جهده ليفتت جبهة العداء وأعطى الرسول بمهارته السياسية في قيادة الموقف العصيب دروساً لكل قادة الأمم والشعوب في أوقات محنها، كيف تكون القيادة في مجابهة التحديات وذلك بأن وضع ﷺ نصب عينيه أن يحدث مرحلياً ثغرة سياسية يخفف بها من شدة الضغط المحيط به ثم يضرب ضربته بطريقة لا تعرض جموع المسلمين للضياع، خاصة بعد أن تبين أن الهدف اليهودي وراء كل هذا الحشد هو القضاء على دعوة الإسلام نفسها، وذلك بضرب معقلها في يثرب.

وحين جاءه في ابان الأزمة (نعيم بن مسعود بن عامر) وهو ينتمي في نسبه البعيد لغطفان، ليعلن إسلامه أمام الرسول عليه السلام، حدث أن قال نعيم لرسول الله: إني حين قررت الإسلام لم أخبر أحداً، وأن قومي لم يعلموا بإسلامي، فمرني يا رسول الله بما شئت. وهنا تجلت مهارة رسول الله في استثمار هذا الموقف والاستفادة منه إلى أقصى حد ممكن، حين قال لنعيم بن مسعود: إنما أنت فينا رجل واحد، فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة. فخرج من عند الرسول بعد أن أعطاه عليه السلام صلاحيات أن يتحرك بما يراه مفيداً للتخلص من أوضاع الحصار

العسكري الذي يتعرض له المسلمون، وتوجه نعيم بن مسعود بسرعة إلى بني قريظة فقد كان على علاقة طيبة بهم قبل إسلامه.

وقال لقياداتهم: يا بني قريظة قد عرفتم ودي إياكم، وخاصة ما بيني وبينكم فقالوا له: صدقت لست عندنا بمتهم. فقال لهم: إن قريشاً وغطفان ليسوا كأنتم البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم، لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره وأن قريشاً وغطفان قد جاؤوا لحرب محمد وأصحابه وقد ظاهرتموهم عليه، وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره فليسوا كأنتم، فإن رأوا نهزة أصابوها، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم.. فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيدكم، على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه فقالوا له: لقد أشرت بالرأي.

وكان على نعيم أن يكمل مهمته في إحداث فرقة سياسية في جبهة العداء للإسلام فتوجه على الفور إلى معسكر قريش فالتقى بأبي سفيان والقيادة التي معه من سادة قريش وقال لهم: قد عرفتم ودي لكم وفراقي محمدا، وقد رأيت أمراً رأيت علي حقاً أن أبلغكموه نصحاً لكم فاكتموا. فقالوا: نفعل. قال: قد علمت أن يهود بني قريظة قد ندموا على ما فعلوا وقالوا لمحمد: فهل يرضيك أن تأخذ من القبيلتين من قريش وغطفان رجالاً من أشرافهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم؟ ثم قالوا: ونكون معك على من بقي منهم حتى تستأصلهم. فأرسل إليهم أن نعم، فإن بعثت إليكم قريظة يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً.

وانطلق الرجل الذي ملأه حبه لرسول الله بكل هذه القدرة من المناورة وذهب إلى قيادة غطفان وقال لهم: يا معشر غطفان، إنكم أصلي وعشيرتي وأحب الناس إلي ولا أراكم تتهمونني. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم قال: فاكتموا عني. قالوا: نفعل في أمرك. فقال لهم مثل ما قال لقريش، فحذروهم من الإقدام على الحرب.

وبالفعل أثمرت جهود نعيم في إحداث الفرقة والانقسام في جبهة العداء، ففي

ليلة سبت من شوال في السنة الخامسة للهجرة وهي التي كان فيها حصار الأحزاب للسملين كانت قريش قد ضاقت بالموقف وقاد عكرمة بن أبي جهل بتوجيه من أبي سفيان نداء كل قوى العداء لبدء القتال ضد المسلمين لكن رد بني قريظة قد جاء على ضوء ما خططنعيم ، فقد قالوا لقريش: إن اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه ولا نقاتل ، ومع ذلك فإننا لن نقاتل معكم حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمداً ، فإننا نخشى إن نالت منكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تسرعوا إلى بلادكم وتتركونا ، والرجل في بلادنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

ولما رجعت الرسل التي كانت تقوم بمهمة الاعداد لبدء المعركة برد قريظة ، أدركت قريش وغطفان أن أخبار نعيم بن مسعود كانت تمثل بالنسبة لهم موقف تحذير صدق من مؤامرة يهود بني قريظة.

وأرادت قريش معالجة الموقف وأرسلت رسلاً إلى بني قريظة أن الاتفاق بيننا على القتال لا يقتضي أن تأخذوا منا رهناً من الرجال ، ونحن سنقاتل محمداً معاً ، فأخرجوا للقتال إن كنتم ستقاتلون محمداً . . وهنا أيضاً فسرت قريظة حديث نعيم بن مسعود بأنه كان حديث تحذير صدق لهم من مخاطرة قد توقعهم قريش فيها ، وأن عليهم أن لا يستجيبوا لنداء القتال. فإن الموقف كما يقول نعيم بالفعل ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا فإن رأوها فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك عاذوا إلى بلادهم وخلوا بيننا وبين محمد ، ولا قبل لنا وحدنا بمقاومته ، وهنا تحدد موقف قريظة ، حين ردوا رسل قريش وغطفان مرة ثانية بأنهم لن يقاتلوا معهم حتى يأخذوا رهناً من أشرافهم. ونجحت مهارة نعيم ابن مسعود فقد فسرت الموقف متأكدة أن بنى قريظة تود أن تقوم بمؤامرة ضد قريش.

وهنا فت في عضد قريش وسرت أنباء الانقسام وتخاذل فريق من المقاتلين وحارت القيادة اليهودية المدبرة للمؤامرة ما تصنع؟ لكن الله سبحانه تدخل بعونه لنبيه وفك أسر المسلمين ، ومزق الحصار المضروب حواليهم بقوته وحده ، ومع أن

المسلمين بقيادة نبيهم قد قرروا مواجهة جيش الأحزاب واستعدوا في مواقعهم بعد أن ضربوا حولهم مانعاً قوياً عاونهم في الصمود وهو الخندق الذي عمل فيه الرسول ﷺ، وتمثل ذلك في جملة مواقف تأكد منها أن المسلمين كانوا يحكمون ويملكون مواجهة قريش ومقاومتهم لكن الله تعالى تكفل عنهم بذلك.

من هذه المواقف العظيمة مثلاً: دور امرأة مسلمة في أحد مواقع المدينة، وقد خلت من جيش إسلامي قوي يدافع عنها، باستثناء بضع مئات صغيرة من الرجال أوكل إليهم الرسول مهمة حماية المسلمين ضد المؤامرات اليهودية في المدينة كانت «صفية بنت عبد المطلب» في قاع حصن حسان بن ثابت تقول صفية: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، تقول صفية: فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن وقد حاربت بنو قريظة وقطعت ما بينها وبين رسول الله ﷺ وليس بيننا أحد يدفع عنا، ورسول الله عليه السلام والمسلمون في نحور أعدائهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إن أتانا آت. تقول صفية: فقلت يا حسان إن هذا اليهودي كما ترى يطيف بالحصن وأني والله ما آمنة أن يدل على عورتنا من وراءنا من اليهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه فانزل إليه فاقتله. لكن حسان ابن ثابت لم يكن رجل قتال ولا يقدر على ممارسته، وحين قال لصفية بنت عبد المطلب: والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا! وهنا أمام الخطر الذي استشعرته صفية من أن اليهودي قد يطلع على عورة الموقف، وأن المسلمين فيه من الأطفال والنساء والشيوخ ليس لديهم القوة العسكرية التي تحميهم من احتمال انقضاض يهود بني قريظة، ولو تم ذلك لحدثت هزة في قلب المدينة، وشجعت على الانقضاض على أحياء أخرى.. وكأن صفية بوعيها ومسؤوليتها في ادراك الموقف قد أرادت أن تجنب المسلمين أحداث رجة سياسية في الجبهة الداخلية، فلما رأت صفية أن حسان بن ثابت لن يعالج الموقف كما تريد تحدثنا هي عما فعلت فتقول: فلما قال لي ذلك ولم أر عنده شيئاً احتجزت (شددت) وسطي ثم أخذت عموداً من حديد ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتى قتلته!

وتتجلى في موقف صفية بنت عبد المطلب عظمة التربية الإسلامية، حين ترفض من تلقاء نفسها أن تتحسس جسد القتيل وهي تسلبه سلبه وتقول لحسان ابن ثابت: قد قتلت اليهودي فأنزل إليه فأسلبه، فإنه لم يمنعني من سلبه إلا أنه رجل.

وكان بجانب مثل هذه المواقف مواقف فيها الاستعداد التام للقتال فمن ذلك مثلاً: حين عبرت مجموعة من فرسان قريش الخندق، وكان منهم أشهر فارس في الجزيرة يومها «عمرو بن عبد ود بن أبي قيس» أخو بني عامر بن لؤي، وكان منهم «عكرمة بن أبي جهل» الذي يوم أسلم دوخ أعداء المسلمين، وهبيرة بن أبي وهب، وضرار بن الخطاب وهم القيادات العسكرية التي كانت تقول حين خرجت للقتال: فستعلمون من الفرسان اليوم!

وحين سيطروا على مكان ضيق من الخندق بعد أن ضربوا خيلهم لتقتحم مكاناً كان يقع بين الخندق وجبل سلع، تصدت لهم قوة إسلامية بقيادة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وسدوا هذه الثغرة، ولما كان عمرو بن ود لم يتمكن من فرض عدوانه على المسلمين يوم بدر، بل عاد مجروحاً ولم يتمكن في العام التالي لبدر أن يشهد معركة أحد، فقد جاء هذه المرة ووقف في منطقة الخندق يقول: من يبارز؟ فيبرز له علي بن أبي طالب ومن العظيم حقاً بأن المسلمين لم ينسوا مهمتهم الأصلية التي يتعرضون بسببها لكل الآلام والشدائد، وهي الدعوة للإسلام، فإن الإمام علي بن أبي طالب، وعمرو بن عبد ود، يرفع عقيرته بالعدوان: من يبارز؟ يقول له الإمام علي: يا عمرو. إنك قد كنت عاهدت الله ألا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين الا أخذتها منه. قال له: أجل. قال له علي: فإني أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام. قال: لا حاجة لي بذلك. وعندئذ قال له علي بن أبي طالب: فإني أدعوك إلى النزال. فقال له: لم يا ابن الأخ. فوالله ما أحب أن أقتلك. قال له علي في يقين عظيم: لكني والله أحب أن أقتلك. فاشتد غضب عمرو عند ذلك ونزل عن فرسه وعقره ثقة عدوانية في قتل علي. ثم أقبل بكل قوته على علي. فتنازلا

وتجادلا، فلم تمضِ دقائق حتى ألقاه علي بن أبي طالب على الأرض مقتولاً. وأمام هذه الشجاعة الفدائية كان بقية الفرسان قد آثروا الانسحاب من الموقع الذي اقتحموه.

ومع كل الاختبار الشديد الذي امتحن الله به المسلمين ليميز الخبيث من الطيب، ولكي تدخل الدعوة الإسلامية في مرحلة جديدة من تطهير الأرض العربية من العدوان اليهودي. فإن عون الله حين جاء لم تكن هناك من الامكانات الفعلية ما يتاح له أن يتحدث عن طبيعة الموقف وتدخلاته، وبواعثه، ثم وما تمخض عنه والنتائج التي ترتبت عليه، هذا بالإضافة إلى نوعية العون الإلهي الذي خلص به المسلمون من أسرهم، ومن كل أنواع الشدائد التي تعرضوا لها.

ومن هنا سجل رب العزة في محكم التنزيل كل ما حدث ومن خلال سورة للقرآن عظيمة باهرة.

يقول رب العزة في سورة الأحزاب من الآيات ٩ ـ ٢٧:

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً، إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَـاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا، هُنَالِكَ ٱبْتُلِيَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيداً، وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَـا ٱللَّهُ وَرَسُولُـهُ إِلَّا غُرُوراً، وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُواْ وَيَسْتَئْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً، وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُواْ ٱلْفِتْنَةَ لَأَتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ إِلَّا يَسِيراً، وَلَقَدْ كَانُواْ عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْئُولاً، قُل

لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذاً لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلاً، قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً، قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً، أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْـخَيْرِ أُوْلَـٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيراً، يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْئَلُونَ عَنْ أَنبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَـٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلاً، لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيراً، وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَـٰناً وَتَسْلِيماً، مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَـٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلاً، لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُوراً رَّحِيماً، وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُواْ خَيْراً وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزاً، وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً، وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضاً لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً ﴾.

وكان من المنطقي والمعقول بعد أن انكسرت حدة هذه الهزيمة العدوانية التي خطط لها اليهود وأعدوا، أن يبدأ الرسول بخطة تطهير الأرض العربية من التجمع اليهودي ووضع حد لأطماعهم وعدوانهم ومؤامراتهم.

وهذا هو ما كان حين وجه الله سبحانه تعالى نبيه عليه السلام إلى حرب يهود بني قريظة ناقضي العقد وخائني العهد. وأصبحت هذه المرحلة هي البداية العملية لتطور مراحل الصراع بين المسلمين واليهود. وليصبح بعد اندحار جيوش الأحزاب التي أعدها اليهود الموقف في صالح المسلمين الذين لم يكن من المنطقي أن يضعوا أنفسهم في موقف مثل ذلك الذي فرضه عليهم العدوان اليهودي. وقد استمر تآمر بني إسرائيل طوال أعوام خمسة دون أن يلقوا من المسلمين مقاومة تضع حداً لأطماعهم وكفرهم. وهذا هو ما كان من المسلمين بعد ذلك.



الباب الثالث

غزوة بني قريظة وأثرها السياسي

الرسول يأمر بقتل المؤامرة اليهودية

الإعداد العسكري لضرب التجمع في خيبر

الرسول يضرب التآمر اليهودي في خيبر

طبيعة المعركة في ساحة خيبر

أهداف الحرب الإسلامية في خيبر

غزوة بني قريظة وأثرها السياسي

بعد ارتداد جيوش الأحزاب شبه ممزقة ومبعثرة مما فعل الله بهم، عوناً لنبيه ونصرة للمسلمين، لم تعد أمام المسلمين أخطار محدقة سوى ما يمكن أن يقوم به اليهود «من جديد» وخاصة بعد أن انكشف موقف يهود بني قريظة أمام المسلمين تماماً. ومن هنا فإن الرسول ﷺ، ما أن انسحبت جيوش الأحزاب حتى كلف مجموعة من أصحابه برصد حركة يهود بني قريظة، وما أن تبين الرسول عليه السلام أن بني قريظة قبعوا في حصونهم، وأن هناك تحركات تتم وجهوداً تبذل لنوع من التحصن والتجهيز داخل الحصون اليهودية إلا وقد أعد العدة، ولم يكن أمر التوجه إلى بني قريظة في مواقعهم بالعمل الهين أو الجولة اليسيرة، ومن هنا فإن عون الله للمسلمين في جهودهم لضرب التآمر ضدهم كان لا يزال يظلل وجودهم ويدفعهم إلى الأمام، فقد أخرج الشيخان، عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «لما رجع رسول الله عليه السلام من الخندق ووضع السلاح واغتسل أتاه جبريل فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعنا. فأخرج إليهم. قال النبي ﷺ: فإلى أين؟ قال: ها هنا. وأشار إلى بني قريظة، فخرج النبي ﷺ إليهم».

وفي مراحل تنفيذ الخطوات الأولى التي اتخذها الرسول عليه السلام ضد بني قريظة، بعد توجيه الوحي الإلهي إلى الأخذ بهذه المبادرة، نرى الرسول يتخذ خطوات عاجلة وتعبئة سريعة، حتى لا يمكن قريظة من التهيؤ للمقاومة الشديدة،

فأمر النبي عليه السلام أصحابه وجموع المسلمين أن يتحركوا بسرعة لقتال بني قريظة وأن لا يشغلهم أي شاغل عن هذا الخروج وابن عمر رضي الله تعالى عنهما يقول: قال النبيﷺ يوم الأحزاب لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة. فأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي لم يرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبي فلم يعنف أحداً.

ومن هذا يتضح لنا الحرص الشديد من الرسولﷺ أن يضرب ناقضي العهد قبل أن يكونوا في وضع يكلف المسلمين كثيراً من التضحيات وأوكل الرسول راية الحرب إلى علي بن أبي طالب، قوة الفداء العظيمة التي ضربت غطرسة العدوان، حين حاول المعتدون اقتحام الخندق منذ أيام. ولما كانت معلومات المسلمين طوال خمس سنوات عن يهود بني قريظة بالذات أنهم على جانب من الغطرسة وبذاءة اللسان وقلةُ الذوق العام، فضلاً عن روح الخيانة ورغبة الانتقام، فإن حامل الراية علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه حين اقترب من مواقعهم. أدرك أن سفاهة القوم وقبيح ألسنتهم قد يؤذي الرسول، فأسلم علي الراية إلى أبي قتادة الأنصاري، وتوجه إلى النبي ﷺ يعترض طريق مباشرته لهم، وأن يكون موقعه بعيداً عنهم وقال: «يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث». فقال له: «أظنك سمعت لي منهم أذى؟» قال: نعم يا رسول الله. وتصور الرسول أن في القوم بقية من حياء تجعلهم لا يسبونه، فقال لعلي: لما رأوني لم يقولوا من ذلك شيئاً.. ثم دنا من حصونهم فقال لهم: يا إخوان القردة والخنازير، هل أخزاكم الله بكم وأنزل بكم نقمته؟ فقالوا: يا أبا القاسم ما كنت جهولاً.

أو هكذا الطبع الملتوي والخلق النهار خلال ساعات أصبح ﷺ غير جهول؟ وما كان للمسلمين أن يقعوا في هذه البلاهة اليهودية. فشدوا الحصار عليهم، ولما لم يكن المسلمون يحملون في كل أهدافهم روح العدوان ولا التعصب. وكتب عليهم القتال وهو كره لهم. لأنهم لا يحبون إراقة الدماء ولا يرونها وسيلة لنشر

دعوة ولا منهج قناعة وإيمان. فقد اكتفوا بحصارهم لليهود في قريظـة طوال خمس وعشرين ليلة. جبن فيها كل يهود بني قريظة أن يطلوا بوجوههم وأن يبرزوا للقتال. ولما تأكد لهم أن حصونهم لن تغني عنهم شيئاً. انبرى «كعب بن أسد» في محاولـة يائسة يريد بها أن يشفي مركيده للإسلام وأن يعوض بها خيبة اليهود جميعاً في معركة الأحزاب. فوقف يقول وبجانب المتآمر الأكبر اليهـودي حيي ابـن أخطـب العقـل المخطط لكل مؤامرة: الأحزاب والجهد الكبير وراء كل الأموال المبذولة وكان عقب فشل الأحزاب قد توجه إلى بني قريظة بناء على وعد كان قد قطعه على نفسه لكعب بن أسد. قال كعب: يا معشر اليهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون وأني عارض عليكم خلالا ثلاثا فخذوا أيها شئتم فقالوا: وما هي؟

قال: نتابع هذا الرجل ونصدقه، فوالله لقد تبين لكم أنه نبي مرسل ـ كان قد حدثهم بذلك كثير من أحبارهم الذين أسلموا كمخيريق وغيره ـ وأنه الذي تجدونه في كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدل به غيره.

قال: فإذا أبيتم على هذه فهلم فلنقتل أبناءنـا ونساءنـا. ثم نخـرج إلى محمـد وأصحابه رجالاً ومعنا السيوف لم نترك وراءنا ثقلاً، حتى يحكم الله بيننا وبين محمد فإن نهلك لم نترك وراءنا فلا نخشى عليه. وأن نظهـر فلعمـري لنتخـذن النسـاء والأبناء.

قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟

قال: فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة سبت وإنه عسى أن يكون محمد [ﷺ] وأصحابه قد آتونا فيها فأنزلوا لعلنا نصيب منهم غزة قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يكن أحداث فيه من كل قبلنا.

قال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أمة ليلة من الدهر حازماً.

ونستطيع هنا أن نرى العناد اليهودي والاصرار الشنيع على الكفر. فإن الرجل اليهودي كعب أمام الحصار الإسلامي لم يسعه أن يعترف لهم بالحقيقة، وهي أن يعترف اليهود ويقروا بأن محمداً هو النبي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة، ولو كانوا قالوها فإنهم سيصبحون والمسلمين سواء. ولم يكن النبي وأصحابه يطلبون منهم أكثر من هذا، لكنه الكفر والعناد.

ثم لما أصروا على كفرهم وعرض الرجل اليهودي في محاولة انتحارية منه أن يقدموا على عمل يؤكدون به إيمانهم بما يدعونه ويبررون كفرهم بمحمد، وذلك بأن يقتلوا أبناءهم ونساءهم ويبرزوا للقتال، رفضوا وهم الذي كانوا بالأمس في حمى جيش مكة يودون أن يركبوا الموجة وينتقموا لأنفسهم بحرب المسلمين. وهم أحرص الناس على الحياة.

ولما طلب منهم أن يشنوا حرب خيانة بأسلوب مباغت ومفاجيء ليلة يؤمنهم فيها المسلمون. ادعوا أنه لا قبل لهم بعمل كهذا خشية ان يحدث لهم ما حدث لمن حاربوا يوم السبت الماضي.

وأخيراً بعد أن طال الحصار عليهم أرسلوا إلى الرسول ﷺ يطلبون أن يرسلوا إليه رجلاً يطمئنون إليه كثيراً، نظراً لعلاقات ود ومحالفات قديمة بينهم وبين قبيلته، وعينوا الرجل بأنه(أبو لبابة الأنصاري) ليستشيروه. واستجاب المصطفى لطلبهم. فلم يكن يريد رسول الله أن يشن الحرب أو يأمر بالقتال. إذا أمكن له أن يحقن دماء المسلمين من اليهود بدون حرب. وحين رأى اليهود أبا لبابة قام إليه الرجال يرجون ويستعطفون، وأجهش النساء والصبيان أمامه يبكون ويندبون وقال كعب بن أسد يرجو ويتوسل: يا أبا لبابة، قد عرفت ما بيننا وقد اشتد علينا الحصار، ومحمد (عليه السلام) لن يفارق حصوننا حتى ننزل على حكمه فماذا ترى؟ أنسلم وننزل على حكمه؟ قال أبو لبابة: نعم. وبدرت منه اشارة بيده إلى حلقه، أفصح بها عما يتصوره عن نهايتهم، وهو الذبح ولم يكن الرسول قد

امر بالقتال بعد ولا كلفه بأداء مثل الإشارة، وأدرك الرجل أنه حين أشار إلى حلقه بيده كأنه ينبههم إلى أن الأمر الذي ينتظرهم من الرسولﷺ هو الذبح، وأنه بذلك يعتبر خائناً لإيمانه وإسلامه وللرسولﷺ، فضلاً عن أن مثل هذا الموقف منه قد يشجعهم على عدم الانقياد لحكم الرسول، ويلجئهم إلى أمر لم يكونوا يفكرون فيه. وحين عاد إلى معسكر المسلمين وقص خبر اللقاء بينه وبين يهود قريظة لم يقدر أحد أن يواجه الرسول، وشعر بذنب كبير ومضى هائماً ثم دخل المسجد وقيد نفسه في سلسلة من حديد، وربط نفسه في سارية المسجد وأقسم أن لا يفك نفسه منها حتى يتوب الله عليه، وعاهد الله أن لا يطأ أرض بني قريظة مرة ثانية ولا يدخل بلداً خان فيها الله ورسوله.

وعلم رسول اللهﷺ بقصة أبي لبابة، وبأنه فيما وقع فيه كان غير مقصود به إضرار المسلمين وتشجيع عدوهم عليهم وقالﷺ: أما لو جاءني لاستغفرت الله له. أما وقد فعل ما فعل فما أنا بالذي يطلقه حتى يتوب الله عليه. ولما كان الرجل صادق الإيمان فقد تاب الله تعالى ونزل الوحي يسجل للصادقين تقبل الله لصادق توبتهم: ففي الآية رقم ١٠٢ من سورة التوبة يقول رب العزة:

﴿ وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَـٰلِحاً وَءَاخَرَ سَيِّئاً عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

ولما جاء الناس ليزفوا إليه بشرى توبة الله عليه وقبول توبته. أبى أن يفكه أحد من القيد الذي قيد فيه نفسه إلا رسول اللهﷺ، وفكه المصطفى عليه السلام في صلاة الصبح.

أما عما حدث لنا قضي العهد، يهود بني قريظة الذين لم يجرؤا على الحرب وهم أهل العدوان والبغي ولم ينزلوا عن كفرهم، فقد استدروا عطف الأوس وطلبوا من الرسول أن يوفدوا إلى الأوس وفداً منهم لكي تتدخل الأوس في معالجة الموقف. وكان الهدف اليهودي ان يقوم الأوس بنفس الدور الذي قام به الخزرج حين وقف

رأس النفاق عبد الله بن أبي سلول بجانب حلفائه اليهود من بني قينقاع، حتى أتيح لهم أن ينجوا من القتل بعد أن وافق رسول الله عليه السلام على جلائهم عن المدينة وبالفعل مشى رجال من الأوس إلى رسول الله وكلموه في أن يفك حصاره ليهود بني قريظة، ويغفر لهم جنايتهم في حق المسلمين وأن يطلق سراحهم.

لكن الأمر مع بني قريظة لم يكن باليسير مثلما كان مع بني قينقاع، وكان على الرسول أن يخرج من الاستجابة بهذا الرجاء بشكل يحقق أهدافه في حصاره لبني قريظة واقتلاع شوكتهم فقال ﷺ: ألا ترضون أن أجعل بيني وبين حلفائكم رجلاً منكم؟! واختار الرسول رجلاً تعرف عن كثب بتفاصيل التآمر اليهودي وحاول علاجه دون جدوى وهو «سعد بن معاذ» الذي اختاره يهود بني قريظة أيضاً، على أمل منهم أن الحلف الذي كان بينهم وبينه في الجاهلية قبل إسلامه. سينفعهم ويشفع لهم، فيعمل على تخفيف حكم الرسول عليهم، ونسى يهود بني قريظة أن سعد بن معاذ ما كان له أن ينسى نصيحته لهم بعدم الاستمرار في موقف الغدر يوم الأحزاب، فأساؤوا إليه وإلى النبي.

وها هو «سعد بن معاذ» وجرح معركة الأحزاب لا يزال يدمي في جسده أثر معركة فدائية محدودة قام بها لضرب حركة تحفز العدوان حين قام بها بعض فرسان قريش. ها هو سعد وصدى صوته وهو يقول «اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئاً فابقني لها، فأنه لا قوم أحب لي أن أجاهدهم من قوم آذوا الله ورسوله وكذبوه وأخرجوه، وان كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها شهادة لي. ولا تمتني حتى تقر عيني من بني قريظة» لا يزال يرن في أعماقه يؤكد له شعور المرارة الذي أحسه من لؤم وغدر بني قريظة يوم نقضوا عهودهم مع المسلمين في ساعة العسرة واتفق الطرفان: بنو قريظة، والأوس بحكم رسول الله في أن يحكم بين بني قريظة بما يرضي الله ورسوله، سعد بن معاذ.

وهنا وقف سعد بن معاذ وسط قيادات بني قريظة وقال لهم: أترضون حكمي؟

قالوا: نعم. قال: أتعطوني العهد على ذلك؟ قالوا: نعم نعطيك العهد على الرضا بحكمك.. ومن جوانب العظمة في الإسلام وتربيته الخلقية للمسلمين أن المواجهة التي نظمها سعد بن معاذ بين بعض القيادات اليهودية من بني قريظة حين أخذ عليهم فيها العهد على موافقتهم على حكمه، كان المصطفى على الطرف الآخر يعطي لسعد الذي لم يستطع أن يلتفت إلى رسول الله حياء وإجلالا العهد على الموافقة بحكم سعد بينه وبين يهود بني قريظة.

وفي هذا المشهد المهيب والذي تقررت فيه الشورى في الإسلام حتى في مفاوضات الحرب، نطق سعد بن معاذ الصحابي الجليل رضي الله تعالى عنه بقوله: إني أحكم فيكم أن تقتل الرجال وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء.

وعلق النبي العظيم على هذا الحكم بقوله لسعد: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات».

وما كان لبني قريظة أن يحكموا سعداً أو أن ينزلوا على حكمه، إلا لتثبتهم بل وتيقنهم أنه في الحرب التي نشبت بينهم وبين المسلمين لن تقوم لهم قائمة. وخاصة حين تجهز قائد الفدائية في الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وعبأ جنده وصاح وهم محاصرون بني قريظة: يا كتيبة الإيمان، يا كتيبة الإيمان! وتقدم وراءه الزبير ابن العوام أبطال الصمود الإسلامي في وجه الأحزاب فرسان الحروب، إذا ما غدر بهم عدوهم - وهنا اهتزت أرجاء حصون بني قينقاع وأشباح الموت تخيم على كفرهم لصوت الإيمان الذي صدر من القائد الزبير بن العوام: والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم!

* * *

الرسول يأمر بقتل رؤوس المؤامرة اليهودية:

بعد حكم سعد بن معاذ في المفاوضات التي ارتضاها اليهود من بني قريظة،

وتعهدوا فيها بالموافقة على الحكم الذي يصدره سعد، حبسهم رسول الله ﷺ بالمدينة وخندق خنادق، ثم ساقهم مجموعة بعد الأخرى ليضرب أعناقهم باعتبارهم ناقضي عهد وخائني مواطنة مشتركة، وكافرين بالدين الصحيح، وكانوا في أغلب التقديرات ما بين ستمائة إلى سبعمائة وحين كانوا يخرج بهم من الأسر ليرسلوا إرسالاً إلى حيث تضرب أعناقهم يقولون لكعب بن أسد: يا كعب ما تراه يصنع بنا؟ قال: أفي كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعي لا ينزع وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل!

ثم أحضر رسول الله الرأس المخطط للمؤامرة عدو الله «حيي بن أخطب» وقد ارتدى حلة حريرية تميل إلى اللون الأحمر، قد مزقها حيي وشقها شقوقاً حتى لا يستفيد بهذه الحلة أحد بعد قتله. ورغم النهاية الطبيعية لمخطط ومدبر العدوان فإنه أبى إلا أن يكون آخر كلماته في الحياة كفراً وجحوداً ونكراناً، فما أن أحضر أمام رسول الله حتى قال: أما والله ما لمت نفسي في عدواتك ولكن من يخذل الله يخذل، ثم أقبل على الناس: إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر وملحمة كتبها الله على بني إسرائيل! ثم جلس فضربت عنقه وفيه قال جبل بن جوال الثعلبي:

لعمرك ما لام ابن أخطب نفسه ... ولكن من يخذل الله يخذل
لجاهد حتى أبلغ النفس عذرها ... وقلقل يبغي العز كل مقلقل

هذا ولم يقتل رسول الله من نساء بني قريظة إلا امرأة واحدة، ألقت الرحى على «خلاد بن سويد» فقتلته، ويبدو من سيرتها أنها كانت عدوانية إلى حد الاستهتار بكل ما يمكن أن يترتب على عدوانها، حتى ولو كان حياتها.

يقول ابن اسحق: وقد حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: لم يقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة. قالت: والله إنها لعندي تحدث معي وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق إذ هتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله قالت: قلت لها: ويلك ما

ملك؟ قالت: أقتل. قلت: ولم؟ قالت لحدث أحدثته - وهو إلقاء الرحى على خلاد. قالت: فانطلق بها فضربت عنقها. فكانت عائشة تقول: فوالله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنها تقتل.

وكان على المسلمين بعد أن تخلصوا من أخطار التجمع اليهودي لبني قريظة في المدينة أن لا يتركوا رؤوس الكفر دون أن تنال عقاباً وإلا تعرض المسلمون بعده لأخطارهم مرة ثانية.

وبالفعل فإن رسول الله ﷺ قد طلب من المسلمين أن يتعقبوا رؤوس الكفر من اليهود، وأن يبدأوا بعد قتل «حيي بن أخطب»، بقتل «أبي رافع سلام بن أبي الحقيق» وهذا الرجل اشتهر بقدرته الفائقة على دفع المال لكل القوى التي كانت تتعاون لحرب الرسول، فضلاً عن أنه من كبار الزعماء الذين يسمع لهم ويطاع.

ولم يكن قتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق بالأمر الهين، فقد كان قد احتمى بالتجمع اليهودي في خيبر، لكن تقدير المسلمين لأخطاره عليهم كان يلح عليهم بضرورة قتله في أعقاب تصفية قوات بني قريظة، وعن تسابق المجموعات الإسلامية لأن تتولى مسؤولية قتل ابن أبي الحقيق رغم وجوده في «خيبر» على مسافة بعيدة من الجيش الإسلامي في المدينة.

يقول ابن اسحق فيما يرويه ابن هشام في سيرته: ولما انقضى شأن الخندق وأمر بني قريظة، وكان سلام بن أبي الحقيق وهو أبو رافع فيمن حزب الأحزاب على رسول الله ﷺ، وكانت الأوس قبل غزوة الأحزاب قد قتلت «كعب بن الأشرف» في عداوته لرسول الله ﷺ وتحريضه عليه، استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتل سلام بن أبي الحقيق وهو بخيبر فأذن لهم.

يقول ابن اسحق: وحدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عبد الله بن كعب بن مالك قال: وكان مما صنع الله بالرسول ﷺ أن هذين الحيين من

الأنصار: الأوس والخزرج كانا يتصاولان مع رسول الله تصاول الفحلين، لا تصنع الأوس شيئاً عن رسول الله ﷺ غناء إلا قالت الخزرج: والله لا تذهبون بهذه فضلاً علينا عند رسول الله ﷺ وفي الإسلام. قال: فلا ينتهون حتى يدفعوا مثلها، وإذا فعلت الخزرج شيئاً قالت: الأوس مثل ذلك، ولما أصابت الأوس «كعب بن الأشرف» في عدوانه لرسول الله ﷺ قالت الخزرج والله لا تذهبون بها فضلاً علينا أبداً. قال: فتذكروا، من رجل لرسول الله ﷺ في العداوة كابن الأشرف؟ فذكروا ابن أبي الحقيق وهو بخيبر، فاستأذنوا رسول الله عليه السلام في قتله فأذن لهم.

فخرج إليه من الخزرج من بني مسلمة خمسة نفر: عبد الله بن عقيل ومسعود بن سنان وعبد الله بن أنيس وأبو قتادة الحارث بن ربعي وخزاعي ابن أسود حليف لهم من أسلم، فخرجوا وأمر عليهم رسول الله ﷺ عبد الله بن عقيل، ونهاهم عن أن يقتلوا وليداً أو امرأة فخرجوا حتى إذا قدموا خيبر أتوا دار ابن الحقيق ليلاً، فلم يدعوا بيتاً في الدار إلا أغلقوه على أهله، فأسندوا فيها حتى قاموا على بابه، فاستأذنوا عليه فخرجت امرأته فقالت: من أنتم؟ قالوا: أناس من العرب نلتمس الميرة: قالت: ذاكم صاحبكم فأدخلوا عليه. فلما دخلوا عليه أغلقوا عليهم وعليها الحجرة تخوفاً أن تكون دونه محاولة تحول بيننا وبينه قالت فصاحبت امرأته، فنوهت بنا وابتدرناه وهو على فراشه بأسيافنا، فوالله ما يدلنا عليه في سواد الليل إلا بياضه كأنه قبطية من الثياب الأبيض ملقاة قال: ولما صاحت بنا امرأته جعل الرجل منا يرفع عليها سيفه ثم يذكر نهي رسول الله ﷺ فيكف يده ولولا ذلك لانتهينا منها بلين. قال: فلما ضربناه بأسيافنا تحامل عليه عبد الله بن أنيس بسيفه في بطنه حتى أنفذه وهو يقول: قطني قطني: أي حسبي حسبي! قال: وخرجنا وكان عبد الله بن عتيك رجلاً سيىء البصر قال: فوقع من الدرجة فوثئت يده وثئاً شديداً، وحملناه حتى نأتي به منهمراً من عيونهم فندخل فيه قال: فأوقدوا النيران واشتدوا في كل وجه يطلبوننا، قال حتى إذا يئسوا رجعوا إلى صاحبهم فاكتفوه وهو يقضي بينهم.

قال كعب: كيف لنا بأن نعلم بأن عدو الله قد مات؟ قال رجل منا: أنا أذهب فأنظر لكم فانطلق حتى دخل في الناس قال: فوجدت امرأته ورجال يهود حوله وفي يدها المصباح تنظر في وجهه وتحدثهم وتقول: أما والله لقد سمعت صوت ابن عتيك، ثم أكذبت نفسي وقلت أين ابن عتيك من هذه البلاد؟ ثم أقبلت عليه تنظر في وجهه ثم قالت: مات وإله يهود! فما سمعت من كلمة كانت ألذ إلى نفسي منها! قال: ثم جاءنا الخبر فاحتملنا صاحبنا، فقدمنا على رسول الله ﷺ فأخبرناه بقتل عدو الله واختلفنا عنده في قتله، كلنا يدعيه قال: فقال رسول الله ﷺ: هاتوا أسيافكم. قال: فجئنا بها فنظر إليها فقال لسيف عبد الله بن أنيس: هذا قتله أرى فيه أثر الطعام.

وبقتل هذا الرأس المدبر والمنفق على عمليات التجميع العدواني والمتآمر على رسول الله وأصحابه، فإن عناصر المقاومة اليهودية للإسلام كانت تختفي من على مسرح الدعوة الإسلامية، ويصبح المناخ مهيئاً ليقبل الناس على الدعوة دون مقاومة من أعداء الدين الصحيح والوحي الإلهي.

وكان أمام المسلمين ضرورة المتابعة لرؤوس الكفر وسد أبواب التآمر ضدهم، حتى لا يتعرض المسلمون لقلاقل يهودية من جديد، وخاصة بعد أن ترامى إليهم أنباء «أسير بن رزام» الذي نصبه اليهود عليهم في خيبر بعد مقتل أبي رافع سلام بن أبي الحقيق بأن الرجل يعقد اتفاقيات ويبرم عقوداً يجمع بها الشمل المبعثر بعد الأحزاب.

ولما جاءت معلومات للرسول تفيد بأن الرجل «أسير بن رزام» يوقظ الفتنة التي تكاد أن تنام وأن رأس الأفعى تطل من جديد، وذلك حين ذهب «أسير بن رزام» إلى غطفان وغيرها من القبائل، لكي يشجعهم على حرب رسول الله ﷺ بطريقة تخالف أسلوب المراحل السابقة، فقد وقف يقول: والله ما سار محمد ﷺ إلى أحد من اليهود، ولا بعث أحداً من أصحابه إلا أصاب منهم ما أراد، ولكني سأصنع معه ما

لم يصنع غيري. فقالوا له: وما عسيت أن تصنع؟ قال: سأجمع غطفان وغيرها من القبائل ونسير إليه في عقر داره، فإنه لم يغفر أحد في عقر داره إلا أدرك منه عدوه بعض ما يريد. فقالوا له: نعم ما رأيت!

ومن هنا فقد أراد الرسول ﷺ أن يتأكد من صدق هذه التحريات فأرسل في رمضان من السنة السادسة للهجرة عبد الله بن رواحة على رأس ثلاثة من المسلمين إلى خيبر، ليعرفوا له أخبار « أسير بن رزام» فلما وصل عبد الله بن رواحة إلى ناحية خيبر دخل في حوائطها، دون أن يفطن إليه أحد، وفرق زملاءه الثلاثة على الحصون، وأخذ الجميع ينتظرون أخبار « أسير بن رزام» ومن حوله من القيادات، التي تجهز للتآمر وللعدوان، وقد مكث عبد الله بن رواحة ومن معه في خيبر لمدة ثلاثة أيام.

ولما عادوا إلى المدينة حدثوا رسول الله ﷺ بما رأوا وسمعوا وقالوا له: تركنا « أسير بن رزام» يجهز الكتائب لغزونا. فعندئذ رأى النبي ﷺ بحسن سياسته ومهارته في قيادة مثل هذه الأخطار أن يرسل إلى « أسير بن رزام» من يدعوه إلى القدوم إلى المدينة لمفاوضته فيما يريد، وندب لتلك المهمة ثلاثين رجلاً برئاسة « عبد الله بن رواحة» فوصلوا إلى خيبر من السنة السادسة.

فلما دخلوا على « أسير بن رزام» قالوا له: نحن آمنون حتى نعرض عليك ما جئنا له؟ قال: نعم، ولي منكم مثل ذلك؟ قالوا: نعم، ثم قالوا له: إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك ليستعملك على « خيبر» ويحسن إليك فطمع في ذلك واعتبرها فرصة ليوسع أطماعه ويجمع من حوله القبائل. ثم ينقض بعد ذلك على رسول الله وأصحابه فاستشار بعض أصحابه من اليهود فخالفوه في أن يتوجه إلى المدينة لمقابلة رسول الله ﷺ.

لكنه خرج من خيبر ومعه ثلاثون رجلاً من اليهود لحراسته وخرج معه المسلمون ولما كان بالطريق وهو لا يزال على مقربة من خيبر في مكان يقال له « القرقرة» على بعد ستة أميال من خيبر، عاود تفكيره في موضوع توجهه إلى المدينة ومخالفته لرأي

الجماعة اليهودية في خيبر، وندم « أسير» لخروجه وقرر التخلص من المسلمين بالغدر. إلا أن عبد الله بن أنيس وهو الفدائي الفذ الذي تحامل بقوة على ابن أبي الحقيق وقتله فطن لروح الغدر عند « أسير بن رزام» في الطريق، وحين استل « أسير» سيفه ليغدر بالمسلمين، اندفع نحوه « الصحابي الجليل» عبد الله بن أنيس بالسيف قائلاً: أغدر يا عدو الله! ثم ضربه بالسيف ضربة قطع بها رجله ولم يصب عبد الله بن أنيس إلا بضربة من آلة خشبية ضربه بها « أسير بن رزام» ثم مال كل رجل من المسلمين على صاحبه اليهودي فقتله، إلا رجلاً واحداً أفلت على رجليه ولم يصب من المسلمين أحد ثم قدموا على النبي ﷺ فحدثوه بما جرى لهم مع « أسير» ورجاله فقال ﷺ: قد نجاكم الله من القوم الظالمين!

وهكذا تمكن المسلمون بقتل « أسير بن رزام» من أن يتخلصوا من أخطر يهودي يتآمر بعد رؤوس بني قريظة، عجل بنهايته كنتيجة لروح الغدر التي ينطوي عليها والتي أراد بها أن يقضي على وفد رسول الله ﷺ.

* * *

الإعداد السياسي لضرب التجمع اليهودي في خيبر:

بعد معارك الرسول ﷺ مع اليهود في بني النضير، ومع يهود بني قينقاع وقتله ليهود بني قريظة إثر كل ما فعلوه ضد الإسلام والمسلمين كان من المنطقي جداً أن يتعقل يهود خيبر وأن لا يستسلموا لمروجي البغي ويتطاولوا على المسلمين بالتجهيز لحربهم.

ومن هنا كان النبي ﷺ حريصاً على أن يجعل من معركته في خيبر خاتمة الصراع مع الباطل واقتلاع جذور البلاء، حتى يتيسر للمسلمين التفرغ لتبليغ رسالة الله إلى الناس، فأجل الرسول خوض المعركة ضد عدوان خيبر وخرج رسول الله ﷺ متوجهاً إلى مكة معتمراً، ولم يكن يريد حرب قريش بل لعله أرادها فرصة وهو يعتمر

أن يعقد هدنة مع قريش، لعلها لا تفكر في شن حرب ضده، وخاصة أن تقدير لرسول لحرب خيبر يقتضي تعبئة عسكرية كبيرة، وذلك لمناعة حصون خيبر عن المدينة، الأمر الذي يمكن فيه لقوة مغامرة تود الانتقام من رسول الله أن تنقض على المدينة في غياب المسلمين عنها.

يقول ابن اسحق: حدثني محمد بن مسلم بن شهاب الزهري عن عروة بن الزبير عن مسور بن مخرمة، مروان بن الحكم أنهما حدثاه قالا: خرج رسول الله ﷺ عام الحديبية، يريد زيارة البيت لا يريد قتالاً وساق معه الهدى سبعين بدنة وكان الناس سبعمائة رجل فكانت كل بدنة عن عشرة نفر.

وحين كان رسول الله ﷺ بمنطقة عسفان، وهي قريبة من مكة على مرحلتين، علم بتعبئة قريش واستعدادها للقتال حين لبسوا جلود النمور ونزلوا بذي «طوى» قرب مكة، يعاهدون أنفسهم أن لا يدخل عليهم محمد أبداً، لكن الرسول تعجل علاج الموقف حين أرسل «خراش بن أمية الخزاعي» وحمله على بعير يقال له «الثعلبة» ليبلغ أشراف مكة مقصد الرسول، لكن قريشاً عقرت الجمل وكادت أن تقتل خراش، لولا أن الأحابيش قد حموه من القتل. وحين تعقد الموقف ابتدأت قريش ترسل رسلاً عنها إلى رسول الله حتى رد عليهم برجل له منعة وسيادة في قريش، وهو الصحابي الجليل: «عثمان بن عفان» الذي كلفه الرسول بأن يقنع سادة قريش بأنه ما جاء محارباً، بل معتمراً، وحين احتبست قريش عثمان بن عفان بعض الوقت، وأشيع أنه قد قتل، بايع رسول الله الناس على القتال، وعبأ الرسول أصحابه تعبئة نفسية وإيجابية مذهلة، حين وقف رسول الله ﷺ يبايع بنفسه لعثمان، ويضرب إحدى يديه على الأخرى.

لكن أخبار قتل عثمان لم تكن صحيحة، وعرف المسلمون الحقيقة، وأرسلت قريش سهيل بن عمرو أخا بني عامر لؤى إلى رسول الله ﷺ، وقالوا له: ائت محمداً فصالحه. فلما رآه الرسول مقبلاً قال: قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل.

فلما انتهى سهيل بن عمرو إلى رسول الله ﷺ. جرى بينهما توقيع الصلح المعروف بصلح « الحديبية» وهو الذي اتفق فيه بين الرسول وقريش بوضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض.

ولما كان من بين بنود الاتفاق ما لم يرض بعض أصحاب رسول الله ﷺ ، مثل البند الذي ينص على أن من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده إليهم ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه عالج الرسول الموقف بحكمة.

لكن حكمة الرسول وتقديره للموقف الذي هو بصدده ، ونيته في أن تكون الحرب أولا بين قوى الرفض الطبيعية لهذا الدين السمح الكريم ، هي التي جعلته يفضل قبول كل ما جاء في صلح الحديبية فتحاً ونصراً حين تنزل الذكر الحكيم في الطريق ما بين مكة الى المدينة :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً ، لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطاً مُّسْتَقِيماً ﴾. سورة الفتح الآية ١ ـ ٢.

واعتبر القرآن الكريم موقف الرسول في الحديبية عهداً وعقداً مع الله تعالى فقال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ﴾ .

سورة الفتح الآية ١٠

ثم يقول الذكر الحكيم:

﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً، وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً، وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَـٰذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطاً مُّسْتَقِيماً، وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً، وَلَوْ قَـٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَـٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيراً، سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلاً، وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً، هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفاً أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ، مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ فَأَنـزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُـولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً، لَّقَدْ

صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحاً قَرِيباً ﴾.

سورة الفتح الآيات ١٨ ـ ٢٧ .

وعاد الرسول ﷺ بعد كل هذه البشارات الإلهية إلى المدينة وقبل أن تتحلل قريش من عهدها في صلح الحديبية، وقبل أن تفسر بعض القوى صلح الحديبية بأنه تراجع من المسلمين فيطمعوا في شن عدوان عليهم. جهز رسول الله ﷺ جيشه للتوجه إلى خيبر فكيف كان ذلك؟!!

* * *

الرسول يضرب التآمر اليهودي في خيبر:

أكثر كتاب السيرة أجمعوا على أن رسول الله ﷺ توجه لحرب يهود خيبر في المحرم من السنة السابعة للهجرة، وبعد عودته من صلح «الحديبية» بفترة وجيزة جداً فابن اسحق يقول: أقام رسول الله بالمدينة حين رجع من الحديبية ذا الحجة وبعض المحرم، ثم خرج إلى خيبر في بقية المحرم، وهذه لا شك مهارة عظيمة في سرعة الحركة ومباغتة العدو، وأراد بها الرسول أن يحكم المسلمون حصارهم لعدمهم، وأن يقاتلوه ولا يمكنوه من تهديدهم مرة ثانية. وحين خرج رسول الله إلى خيبر استعمل على المدينة صحابياً جليلاً يتصف بالمهارة والحذر هو «نميلة بن عبد الله الليثي» ثم أعطى الراية لعلي بن أبي طالب، وقاد المصطفى بنفسه جيشاً قوامه أكثر من ألف وستمائة مقاتل من خيرة أصحابه رضوان الله عليهم جميعاً. وحين انطلق الجيش

الإسلامي يقطع المسافة الطويلة إلى خيبر طلب الرسول من «عامر بن الأكوع» أن يرفع عقيرته بشعر أو نداء أو هتاف أو حداء قائلاً له: إنزل يا بن الأكوع فخذ لنا من هناتك، فنزل الرجل إلى قلب الجيش يرتجز:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
إنا إذا قوم بغوا علينا وان أرادوا فتنة أبينا
فانزلن سكينة علينا وثبت الاقدام إن لاقينا

* * *

وسعد الرسول بهذا الرجز وقال لابن الأكوع: يرحمك الله! فعلق عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: وجبت والله يا رسول الله.

وحين التف المسلمون حول حصون خيبر وقف سيد ولد آدم عليه السلام يقول لأصحابه: قفوا. ثم قال: اللهم رب السموات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا باسم الله. وكانﷺ يجأر إلى ربه بهذا الدعاء في كل لقاءاته لأعداء الله.

* * *

الإحتماء اليهودي بالحصون:

حين دخل المسلمون مناطق التجمع اليودي في خيبر، كان الليل قد دخل عليهم وكان من عادة قائدهمﷺ أنه إذا غزا قوماً لم يغر عليهم حتى يصبح فإن سمع آذاناً أمسك، وإن لم يسمع آذاناً أغار. ولما بات المسلمون ليلتهم يضربون نطاقاً من الحصار حول حصون خيبر، وفي الصباح لم يسمعوا آذاناً تحركوا نحو الحصون وفي الطريق إليها كان عمال خيبر غادين لأعمالهم مبكراً وفي أيديهم أدوات أعمالهم اليومية

فلما فوجئوا بعمليات التطويق الإسلامي للحصون أدبروا هروباً، فانطلقت من رسول الله عليه السلام صيحة البشرى بالنصر: الله أكبر. الله أكبر!.. خربت خيبر!.. إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين!..

وقبل بدء المعارك مع خيبر كان رسو ل الله عليه السلام قد أعد لهذه الحرب خطة محكمة دقيقة، والتزم بتطبيقها حتى لا يتعرض المسلمون للأخطار. فحين خرج من المدينة سلك طريقاً يقال له (عصر) وهو مسلك جبلي بين المدينة ووادي (افرع) واتخذ في (عصر) مسجداً ثم عسكر في منطقة «الصهباء» على مقربة زمنية في السير نحو خيبر، ثم شق طريقه نحو وادي «الرجيع» القريب من مواقع «غطفان» ليقطع الطريق على غطفان، إذا ما فكرت في نجدة «خيبر» وبالفعل فإن تقدير الرسول ﷺ كان دقيقاً فإن غطفان التي ظاهرت «خيبر» على رسول الله، تحركت نحو خيبر حتى أدركت المخاطر التي في الطريق، فضلاً عن أنهم لم يأمنوا على أموالهم وأهليهم وراءهم، فعادوا أدراجهم إلى مواقعهم وأصبح الجو مهيأ للرسول ليبدأ أعماله ضد يهود خيبر «المتآمرين» ناكثي العهد وناقضي الإيمان.

ولما كان اليهود في خيبر قد قسموا تجمعهم في خيبر إلى مناطق ثلاث تتألف كل منطقة من جملة حصون، فكانت المناطق هي: الشق، والنطاة، والكتيبة.

واتخذت جميعها على مرتفعات من الأرض ليمكن منها الدفاع ضد الغارات المفاجئة، فضلاً عن رصد المنطقة كلها من على مسافات شاسعة وكان بعض هذه الحصون يحتوي على كميات وفيرة من المياه، ويخزنون فيها غلالهم ويحفظون أموالهم وسهامهم ورماحهم ونبلهم. وبالقطع فإنه بعد معارك الرسول ﷺ في المدينة مع بني قينقاع والنضير وقريظة زاد اليهود في خيبر من تحصينهم وتقويتهم لهذه الحصون.

ومن هنا كان الرسول مدركاً لطبيعة الحرب التي ستكون مع يهود خيبر، ولذلك أعد كما أسلفنا قوات عديدة واحتاط احتياطات شديدة، وحين أقبل متوجهاً نحو الحصون مباشرة ولقيه عمال الزراعة اليهود فزعين مهرولين صائحين في ذعر:

محمد والجيش! : استغل الرسول الموقف ووجه دعوته بالإيمان أو الاستسلام ليهود حصن (النطاة) لكنهم لم يجيبوه ثقة في مناعة موقفهم ، وهنا تدخل الحباب بن المنذر رضي الله تعالى عنه ، وحتى لا تضيع على المسلمين فرصة مباغتتهم لعدوهم وقال لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ، إن أهل النطاة لي بهم معرفة ليس قوم أبعد مدى منهم ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وذلك أسرع لانحطاط نبلهم علينا ،فالرأي عندي أن نتحول إلى موقع آخر، واتخذ النبي بالفعل موضعاً آخر يشرف على منطقة حصون النطاة ، وكان هذا الموقع في منطقة بين مسرح خيبر كلها ومناطق تجمع «غطفان» .

وابتدأ اليهود يتخذون أهبتهم استعداداً للقتال وتحت قيادة زعيمهم سلام بن مشكم أدخلوا الأموال والأولاد في حصني السلالم والوطيح ؛ وجمعوا ذخائرهم وتموينهم في حصن «ناعم» واتخذ المقاتلون مواقعهم في حصن «النطاة» وأصبح موقع «النطاة» قلعة مسلحة فيها كل احتياجات المقاتلين .

وبعد أن ذاقوا مر الحصار الشديد الذي ضربه المسلمون حواليهم ، خرجوا يتنقلون من حصن لآخر، فركب المصطفى جواده «الظرب» وفي يده الشريفة القناة والترس يلبس الدرع والمغفر، وشد على اليهود في حملة مستبسلة طوال سبعة أيام اقتتل فيها المسلمون ويهود منطقة «النطاة» اقتتالاً شديداً، وحين كانت تعضهم الحرب يهربون إلى حصونهم للاحتماء بها وصدق رب العزة :

﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ ﴾ .

سورة الحشر الآية ١٤

وأراد الله سبحانه أن ينهي إليهم نذير نهايتهم لعلهم ينتبهون ، لكنهم ظلوا على عدوانهم وبغيهم ، فقد مات أثناء القتال قائدهم : «سلام بن مشكم» وانتقلت القيادة إلى «الحارث بن أبي زينب» الذي أراد أن يعبىء قومه في مقاومة جبارة ضد المسلمين لكنه اندحر بمفاجأة فرسان الخزرج المسلمين ، الذين ضيقوا الخناق على

اليهود في تحركهم داخل منطقة الحصون نفسها، وأوشكوا على احتلال حصن ناعم في منطقة النطاة تحت شعار آخذ غلاب «يا منصور أمت أمت».

وكان للقتال بين الطرفين هدفاً رئيسياً يختلف عند كل فريق فاليهود في خيبر يرون في المعركة آخر خط دفاع يقاتلون فيه دفاعاً عن وجودهم في الجزيرة العربية وإن تغلبوا على محمدﷺ فيها وجيشه فإنهم سيصبحون سادة الجزيرة العربية بلا منازع.

والمسلمون بقيادة نبيهم يرون في معاقل خيبر الخطر الكامن الذي إن سكتوا عنه فإنه سيتهددهم في عقر دارهم، فضلاً عن تآمره بالأمس وتعاونه مع القوى العدوانية التي هبت على المسلمين كالأعصار يوم الأحزاب، ثم من الممكن للمسلمين في ظل التضييق السياسي والعسكري على اليهود في خيبر أن يثوبوا إلى رشدهم ويعودوا إلى ما افترضه القرآن الكريم فيهم وهو أنهم يعرفون النبي، كما يعرفون أبناءهم، ومن هنا دارت المعركة عنيفة شرسة استبسل فيها الفريقان وانتهت الجولة الأولى طوال سبعة أيام وكفة المسلمين في منطقة «النطاة» هي الأرجح.

ولما تعرض المصطفىﷺ لوعكة تحول دون قيادته المباشرة للقتال يروي الإمام البخاري عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول اللهﷺ قال يوم خيبر: لأعطين هذه الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. قال: فبات الناس يدركون أي يتحدثون ليلتهم أيهم يعطاها. فلما أصبح الناس غدوا على رسول اللهﷺ كلهم يرجوا أن يعطاها فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يا رسول الله يشتكي في عينيه. قال: فأرسلوا إليه. فأتى به فبصق رسول اللهﷺ في عينيه ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن له وجع. فأعطاه الراية فقال علي: يا رسول الله أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا. فقال عليه الصلاة والسلام: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير من أن يكون لك حمر النعم!

وقام علي بن أبي طالب رضي الله عنه بتعبئة الجيش الإسلامي تعبئة قوامها يقين مطلق بدعوة رسول الله ﷺ لهم بالنصر وبالفتح.

ما أن برز الفريقان حتى دعاهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه ما كلفهم به الرسول القائد، لكنهم ردوا عليه رداً عدوانياً عجيباً حين انطلق من أحد الحصون «مرحب» اليهودي، وقد حمل سهامه ورفع درعه وسيفه يتحدى مرتجزاً ويقول:

قد علمت خيبر أني مرحب شاكي السلاح بطل مجرب

اطعن أحياناً وحيناً أضرب إذا الليوث اقبلت تجرب

ان حماي للحمى لا يقرب يحجم عن صولتي المجرب

* * *

وأمام هذه الروح العدوانية اندفع نحوه بطل الفدائية في الإسلام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وتبارزا ثم جرى بينهما قتال شديد أسفر عن مقتل «مرحب» ولم لا يقتله؟! أليس هو علي الذي أغلق الثغرة التي فتحها بعض فرسان قريش، يوم الأحزاب في الخندق بقيادة عمرو بن عبد بن ود، الذي تصدى له وكل المسلمين حذر مشفق على هذا البطل العظيم ابن عم رسول الله ﷺ؟.

ولما رأى «ياسر» أخو «مرحب» مصرع أخيه اندفع كالصاعقة نحو صفوف المسلمين لكن الزبير بن العوام رغم إشفاق أمه «صفية» كان بدعوة من الرسول ﷺ الصخرة التي تحطمت عليها اندفاعات «ياسر» اليهودي، فلم تمض لحظات حتى قتل الزبير بن العوام «ياسر أخو مرحب».

وتتابعت مجموعات الفريقين تتقاتل ودارت المعركة بقيادة علي عنيفة وشرسة تمكن فيها المسلمون بقيادة علي بن أبي طالب من إسقاط حصن «الناعم» أقوى حصون منطقة (النطاة) بعد معركة ناجحة قام بها المسلمون، قتلوا خلالها قائد حصن «الناعم» «الحارس بن أبي زينب».

وكان على المسلمين بعد إحراز النصر على أقوى الحصون في تجمعات حصون خيبر وهي منطقة «النطاة» أن يواصلو الحرب على باقي الحصون فتوجهوا إلى حصن الصعب بن معاذ.

وكادت أن تنفذ مؤونتهم وأن يصيبهم الإجهاد، لولا يقينهم بالنصر الذي كان رسول الله ﷺ يلح في طلبه من ربه: «اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليست بهم قوة وأن ليس بيدي شيء أعطيهم إياه، فافتح عليهم أعظم حصونها (خيبر) غناء وأكثرها طعاماً وودكا منه».

وحول المعركة التي دارت بني المسلمين وقوات حصن (الصعب بن معاذ) يحدثنا ابن اسحق فيقول: حدثني عبد الله بن الحسن عن بعض أهله عن أبي رافع مولى رسول الله ﷺ قال: خرجنا مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين بعثه رسول الله ﷺ برايته. فلما دنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم فضربه رجل من يهود فطاح ترسه من يده، فتناول علي رضي الله عنه بابا كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يقاتلهم حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ، فلقد رأيتني في نفر سبعة معي أنا ثامنهم نجد أن نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

وبهذه القوة الجبارة فتح الله على المسلمين حصن «الصعب بن معاذ» أكثر حصون خيبر طعاماً.

وحين قرر المسلمون أن يطهروا منطقة «النطاة» كلها من المقاومة اليهودية، توجهوا إلى حصن «الزبير» فتحصن فيه اليهود فترة قرر المسلمون فيها قطع الماء عنهم فخرجوا من الحصن فدارت معركة لصالح المسلمين ثم استسلم الحصن، وبذلك سقطت منطقة النطاة التي تضم أقوى الحصون: ناعم والصعب والزبير.

واستكمالاً لمهمة تحرير الأرض العربية من اليهود بعد دعوتهم إلى الله ورفضهم إياها تم خلع جذور البلاء، وبعد أن يسر الله عليهم بما اغتنموه من اموال وعتاد

منطقة «النطاة» توجه المسلمون إلى منطقة «الشق» وكانت تضم حصون: أبي والنزار وقد سقطت هذه المنطقة أيضاً بعد قتال طويل.

وقاد النبي ﷺ أصحابه إلى منطقة «الكتيبة» آخر معاقل اليهود في خيبر وكانت تضم حصون القموص، والسلالم.

وخطط الرسول عليه السلام لضرب قيادات المقاومة اليهودية التي تدير الحرب في خيبر، فقاموا في منطقة الكتيبة بحصار «حصن القموص» فقد كان الرسول يعرف أنه يعسكر بهذا الحصن آل أبي الحقيق، وهم من أثرياء اليهود الذين أمر رسول الله ﷺ بقتل زعيمهم «أبي رافع بن أبي سلام الحقيقي» أحد رؤوس المؤامرة في نقض بني قريظة لعهدهم مع الرسول وتعاونهم مع الأحزاب.

وأثناء الحصار توجه يهود حصن القموص إلى حصن السلالم والوطيح، ثم جبنوا عن أن يطلوا بوجوههم أو أن يبرزوا للقتال، أثر الحصار الشديد الذي ضربه المسلمون حولهم، فأرسلوا إلى النبي يعرضون عليه «الصلح». ومن مواقع السماحة الإسلامية قبل الرسول ﷺ منهم رجاءهم، واشترط عليهم فقط ألا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً من أموالهم فإن كتموا فلا ذمة لهم ولا عهد.

وبمعارك خيبر سقطت كل معاقل اليهود في أرض العرب، ولم تعد الأخطار اليهودية تمثل عائقاً أمام المسلمين في أن ينشروا دينهم في كل الجزيرة العربية، بل وخارجها كما فعل ﷺ حين بعث برسائل تحرير للشعوب التي حواليه حملتها وفوده الى: فارس والروم تدعو إلى: لا إله إلا الله محمد رسول الله ليستظل بلواء هذه الدعوة جمهور المستضعفين في بلاد فارس والروم.

* * *

أهداف الحرب الإسلامية في خيبر:

الدارس لتاريخ المسلمين في المدينة يرى أمامه جهوداً إسلامية صادقة قد بذلت

من جانب الرسول وأصحابه لكي يسلم اليهود ويؤمنوا بالله الذي أنزل عليهم كتاباً يدعوهم إلى الإيمان بمحمد لكن البغـي والحسـد والعـدوان حال دون الاستجابـة للرسول وللإسلام.

ومع ذلك فإن الرسولﷺ لم يكن ليقبل العـداوة اليهـودية دون أن يقـدم في مواجهتها كل ضروب التسامح، فقد عقد وأعطى وأخذ منهم عقداً أن يقوموا قومة رجل واحد لمن دهم يثرب، وأن لا يضايقوا المسلمين ولا يطاردوهـم ولا يشهـروا بنسائهم ولا يحالفوا أعداءهم.

لكن كل هذا ضاع أدراج الرياح بل وقادوا الحرب ضد رسول الله، وحرضوا عليه القبائل وانفقوا جهوداً مضنية حتى حزبوا الأحزاب وقادوهم لحرب رسول الله وقتاله ولذا فقد لجأ ﷺ إلى سياسة حكيمة يستهدف بها إعطاء اشارة بالبدء في المقاومة، إذا استمروا في عدوانهم على المسلمين بمثل هذه الأساليب الأفعوانية وذلك حين أمر المسلمين بقتل بعض القيادات اليهودية التي تعتبر رؤوس الكفر والمقاومة لعل الكثرة من يهود ترعوى، وتدرك أن الرسول جاد في حماية المسلمين من أخطارهم لكنهم لم يثوبوا إلى رشدهم ولم يعرفوا العقـل الـذي يحتكمـون إليه ليحـد من أطماعهم وعدوانهم وعنصريتهم، ومن هنا كانت حروب: قينقاع، وبني النضير، وقريظة، وأخيراً خيبر.

وإذا ما دققنا النظر في المقدمات التـي لازمـت حركة المسلمـين حـين قدومهم «خيبـر» كذلك إذا ما نظرنـا إلى ما التـزم به المسلمـون بعـد نتائـج خيبـر، نرى أهداف السماحة الإسلامية حتى في الحروب تقترن دائماً بدعوتهم الناس إلى الله رب العالمين.

لقد وقفﷺ على مشارف «خيبر» يقول: اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح ومـا أذرين، فإنـا نسألك خير هذه القرية، وخير أهلها، وخير ما فيهـا، ونعـوذ بك من شرهـا وشر

أهلها وشر ما فيها، اقدموا باسم الله.

هكذا لم يقدم على عدوان ولم يخطط لإبادة ولم يسق جموعاً لمغانم وأطماع، وإنما الأمل والرجاء عند محمد ﷺ من الله: أن يعاونه على خير هذه القرية (خيبر) وخير أهلها ويعيذه من شرها وشر أهلها، وليس أخير لمحمد عليه السلام ولا لأصحابه من إيمان وإسلام خيبر، وليس أشر على محمد ﷺ وعلى أصحابه من كفر وعناد وعدوان خيبر، ومن هنا فإن الهدف الإسلامي في التوجه إلى خيبر كان واضحاً جداً عند قيادات اليهود، التي كانت تملك أن تعلن عن إيمانها بالله ورسوله ليصبحوا هم والمسلمين سواء.

ومع ذلك فإن رسول الله ﷺ بعد أن بات ليلة حول حصونهم وتأكد أنهم لا يؤذنون ولن يقبلوا بالآذان كدليل على قبول الإسلام، وقامت الحرب في أولى مراحلها بقيادة الرسول ﷺ سبعة أيام متواصلة، أوكل إلى علي بن أبي طالب راية الحرب محدداً له هدفاً أساسياً إن تحقق، فلا حرب وتصان دماء المسلمين واليهود سواء بسواء.

وكان هذا الهدف: ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه. فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن تكون لك حمر النعم، وكان الرد على هذه الدعوى الرقيقة الكريمة من القائد اليهودي «مرحب»

«إن حماي للحمى لا يقرب يحجم عن صولتي المجرب»

ولما دارت الحرب وهزم فيها يهود خيبر، وتحطمت قلاع المقاومة وجبن من في حصن الوطيح وحصن السلالم وهم من زعماء اليهود وأغنيائهم عن القتال، وأرسلوا يطلبون صلحاً، مجرد الصلح، لم يستجيبوا للدعوة لكنهم طلبوا السلام ولم يعودوا قادرين على القتال، ولو كانوا يملكون أسبابه ما طلبوا الصلح، ورغم ذلك استجاب الرسول ﷺ لطلب الصلح وأعطاهم العهد والذمة شرط أن: لا يكتموا ولا

يغيبوا شيئاً من اموالهم، ومع ذلك فإنه في مراحل تنفيذ العهد والذمة من جانبهم كتموا وغيبوا وكذبوا وضللوا، وكان من الممكن للرسول وأصحابه أن يغتنموها فرصة ويقتلوهم جميعاً ويأخذوا كل ما كانوا يملكون، لكن الخلق الإسلامي كان غاية في السماحة ونقاء السلوك وهو يتعامل بهدى الدعوة الإسلامية حتى مع اليهود.

ولنسمع كتاب السيرة الإسلامية وهم يقصون علينا صورة من صورة السماحة الإسلامية حين كان المسلمون بقيادة نبيهم ينفذون بنود الصلح مع اليهود: عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه تعالى عنهما أنه قال: «قاتل رسول الله ﷺ أهل خيبر حتى الجأهم إلى قصرهم، فغلب على الأرض والزرع، والنخل، فصالحوه على أن يجلو منها ولهم ما حملت ركابهم ولرسول الله عليه السلام الصفراء والبيضاء ـ الذهب والفضة ـ ويخرجون منها، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يغيبوا شيئاً، فإن فعلوا فلا ذمة لهم ولا عهد، فغيبوا مسكاً ـ أي جلداً ـ فيه مال وحلى ـ كان لحيي بن أخطب احتمله معه إلى خيبر حين أجليت النضير، فقال رسول الله ﷺ لكنانة بن الربيع زوج «صفية بنت حيي بن أخطب» وكان عنده كنز بني النضير ما فعل مسك حيي الذي جاء من بني النضير؟ قال: اذهبته النفقات والحرب: فقال الرسول ﷺ: العهد قريب والمال أكثر من ذلك.

وجاء رجل من اليهود فقال: يا رسول الله، إني رأيت «كنانة» يطيف بهذه القرية كل غداة. فقال رسول الله ﷺ لكنانة بن الربيع: «أرأيت إن وجدناه عندك؟» أأقتلك؟ قال: نعم، فأمر النبي عليه السلام بالخربة فحوصرت فأخرج منها بعض كنزهم، ثم سأله عما بقي فأبى أن يؤديه فأمر النبي عليه السلام بقتله وسبى نساء آل الحقيق وذراريهم وقسمة أموالهم بالنكث الذي نكثوا، فقد كان «كنانة» بن الربيع منهم، وكانوا يعلمون أن الكنز عنده ولكنهم كتموا ذلك.

وبالرغم من كل هذه الروح العدوانية الغادرة حتى وهم في مراحل اندحارهم فإنهم طلبوا أن يظلوا على بعض أرض خيبر ليزرعوها ويعيشوا فيها، فقبل الرسول

رجاءهم على أن يكونوا تحت السيادة الإسلامية وقال لهم: «نقركم فيها على ان تعطوا الشطر من كل زرع وثمر ما شئنا».

وتجلت روح السماحة الإسلامية حين تزوج الرسولﷺ من صفية، بعد أن اضطر لقتل أبيها المتآمر على النبي والمسلمين في غزوة الأحزاب وقتل زوجها ناكث العهد والوعد وخائن المال والذمة «كنانة» ابن الربيع ـ بعد خيبر ـ فحين كانت السبايا في أيدي أصحابها أمر بصفية فحيزت خلفه، وألقى عليها رداء فعرف المسلمون أن رسول الله اصطفاها لنفسه، وأصبحت واحدة من أمهات المؤمنين رغم كل ما تعرض له المسلمون من أبيها وزوجها، ولكنها سماحة الإسلام! ودائماً أبداً تطالعك حتى في الحرب.

يقول ابن اسحق: ولما افتتح رسول اللهﷺ «القموص» حصن ابن أبي الحقيق أتى رسول اللهﷺ بصفية بنت أخطب وبأخرى معها، فمر بها بلال وهو الذي جاء بهما على قتلى من قتلى يهود، فلما رأتهم التي مع صفية صاجت وصكت وجها! وحثت التراب على رأسها فلما رآها رسول اللهﷺ قال: اغربوا عني هذه الشيطانة! وقال رسول اللهﷺ لبلال حين رّأى من تلك اليهودية ما رأى: انزعت منك الرحمة يا بلال حين تمر بأمرأتين على قتلى رجالها؟ ايه ايه يا رسول الله يا قلب الإنسانية الكبير وحاديها إلى الحق والخير والرشاد! ايه ايه يا رسول الله فبرغم كل ما فعل اليهود معك وضدك ترق عواطفك لنفوس الأرامل والثكالى وتلوم صحبك وهم يؤدبون أخوان الشياطين!

أوليست زينب بنت الحارث اليهودي امرأة سلام بن مشكم اليهودي المتآمر عليك يا رسول الله هي التي وضعت في ذراع الشاة المشوية السم وأكثرت منه، ومع ذلك عفوت عنها يا رسول الله، لقد بلغت بالتسامح الإنساني أوج العظمة والكمال حين جعلت من صفية بنت حيي بن أخطب واحدة من آمهات المؤمنين وهي التي يوم بنيت بها يبلغ الحذر عند واحد من صحبك هو: أبو أيوب خالد بن زيد أخو بني

النجار من كثرة ما تآمر اليهود وخادعوا، أن يبيت ليلة متوشحاً سيفه يطوف بقبة خيمتك، مخافة صفية بنت اليهودي وهي حديثة عهد بكفر، وحين استبنت حرص الرجل قلت: اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني وهكذا تجلت بالممارسة والتطبيق روح الحب والعدل والدعوة إلى الإله الواحد الذي لا يشوبه صنم ولا وثن في حرب المسلمين لأعدائهم. فلم تكن حروب عدوان أو إغارة توسع وأطماع، ولكنها كانت حرب تحرير للإنسان من وثنية المعتقد وتحريراً من سيطرة السادة الذي جعلوا من الدين أساطير وطقوس أصنام وتناقضات فكانت دعوة التوحيد الإسلامي لتوحيد الإنسانية وتكاملها ضد كل مخلفات الوثن وزيف المعتقد العنصري.

* * *

الباب الرابع

إجمال تاريخ بني إسرائيل في القرآن الكريم

من هم أبناء إسرائيل في القرآن الكريم

من هو إسرائيل في القرآن

لماذا بشر الله امرأة إبراهيم بولد وحفيد

أبناء الحليم وأبناء العليم

بين حلم الحليم وعلم العليم

أهل الكتاب والأميون

بنو إسرائيل الأول

يوسف النبي ومكانته من بني إسرائيل

الأسباط وحقيقتهم القرآنية

من يوسف إلى موسى عليهما السلام

إجمال تاريخ بني إسرائيل في القرآن الكريم

يقول رب العزة:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ، وَمَا مِنْ غَآئِبَةٍ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ، إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَكْثَرَ ٱلَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، وَإِنَّهُۥ لَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ، وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ، فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ﴾

سورة النمل الآيات ٧٤ ـ ٧٩.

وبهذا التقعيد المحكم والمعجز، أشار رب العزة إلى هذا المنهاج العلمي التاريخي المعجز، الذي يقص بمقتضاه أكثر الذي يختلف فيه بنو إسرائيل أنفسهم لأنه سبحانه هو الأعلم بمكنون صدورهم ثم ليبين رب العزة للإنسانية ألاعيبهم وفجورهم وإفسادهم وفسادهم، وكيف أنعم الله عليهم ففسقوا، وكيف عاهدهم

فنقضوا، وكيف متعهم وكفروا، وكيف منَّ عليهم فجحدوا، وكيف واثقهم فغدروا، وكيف استأمنهم فخانوا، وكيف أمدهم فتمادوا في غيهم، وكيف استهداهم فارتكسوا في ضلالهم وكيف أرسل لهم المصلحين فانتقموا من مصلحيهم، وكيف بعث إليهم المرسلين الأنبياء فاغتالوا من رسلهم وقتلوا من أنبيائهم، وكيف كان كل رسلهم وأنبيائهم يصبون اللعنات عليهم، وكيف لما عقمت رجالهم عن إنجاب رجل يصلح من حالهم بعث رب العزة رسوله ليبشر مريم البتول الطاهرة منهم، بأن الله يكون بكلمته التكوينية (كن) رسولاً من الله إليهم هو المسيح عيسى بن مريم، لعله يهديهم ويأخذ بأيديهم. فلما دعاهم ليهتدوا ثاروا ودبروا له جريمة القتل العمد، مع الترصد وسبق الاصرار، كما دبروا له جريمة الصلب مع الترصد وسبق الاصرار، وأوقعوا من وجهة نظرهم القتل والصلب، وجاهروا وفاخروا بأنهم قتلوا رسول الله، بعد أن اتهموا العذراء البتول مريم في عرضها وشرفها وشهروا بها[1].

كما قال رب العزة في سورة النساء ورقمها في المصحف الآيات: ؟ ١٥٣ ـ ١٥٨ يتحدث رب العزة عنهم لحبيبه رحمة العالمينﷺ يقول سبحانه:

﴿ يَسْئَلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰباً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰناً مُّبِيناً، وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّداً

---

(١) نأتي على ذكر دراسة قرآنية متكاملة فيما خصصه: دكتور «محمد بن فتح الله بدران» عن إجمال تاريخ بني إسرائيل في القرآن الكريم. من كتابه «الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن» الصادر في القاهرة عام ١٩٦٩.

وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً، فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِئَايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰناً عَظِيماً، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً، بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾.

فحقت عليهم لعنة الله «وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباؤا بغضب من الله».

﴿ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً ﴾.

فكان ولا بد أن ينتزع الله الأمانة منهم. وأن يستردوا الرسالة إلى غيرهم الأحق بها والأكرم عليها، والذي تربى في بيت الله وحرم الله.

والذي تربت أمته في كنف الله ورعاية الله، خداماً لبيت الله ومستقبلين لأكرم ضيوف الله في بيت الله، ومعلمين المناسك والمشاعر بحجاج بيت الله، الى خاتم النبيين ورحمة العالمين إلى السراج المنير محمدﷺ. .

* * *

سورة الأحزاب آية ٦١

بنو إسرائيل في القرآن:

لا تكاد سورة في القرآن الكريم تخلو من الحديث صراحة أو إشارة عن بني إسرائيل وفي هذا يلفت القرآن أنظار الإنسانية إلى أن هؤلاء هم مصدر الشر والإفساد في الإنسانية كلها، في طول الأرض وعرضها وفي كل مكان ينزلون وعلى أي وضع يكونون هم شياطين الشياطين وأعدى أعداء الإنسان، وأفحش الخلق على الأديان، فهم شر الدواب، وعنوان الخراب، ونموذج العذاب.

ولعل الذي نستطيع أن نفهم من حكمة الله في الإبقاء عليهم هو أن يستيقظ بتوالي عدوانهم المؤمنون فيستعدوا، وأن تنبه لهم أفهام العاملين فيجدوا، وأن يستبصر المعتبرون بهم فيتمسكوا بدينهم، وأن يعتبر المستبصرون بهم فيرجعوا إلى ربهم، ليرجع اليهم بأسهم الشديد وعزمهم الحديد، وتخطيطهم الرشيد وسلوكهم القوي الأكيد، فيطهروا الأرض من أرجاس اليهود ويجعلوهم لنار الحرب هم الوقود: ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾. سورة البروج الآية ١٢.

وقد لا نستطيع الآن أن نحصر بني إسرائيل في القرآن إلا اذا رجعنا إلى القرآن كل القرآن، فقد كرر لفظ إسرائيل في القرآن مرتين، وكررت عبارة بني إسرائيل إحدى وأربعين مرة.

أما «يعقوب عليه السلام» فكرر ٤١ مرة وآل يعقوب كررت مرتين.

وأما «اسحق» عليه السلام والد يعقوب عليه السلام فكرر (١٧ مرة).

وأما إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام فكرر ٦٩ مرة.

وأما يوسف بن يعقوب عليهما السلام فكرر ٣٧ مرة.

وموسى عليه السلام كرر ١٣٦ مرة منها ٢٧ في مكة و ١٠٩ في المدينة.

وهارون عليه السلام كرر ٢٠ مرة.

وعيسى عليه السلام كرر ٢٥ مرة ومريم ذكرت ٣٤ مرة.

وقد تكرر في القرآن لفظ «أهل الكتاب» ٣١ مرة منها مرة واحدة في مكة و ٣٠

مرة في المدينة، وكرر لفظ اليهود ٩ مرات كلها في المدينة.

وكررت كلمة التوراة ١٨ مرة، منها مرة واحدة في مكة و١٧ مرة في المدينة.

أما الانجيل فكرر ١٢ مرة منها واحدة في مكة.

وكرر لفظ النصارى ١٥ مرة.

هذا غير ما ذكر عن: داود وسليمان، وزكريا، ويحيى عليهم السلام، وغيرهم من أصل بني اسرائيل.

وغير ما تحدث القرآن عنهم مثل: أخوة يوسف والعزيز، وامرأة العزيز، والنسوة والملك، وفرعون، وهامان، و قارون، وملكة سبأ، وامرأة عمران مما يؤرخ لأمم وممالك وأشخاص وحضارات، ويجب أن تفرد له كتب مطولة، والله الموفق.

وسنكتفي الآن بالاشارة إلى بعض اللمحات التي تصلح بعض ما دسه اليهود من إسرائيليات ونستنتج منها العبر لواقعنا الديني والعلمي والعظات، التي تتصل بسلوكنا الفردي والاجتماعي وتصحح لنا بعض الآراء والالتواءات وتأخذ بأيدينا إلى تمام النصر بتوفيق الله ﴿ **وما النصر إلاّ من عند الله** ﴾ (سورة آل عمران الآية ١٢٦) أو (سورة الأنفال الآية ١٠).

* * *

من هو إسرائيل:

إسرائيل هو: «يعقوب بن اسحق بن إبراهيم الخليل عليهم السلام ففي سورة آل عمران ٣، وفي الآيتين ٩٣ - ٩٤ منها يقول رب العزة:

﴿ **كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ، فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ** ﴾.

قال ابن عباس فيما رواه الترمذي، وسار عليه المفسرون وبخاصة الطبري والقرطبي:

لما أصاب يعقوب عليه السلام عرق النسا، وصف له الأطباء أن يجتنب وكان إبراهيم وقت ذلك في سن تسمح له عادة بانجاب الأولاد. . وإن كان لم يتزوج بعد. فطلب الذرية الصالحة من الله. . فاستجاب له رب العزة، وبشر بغلام حليم عقب دعائه، ومن الله بأن يكون هذا الغلام الحليم هو المثل الأعلى في التضحية والفداء والصبر، وهو الصالح ومن الصالحين.

الغلام الحليم:

هو إسماعيل الذبيح عليه السلام فهم وهو غلام أن رؤيا الرسول وحي صريح وأمر قاطع بالتنفيذ. فلما عرض عليه أبوه المنام بالذبح عرف أن هذا ليس مناماً هو أمر واجب التنفيذ على الرسول والامتثال من المؤمنين.

قال: ﴿ **يَـٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّـٰبِرِينَ** ﴾[1].

والحليم اسم من أسماء الله الحسنى وقد تكرر في القرآن الكريم ١٢ مرة وخاصة بالله سبحانه منها:

﴿ **أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ سورة البقرة الآية ٢٣٥) ﴿ **وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ** ﴾ (سورة النساء الآية ١٢) ﴿ **إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً** ﴾ (سورة فاطر الآية ٤١) ﴿ **وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ** ﴾ (سورة البقرة الآية ٢٦٣) ﴿ **وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ** ﴾ (سورة التغابن الآية ١٧).

ومرة لشعيب عليه السلام قالها له: ﴿ **إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ** ﴾[2].

ولم يصف الله أحداً من خلقه بصفة حليم في القرآن كله إلا إبراهيم وإسماعيل

---

(١) سورة الصافات: الآية ١٠٢

(٢) سورة هود الآية ٨٧

عليهما السلام: مرتين لإبراهيم ومرة لإسماعيل في قوله سبحانه عن الخليل عليه السلام:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾. (سورة هود ١١/٧٥).

وفي قوله سبحانه وتعالى في سورة التوبة ٩/ ١١٤:

﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾.

ثم قوله سبحانه عن إسماعيل عليه السلام استجابة لدعاء إبراهيم بأن يهبه الله من الصالحين:

﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾. (سورة الصافات الآية ١٠١).

وفي هذا من الإشارات والأسرار. ما تعجز عن ادراكه الافهام والأفكار وربما جاز لنا أن نفهم الآن: أن إسماعيل هو الوريث الوحيد لأبيه إبراهيم عليهما السلام في صفة الحلم، وأنه وحده الذرية لما قال إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت ومعه إسماعيل.

﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾[1].

ولما قالا معاً:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ﴾[2].

فإسماعيل هو الحليم ابن الحليم، وهو الصادق الوعد، وهو الصالح.

أما البشرى الثانية بالغلام الثاني فكانت بعد عشرات من السنين حتى بعد قصة الذبح، وبعد أن أرسل الله لوطاً إلى قومه وانتهت رسالة لوط، وأرسل الله على قوم لوط رسله من الملائكة يرفعون قراهم، إلى أعلى السماء ويدكون بها الأرض،

(١) سورة ابراهيم الآية ٤٠

(٢) سورة البقرة ١٢٣ ايتا ١٢٧، ١٢٨.

ويرجمونهم بحجارة من جهنم، جزاء فعلهم القبيح الذي يستحق الرجم، وهذه الحجارة مخصوصة بهم ومعلمة ومحددة لهم.

والملائكة في طريقهم إلى قوم لوط مروا على نبي الله إبراهيم عم نبي الله لوط عليهما السلام، وهم على هيئة بشر، فظنهم نبي الله إبراهيم ضيوفاً من البشر وأراد أن يهيء لهم طعاماً سريعاً: عجلاً سميناً: وتفرس فيهم فلم يعرفهم فوجل منهم:

﴿ قَالُواْ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ، قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ، قَالُواْ بَشَّرْنَـٰكَ بِالْحَقِّ ﴾.

(سورة الحجر ١٥/ ٥٣ ـ ٥٥)

وتكررت هذه البشرى مرة أخرى لما قدم لهم العجل السمين، وهم لا يأكلون:

﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ، فَأَقْبَلَتِ آمْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾.

(سورة الذرايات ٥١/ ٢٧ ـ ٢٩)

نعم لقد كانت امرأة إبراهيم قطعت الأمل كل الأمل في الإنجاب.

لأنها كانت عجوزاً عقيماً قاربت التسعين من عمرها أو تجاوزتها، وقارب إبراهيم تمام قرن من الزمان أو تجاوزه، وكانت إذ ذاك تقدم الطعام لضويف إبراهيم المكرمين، فلما سمعتهم يبشرون إبراهيم بالغلام العليم، صكت وجهها بيدها وقالت أنا عجوز عقيم لا أنجب، وكأنها ظنت أن هذه البشرى مجرد استئناس أو تسلية أو مجاهلة، وهي قائمة على خدمتهم وتقدم الطعام لهم وتعزم عايهم، في ضحك وإيناس وسرور، فبشروها بما لم يبشروا به إبراهيم، بشروها بولد وحفيد بل بشروها باسم الولد والحفيد، فتعجبت وأنكرت فأزالوا عجبها فاستبشرت.

يقول رب العزة في سورة هود ١١/ ٧٠ - ٧٣ عن هذه القصة مع نبي الله إبراهيم:

﴿ فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَـٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَـٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَـٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴾.

فالغلام العليم: هو اسحق، وقد ذكر مرة أخرى في القرآن بهذا الوصف في سورة الذاريات ٥١/٢٨:

﴿ قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾.

والعليم بإطلاق وبالألف واللام اسم من أسماء الله الحسنى، وتدور لفظ العليم؛ عليم، وعليماً في القرآن كله ١٦٢ مرة منها ١٥٣ مرة لا يطلق إلا على رب العزة، وكلها تفيد الاحاطة بكل شيء والشمول لكل شيء. والهيمنة على كل المخلوقات، والخبرة بكل الكائنات الكليات منها والجزئيات، والظواهر منها والغيبيات.

أما باقي المراتب التسع للفظ عليم، فقد دارت على البشر أجمعين بما يفيد التمكن والإحاطة بقدر الطاقة البشرية، وبما يفيد دقة التخطيط والتطبيق العلمي والعملي (التكنولوجي) والتنفيذ، وبما يفيد الكيد والتخطيط الشرير، والتلاعب بعيون الناس وأفكارهم، والكذب والإفساد، وبما يفيد عدم الإستقرار إلى بداية تعليمية، وعدم الإطمئنان للوصول إلى نهاية علمية.

وهذا الذي نستطيع فهمه الآن من دوران لفظ «عليم» في القرآن على مختلف

أفراد بني الإنسان، وهنا نستطيع أن نشير إلى هذه المرات التسع في القرآن.

١ ـ جاءت القاعدة العامة والأخيرة تؤكد في دقة وصراحة مثيرة. وأنها تكرار لكل الأفهام المستنيرة: العلم لا يعرف الكلمة الأخيرة، لتوقع كل إنسان في كل زمان ومكان إلى مواصلة التعليم، مهما ظن أنه ارتقى في سلم العلوم. حيث يقول الخبير المحيط الحكيم:

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

(سورة يوسف الآية ٧٦)

٢ ـ وفي مرة ثانية للفظ عليم ما يستفاد منه: الحفظ واتساع الأفق ودقة التخطيط والتطبيق والتنفيذ والمتابعة، مع التمكن والأمانة، لأن يوسف بن يعقوب بن اسحق عليهم السلام لما استدعاه الملك من السجن بعد أن ثبتت براءته عنده وكلمه قال الملك ليوسف:

﴿ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ، قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ٥٤ ـ ٥٥)

٣ ـ وفي مرتين كانت البشرى لإبراهيم بغلام عليم، والذي كان هو اسحق والد يعقوب وجد يوسف عليهم السلام.

٤ ـ ثم وفي المرات الخمس الباقية للفظ عليم كانت وصفاً لكل من بلغ القمة في الكيد والسحر، والدجل والإفساد واسترهاب الناس والتدبير الشرير، لأنه كان في كل مرة من هذه المرات الخمس جاء لفظ عليم وصفاً لساحر بلغ القمة في السحر في أربع مرات أو لساحر امتلك الزمام وكان قمة القمم لكل ساحر قمة.

لأنه لما جاء موسى عليه السلام إلى فرعون وألقى عصاه فانقلبت باذن الله حية تسعى اتهموه بأنه بلغ القمة في السحر.

﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴾.

(سورة الأعراف: ٧/ ١٠٩)

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ ﴾.

(سورة يونس ١٠/ ٧٩)

قال الملأ لفرعون عن موسى وأخيه هارون عليهما السلام:

﴿ قَالُوٓاْ: أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ، يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ﴾.

(سورة الشعراء ٢٦/ ٣٦ - ٣٧)

فلما حضر السحرة وألقوا حبالهم وعصيهم:

﴿ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾.

(سورة الأعراف ٧/ ١١٦)

فقال رب العزة عنهم لموسى عليه السلام:

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَاصَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾.

(سورة طه ٢٠/ ٦٩)

ولأن هؤلاء كانوا من كل ساحر عليم، وقد وصلوا إلى قمة السحر في الإنسانية كلها، منهم الذين أدركوا سريعاً الفرق بين عمل الخالق وعمل المخلوق، وعملوا سريعاً واستيقنوا أن انقلاب عصى موسى إلى حية تسعى وتلقف كل ما يأفكون. مما صنع السحرة لا يمكن أن يكون في طاقة بشر مخلوق، وإنما هو معجزة من الله رب العالمين الخالق.

لهذا آمنوا سريعاً لا بموسى، ولا بهارون بل خروا ساجدين:

﴿ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ، رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾.

(سورة الشعراء ٢٦/ ٤٧ - ٤٨)

لكن السحر نفسه كذب، وكيد، وبهتان، وتضليل، والسحر قرين الأفك والجنون، وقد قال رب العالمين:

﴿ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴾. (سورة يونس ١٠/ ٧٧)

وبهذا يكون لفظ عليم إذا ما اتصف به واحد من البشر، كان في أقله الأقل دليلاً على الخير كما أطلق على اسحق ويوسف.

وكان في أكثره الأكثر دليلاً على الشر، كما أطلق على الساحر، والسحار خمس مرات، وكما طغى قارون فقال: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ ﴾[1] فهو يتأرجح بين الخير والشر وإلى الشر أكثر، والويل للبشر، إذا استخدم العلم في ما يضر لأنه لا عاصم له إلا الحلم والخير.

أما لفظ حليم: فلا تأرجح فيه إلى شر بل كله خير. . وإلى العلم والخير أقرب.

* * *

لماذا بشر الله إمرأة إبراهيم بولد وحفيد مرة واحدة؟

هذه أول مرة وآخر مرة في القرآن كله، يبشر الله فيها بولد وحفيد مرة واحدة، بل ويسمى الوليد والحفيد معاً، ولم يحصل إلا لامرأة إبراهيم (سارة) فقد بشر الله إبراهيم نفسه مرة بغلام حليم هو «إسماعيل» وهو الأصل، ثم بعد عشرات السنين بشره بغلام عليم فقط هو اسحق، وبشر مريم بعيسى وبشر زكريا بيحيى، مكافأة لهم

---

(١) سورة القصص: الآية ٧٨.

كما قال الله عنهم:

﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خَـٰشِعِينَ ﴾.

(سورة الأنبياء ٢١/ ٩٠)

والمكافأة من الله العلي الأكبر، لا بد من أن تكون من جنس العمل وأكبر وبهذه المكافأة وحدها فضلاً عن غيرها من عشرات الأدلة، نستطيع أن نؤكد مطمئنين أن الله قد كافأ السيدة (سارة) زوج إبراهيم بولد وحفيد من بطنها بعد شيخوخة زوجها بل وبعد عقمها وعجزها، لأنها أحبت إسماعيل عليه السلام الغلام الحليم، واحتضنته لما ولدته السيدة (هاجر) المصرية الولود، ليكون جداً لخير مولود، وقد ملأ إسماعيل الوليد على امرأة أبيه الودود (سارة) كل حنانها، وعاطفتها، وأمومتها.

وكأن الله لما أمر إبراهيم أن يسكن ابنه إسماعيل بيت الله الحرام ليربيه الله في بيت الله، وليكون من ذريته رحمة العالمين محمدﷺ الذي يسترد الأمانة ويتم الله به الدين.

كما أن الله العزيز الرحيم لم ينتزع اسماعيل من قلب أبيه إبراهيم، فهو مطمئن إلى تنفيذه لأمر الله وحبه له بأن إسماعيل سيكبر وتكون له ذرية وسيقيمون الصلاة في بيت الله الحرام، وسيرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد منه بعد حوالي ثلاثين سنة أو أكثر، لأن الله عهد إلى إسماعيل وهو يرفع القواعد من البيت مع أبيه إبراهيم فقال سبحانه:

﴿ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾.

(سورة البقرة ٥٢/ ١٢٥)

وكأن الله سبحانه لم ينتزع إسماعيل من حضن أمه (هاجر) لأنها كانت معه

وهاجرت إلى الله به لما أمر الله إبراهيم عليه السلام: أن يسكنهما عند بيته الحرام.

ولما تركها إبراهيم عند بيت الله مع وليدها إسماعيل لم تصرخ في إبراهيم لأنه سمع كلام ضرتها، أو اتبع مشورة امرأة، بل قالت لإبراهيم وهو راجع عنهما: إلى أين يا إبراهيم؟ وإبراهيم عليه السلام لم يلتفت إليها وكأن الحنان غلبه على دمعه، فلم يرد أن تبصره أم إسماعيل.

حتى كان على مرمى السمع منها قالت له: الله أمرك بهذا؟ فأشار إليها إبراهيم « نعم» فقالت: « إذا لا يضيعنا».

ثم أنبع الله لها بئر « زمزم»: غذاء، وشراباً، وشفاءً، من بين الصفا والمروة، لما دقت عليهما أم إسماعيل سبع مرات في سبعة أشواط هي شعائر السعي.

وكأن الله أمرها كما أمر مريم أم المسيح، وهي في أضعف حالات الضعف أن تهز بجذع النخلة الذي لا يقوى على هزه فرسان أمة، ولكنه أمر القوي الناصر الممد بالحول والطول والقوة، فتساقط النخلة عليها رطباً جنياً.

وكذلك ينبع لأم إسماعيل من بين الجبلين « الماء سلسالاً شهياً» وجعل الله أفئدة الدنيا تهوي إليهم لكنه سبحانه أوجب السعي على كل حال.

وكأن الله سبحانه قد انتزع إسماعيل عليه السلام وهو الوليد الحليم الحبيب من حضن امرأة أبيه إبراهيم (سارة) ومن حنانها ومن أمومتها ومن عواطفها. وكأني بها، لما أخذ إبراهيم إسماعيل منها إلى بيت الله على الرغم منها، كأني بها تصرخ في بكاء وتجأر إلى الله بالدعاء:

يا رب أوتمنعني إسماعيل بعد أن منحتني إياه، وأرضيتني به، وأحببتني فيه؟ يا رب هل تسلب بعد أن تعطي وأنا مخلصة لك؟ يا رب، يا رب.

فكان ولا بد من أن يكافئها الله ويمنحها من جنس ما في قلبها، ونيتها

وعملها، والمكافأة من جنس العمل، لهذا كانت مكافأة الله لها بولد وحفيد من بطنها وبتسمية الوليد والحفيد تكريماً لها. وصدق الله:

﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾

(سورة ابراهيم الآية ٧)

فقال سبحانه عنها:

﴿ فَبَشَّرْنَـٰهَا بِإِسْحَـٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَـٰقَ يَعْقُوبَ ﴾

(سورة هود ١١/ ٧١)

* * *

ونستطيع على ضوء هذا أن نستنتج ما يأتي:

١ ــ إن المصريين فوق أنهم عرب من العمالقة، من العرب البائدة الذين هم: عاد، وثمود، وطسم، وجديس والعماليق، ومن العماليق كناعنة الشام وفراعنة مصر، فوق هذا فإن المصريين أخوال للعرب من نسل إسماعيل عليه السلام لأن أم إسماعيل عليه السلام، الحليم ابن الحليم هي السيدة هاجر المصرية التي وهبها ملك مصر لسيدنا إبراهيم وزوجته، لما بلغ رسالة الله في مصر وأقام ضيفاً فيها، ولما أرادوا الإرتحال أهداهم ملك مصر الهدايا الثمينة ومنها السيدة هاجر الكريمة ، على عادة المصريين إلى الآن بل على عادة العرب جميعاً، فهم يهدون ضيوفهم عند ارتحالهم، وكما فعل المقوقس عظيم القبط في مصر، لما أرسل له محمدﷺ كتاباً يدعوه فيه إلى الإسلام، رد الكتاب بهدية قيمة فيها طبيب، والسيدة مارية القبطية التي أنجب منها محمدﷺ ابنه إبراهيم ومنها السيدة سيرين التي زوجها الرسول لشاعر الإسلام الأول حسان بن ثابت.

٢ ــ إن الله قد كافأ السيدة (سارة) باسحق وولده يعقوب «إسرائيل» على حبها لإسماعيل، جد محمد رحمة العالمين عليهم الصلاة والسلام، وجد العرب، وفي

هذه المكافأة بإسحق، حياة لأم اسحق، أو امتدادا لحياتها في حياة نسلها جميعاً مكافأة لها.

ولا بقاء ولا قيمة للمكافأة إن فقد السبب الذي من أجله كانت المكافأة ولعل جماع السبب كله: هو محبة إسماعيل، فلا حياة لبني إسرائيل، إلا على محبة نبي العرب والايمان به وهو الذي عاهدهم الله عليه.

فإن اعتدوا على سبب حياتهم، سلبهم الله حياتهم، وأذلهم، وشردهم وكتب عليهم اللعنة والشتات، ما دام العرب يتمسكون بالإسلام ويعتزون بدين جدهم ورسولهم، وتنفيذ تعاليم ربهم إليهم يحافظون على تراثهم ومراثهم[1].

٣ ـ إن إسماعيل هو الأصل وهو البكر، وهو الأحق، وهو الأكبر، بل هو الوارث الحقيقي للدين ولملة إبراهيم عليهما السلام، لأن إسماعيل عليه السلام هو الأم وابن الأمة إبراهيم الخليل، وهو الحليم ابن الحليم، وذريته هم الأمة المسلمة الوسط، فإن رجعت الرسالة إليهم فقد رجعت إلى أصلها واتصلت بأمها، لأن بني إسرائيل لم يحرصوا عليها بل طغوا وبغوا وقطعوا الصلات والمواثيق التي واثقهم الله بها وخانوا العهود التي عاهدهم الله عليها.

﴿ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾.

(سورة آل عمران الآية ١٩)

والله سبحانه يذكرهم دائماً بعهده وعهدهم ويقول في كتابه المحكم:

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾

(سورة البقرة الآية ٤٠)

---

(١) من الجدير بالذكر أن العرب في معركة رمضان العظيم اكتوبر عام ١٩٧٣ م، حين قوي إيمانهم بالله وانطلقوا يجابهون العدوان اليهودي وشعارهم: الله أكبر الله أكبر.. كانت يد الله معهم على عدوهم.

فهو سبحانه يهديهم برهبته وبطشه، وغضبه ونقمته، ولعنته إياهم: إن لم يوفوا بعهدهم، فلا نجاة لهم، ولا حياة، ولا بقاء، إلا بالوفاء بهذا العهد على أوسع وأكمل ما يكون الوفاء.

هذا العهد كله في كلمة: هي «الإسلام» وفي كلمتين: الإسلام والتسليم هو الإيمان بكل ما أنزل الله على محمد النبي العربي، وخاتم رسل الله ﷺ، واتباع كل التعاليم الإسلامية لأن الله يقول لهم عقب مطالبتهم بالوفاء بعهدهم مباشرة.

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ، وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ، وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾.

(سورة البقرة ٢/ ٤١/ ٤٣)

٤ ــ إن غضب الحليم وأبناء الحليم سيف بتار، مهما أشعل أبناء العليم للدمار ومهما أفسدوا وأوقدوا النار فإن غضب الحليم نار: تأكل النار، تمحوا العار، وتطهر الدار، وتحمي الذمار، وترد الاعتبار، من أولئكم الفجار، الأشرار الكفار الذين قال عنهم العزيز الجبار:

﴿ كُلَّمَآ أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَاداً وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.

(سورة المائدة ٥/ ٦٤)

* * *

أبناء الحليم وأبناء العليم:

أبناء الحليم ابن الحليم هم أبناء إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وهم الذين تحدث القرآن عنهم أو أشار إليهم بأنهم هم: ذرية إبراهيم، وذرية إسماعيل وإبراهيم ومنهم الأمة المسلمة، وهم: آل إبراهيم، والأميون والمؤمنون وهم الذين بعث الله فيهم ومنهم النبي الأمي العربي الخاتم، محمدﷺ على فترة طويلة من أبناء إسماعيل الذبيح عليه السلام، الذي قال عنه رب العزة سبحانه:

﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ إِنَّهُ كان صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيّاً، وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ٥٤ ـ ٥٥)

١ ــ أما أنهم ذرية إبراهيم فلأن الذي أسكنه إبراهيم عليه السلام عند بيت الله الحرام هو إسماعيل عليه السلام وعنده قال، كما قال رب العزة في سورة إبراهيم:

﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾.

إلى أن قال:

﴿ رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ﴾.

(سورة إبراهيم ١٤/ ٣٧-٤٠)

٢ ــ وأما أنهم ذرية إسماعيل وإبراهيم، ومنهم فقط الأمة المسلمة، وليس في القرآن

أمة مسلمة غيرهم ـ فلأن الله سبحانه يقول:

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ، رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾.

(سورة البقرة الآية ١٢٨)

لأن لفظ مسلمين مثنى يدل على اثنين فقط، وليس إلا إبراهيم وإسماعيل، فالأمة المسلمة ليست إلا من ذرية إسماعيل وإبراهيم فقط.

٣ ـ وأما أنهم «آل إبراهيم» فلأن الله سبحانه يقول عن بني إسرائيل:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَاهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾.

(سورة النساء ٤/ ٥٤)

في حين أنه سبحانه يطلق على بني إسرائيل: آل يعقوب، كما قال يعقوب عليه السلام نفسه لابنه يوسف لما قص عليه رؤيته:

﴿ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ ءَالِ يَعْقُوبَ ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ٦)

كما يطلق عليهم سبحانه أيضاً «آل عمران» في قوله سبحانه:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ ءَادَمَ وَنُوحاً وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ ﴾.

(سورة آل عمران ٣/ ٣٣)

والمقابلة تحتم أن آل إبراهيم، غير آل عمران.

وكذلك في الذرية لما قال سبحانه:

﴿ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَاءِيلَ ﴾. (سورة مريم ١٩/ ٥٨)

فذرية إبراهيم غير ذرية إسرائيل.

وكذلك قوله سبحانه عن إبراهيم عليه السلام:

﴿ وَبَـٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَـٰقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ ﴾.

(سورة الصافات ٣٧/ ١١٣)

فقال ذريتهما بالتثنية: ذرية من إبراهيم وذرية من اسحق، فهناك ذريتان. أما إبراهيم وإسماعيل فقد قالا:

﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾

(سورة البقرة الآية ١٢٨)

فهنا ذرية واحدة، وهي الأمة المسلمة الواحدة من ذرية إسماعيل وإبراهيم فقط.

٤ ـ وأما الأميون والمؤمنون، فلأن الله سبحانه يشير إلى أن الأميين، والمؤمنين هم ذرية إسماعيل فقط، لأن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام لما دعيا الله بالأمة المسلمة ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ ﴾ [1] دعيا الله كذلك للأمة المسلمة من ذريتهما بأن يرسل الله سبحانه، فيهم ومنهم: خاتم النبيين ورحمة العالمين كما قال الله سبحانه:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾.

(سورة البقرة ٢/ ١٢٩)

---

(١) سورة البقرة الآية ١٢٨.

فاستجاب الله دعاءهما وبعث في ذرية إسماعيل ومنهم كما قال سبحانه:

﴿ هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّنَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾.

(سورة الجمعة ٦٢/ ٢)

وكما قال جل شأنه:

﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾.

(سورة آل عمران ٣/ ١٦٤)

وكما قال سبحانه ممتناً على المؤمنين جميعاً:

﴿ كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴾.

(سورة البقرة ٢/ ١٥١)

ولعلنا مرة أخرى نستطيع أن نؤكد أن الذين يستحقون أن يكونوا آل إبراهيم فقط كما قال القرآن هم ﴿ الأمة الإسلامية ﴾ هم ذرية إبراهيم، هم ذرية إسماعيل، وهم الأميون وهم المؤمنون وكأنهم هم الناس.

وهم الذين أتاهم الله الكتاب والحكمة، فما بال بني إسرائيل يحسدون الناس على فضل الله:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ ءَاتَيْنَا ءَالَ إِبْرَاهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾. (سورة النساء الآية ٤ - ٥٤)

أما أبناء العليم، فهم أبناء يعقوب بن اسحق عليهما السلام.

وهم الذين تحدث القرآن عنهم أو أشار إليهم بأنهم هم: بنو إسرائيل وآل يعقوب وذرية يعقوب، وذرية إسرائيل، وذرية اسحق، ومنهم آل عمران، وآل موسى، وآل هارون، وآل داود.

والقرآن الكريم كذلك يذكر معهم: آل فرعون، وآل لوط، وبنو إسرائيل هم أهل الكتاب، في مقابلة «الأميين».

وتذكر التوراة: الأميين، أو الأمميين، على أنهم: العرب من ذرية إسماعيل عليه السلام، وأنه ليس على بني إسرائيل سبيل في أن يسلبوا أموال العرب وأعراضهم ومقدساتهم. لأنهم يزعمون أنهم السادة والكل عبيد لهم ولا سبيل على السيد في كل ما يملك العبد.

والقرآن الكريم صرح بهذا في قوله سبحانه مخاطباً النبي العربي وكل مؤمن عربي:

﴿ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.

(سورة آل عمران ٣/ ٧٥)

* * *

بين حلم الحليم وعلم العليم:

وقد انحرف أبناء العليم بعلمهم، لأن العلم في البشر عارض مكتسب لا يستقر ومنه الخير ومنه الشر، وبه التعمير وبه التدمير، فاستعملوا علمهم في

الإفساد، والفساد، حتى أصبح الفساد الداخلي والإفساد الخارجي عنواناً عليهم ﴿وذلك مبلغهم من العلم﴾.

وكل من يلجأ إلى علم منحرف يكون قد انسلخ من كل شرف وتجرد من كل شرف ومن كل خلق إنساني، وانزلق إلى كل زخرف شيطاني، وهكذا كان بنو إسرائيل العصبة وهكذا أصبح الصهاينة الفجرة مجردين من كل خلق فاضل فلا عهود، ولا مواثيق ولا شرف، ولا كرامة، ولا إنسانية، بل ضربت عليهم الذلة والمسكنة، والجبن والتشريد، ولا يشمخون إلا بأنوف غيرهم، ولا يتطاولون إلا برؤوس غير رؤوسهم ولا يعيشون إلا تحت الحماية وفي الوكالة، وبوعد مشؤوم.

أما أبناء الحليم فقد طال حلمهم، والحلم كله خير إلا إذا استنفر صاحبه، وهو خلق مستقر إلا إذا استبيح جانبه، بل هو سيد الأخلاق، لأنه يستمد عناصر من الصدق والصلاح:

﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ﴾

(سورة الصافات الآية ١٠٠ ـ ١٠١)

ثم تكون النتيجة الحتمية إذا جد الجد ـ التضحية، والفداء، بالمال وبالنفس وبالولد، والحلم: كله علم، وقسوة، وعزة.

والعلم عند الحليم كله للتعمير، وإزالة الفساد، ومحق الطغيان، وسحق العدوان وصدق من قال: اتقوا غيظ الحليم.

والحليم يقابل الشدائد بعزيمة قوية، وشجاعة نفسية، لكنه إذا استثير وثار، زلزل البوادي والقفار، ودمدم على المفسدين كالإعصار.

يقول عنترة العبسي، الحليم العربي، بلسان العروبة في حلمها، وشدتها وقبل إسلامها:

وللحلم أوقات وللجهل مثلها ... ولكن أوقاتي إلى الحلم أقرب

ثم يقول:

حلمت فما عرفت حق حلمي ولا ذكرت عشيرتكم ودادي
سأجهل بعد هذا الحلم حتى أريق دم الحواضر والبوادي

أهل الكتاب والأميون:

هذا العنوان تعبير اصطلاحي وكما يقولون لا مشاحة في الاصطلاح، وكان هذا التعبير يطلق على أبناء العليم، وأبناء الحليم، قبل البعثة المحمدية.

وعلى هذا فإن بني إسرائيل جميعاً هم أهل الكتاب اصطلاحاً، ولا داعي للتعلل أو التعليل في سبب تسميتهم ذلك لأن الاصطلاح كذلك. .

نعم ربما جاز لنا أن نقول: لأن الله سبحانه جعل فيهم الكتب، والنبوات والرسالات والتبليغ، من أبيهم إسرائيل إلى آخرهم السيد المسيح عليه السلام الذي جاهروا بقتله وصلبه:

﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ (سورة النساء الآية ١٥٧).

أما أبناء الحليم ابن الحليم إسماعيل بن إبراهيم فكان يطلق اصطلاحاً قبل البعثة «الأميون» ولا داعي للتعليل كذلك.

لكن ربما جاز لنا أن نقول:

١ ـ لأنهم عاشوا، وتربوا، ونشأوا في أم القرى «مكة» فنسبوا إليها، وهي التي قال الله عنها لخاتم النبيين ﷺ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَاناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾.

سورة الشورى ٤٢/٧)

٢ ـ ولأنهم ذرية إسماعيل وهو بكر إبراهيم لأنه عليه السلام وحيده مدة طويلة فإليه المرجع ، فهو الأم لآل إبراهيم الأمة .

٣ ـ ولأن إسماعيل تربى عند بيت الله ، وأرسل في أم القرى كذلك .

٤ ـ ولأن الله استحفظهم بيته الحرام فهم الأمناء ومعلموا الناس جميعاً :

المشاعر الحرام ، والنسك ، والحج ، فإليهم المرجع ، منهم الأم والأميون .

ويقول أبو الفتح الشهرستاني في الملل والنحل جـ ١ ص ٤٨٥ ـ ٤٨٦ الطبعة الأولى ـ طبعة الأزهر الشريف سنة ١٣٦٦ هـ (١٩٤٧) .

تحت هذا العنوان : «أهل الكتاب والأميون» :

«الفرقتان المتقابلتان قبل «المبعث» هم : أهل الكتاب والأميون» وكانت اليهود والنصارى بالمدينة والأميون بمكة .

وأهل الكتاب : كانوا ينصرون «دين الأسباط» ويذهبون مذهب بني إسرائيل .

والأميون : كانوا ينصرون «دين القبائل» ويذهبون مذهب بني إسماعيل .

ولما تشعب النور الوارد من آدم عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام ثم الصادر عنه إلى شعبتين : شعبة في بني إسرائيل ، وشعبة في بني إسماعيل وكان النور المنحدر منه إلى بني إسرائيل ظاهراً ، والنور المنحدر منه إلى بني إسماعيل مخفياً .

كان يستدل على النور الظاهر بظهور الأشخاص ، وإظهار النبوة في شخص شخص .

ويستدل على النور الخفي : بآيات المناسك والعلامات وستر الحال في الأشخاص وقبلة الفرقة الأولى بيت المقدس .

وقبلة الفرقة الثانية ، بيت الله الحرام الذي وضع للناس بمكة : مباركاً وهدى للعالمين .

وشريعة الأولى: ظواهر الأحكام.

وشريعة الثانية: رعاية المشاعر الحرام.

وخصماء الفريق الأول: الكافرون مثل فرعون وهامان.

وخصماء الفريق الثاني: مثل عبدة الأصنام والأوثان.

ثم يقول عن اليهود والنصارى: «وهاتان الأمتان من كبار امم أهل الكتاب».

وعلى هذا كله فاننا نستطيع أن نشير إلى أن النبي الأمي هو: النبي العربي الذي هو من ذرية الأميين أبناء إسماعيل، وهو الذي بعثه الله في الأميين منهم للناس كافة وللعالمين نذيراً، ولئن كان إبراهيم عليه السلام هو الأمة فإن محمداً ﷺ هو الأم: هو الأمي، هو الرحيم بالمؤمنين والرحمة للعالمين، وهو الصادق لجميع المرسلين وإليه المرجع والشهادة والشفاعة وهو الغذاء والوفاء والرعاية والشريعة والأحكام وفي القرآن آيات محكمات هن أم الكتاب.

بنو إسرائيل الأول:

إن بني إسرائيل الأول: هم أبناء يعقوب، وهو «إسرائيل مباشرة، وكانوا إثني عشر ذكراً».

منهم واحد يمثل المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين، وهو يوسف الصديق عليه السلام.

ومنهم أخو يوسف الشقيق وهو بنيامين، كان يمثل طبقة المؤمنين المسالمين الطيبين.

ثم الكبار العشرة وهم يمثلون عند بعض العلماء من القدامى والمحدثين الكفر الفجر، لأنهم العصبة القذرة الذين دبروا في الوقت ذاته جرائم الفجيعة والقطيعة لأبيهم الشيخ الكبير يعقوب عليه السلام [1].

---

(١) من العلماء المحدثين الشيخ الدكتور محمد بن فتح الله بدران في كتابه (الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن) الطبعة الثانية عام ١٣٨٩ - ١٩٦٩ صفحة ٥٣١ وما بعدها.

يوسف عليه السلام ومكانته من بني إسرائيل:

يقول رب العزة في صدر سورة يوسف ١٢/ ١ ـ ٧:

﴿ الٓر تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ، إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ قُرْءَٰناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ، إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَباً وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ، قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ، وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ، لَّـقَدْ كَـانَ فِي يُوسُـفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.

(سورة يوسف)

وقد أفردها رب العزة ليوسف وأخوته والأحداث من حوله منذ رأى المنام وهو صغير إلى أن تربع على خزائن الأرض في مصر وأصبح العزيز والأمير.

وبلغ رسالة ربه، وأتاه الله من الملك فأصبح من بعد جده اسحق الذي وصفه الله بغلام عليم هو الوريث في هذه الصفة حيث قال للملك:

﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾

(سورة يوسف الآية ٥٥)

وخطط في مصر للزراعة والانتاج، والتوزيع، والتدبير، وضمن عدالة التوزيع والكفاية بلا تقتير ولا تبذير، وطبق أعمق قواعد انعلم، وأبسطها وأيسرها،

لحفظ الحبوب من التسويس والتفريغ والتدمير، طوال خمسة عشر عاماً، فأنقذ العالم كله من الهلاك، في نصفها الأخير، مع الاحتفاظ بفائض كاف من الحبوب طوال ثمانية أعوام يصلح بعدها للإنبات، والإكثار والتثمير.

كل ذلك بعد أن تربى في بيت العزيز في مصر غلاماً مشترى بالثمن البخس بعد أن نجاه الله من (غيابة الجب) التي ألقاه فيها أخوته العشرة الكبار، ورجعوا إلى أبيهم يبكون.

ولما شب في بيت العزيز شغفت به امرأة العزيز، وحاكت من حوله شباك الخسة والشر، ولكنه استعصم بربه الذي نجاه من البشر، وأكرم مثواه في بيت عزيز مصر فلم يحصل منه هم بها، ولا استجاب لمراودتها ولم يلن لكثرة الحاحها، وتكرار المراودة منها لأنه استعصم بربه، فأراه الله البرهان بالعصمة، فامتنع الهم لوجود هذه العصمة يقول رب العزة:

﴿ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ ﴾.

وجد البرهان فامتنع الهم. ولو كان غيره أيا كان لوقع في الهم كل الهم، وهذا هو الذي يمكننا أن نفهمه من تقديم (الهم) على (لولا) لأن كل الظروف والمراودات كانت تحتم الإستجابة والهم، فالهم كان محققاً حتماً لولا العصمة التي منعته، وذلك تربية لنفوس المؤمنين حتى لا يغتر مؤمن بإيمانه وإراداته، بل لا بد أن يستمد دائماً التوفيق والبعد عن الشرور والهواجس والآثام من الخالق سبحانه لأن النفس الإنسانية لو بعدت عن خالقها ومحييها لكانت أمارة بالسوء بقدر بعدها عن الله، ولكنها العصمة من الله، ولكنه برهان الله وعصمته الذي قال الله سبحانه عنه، ساعة ألقاه اخوته في [غيا]بة الجب:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

وقد قال عنه سبحانه بمجرد أن بلغ مبلغ الرجال:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ٢٢)

في حين أنه سبحانه هو الذي قال عن موسى الكليم عليه السلام:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَٱسْتَوَىٰ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

(سورة القصص ٢٨/ ١٤)

ثم غضبت امرأة العزيز وأرعدت وهاجت وثارت وتوعدت، واستعانت على يوسف بنسوة الطبقة العليا اللاتي حاولن جميعاً الكيد له، كل واحدة لنفسها ولامرأة العزيز، فالتجأ يوسف عليه السلام إلى ربه الحكيم الخبير سبحانه لا ليصرفه عن كيدهن، وإنما ليصرف عنه كيدهن، لأنه كما قال رب العزة:

﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ، فَٱسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ، ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُاْ ٱلْأَيَـٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ٣٣ ـ ٣٥)

ولكنه دخل السجن باذن الله ليخرج على خزائن الأرض بتدبير الله كما قال رب العزة:

﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ٥٦)

ثم جمع الله إليه قومه من (البدو) لأنه لا وطن لهم، ولا مقر:

﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَـٰأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰيَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ١٠٠)

(والبدو) البادية جاؤوا منها، وكانوا أهل بادية وماشية، وأجمع أهل التحقيق على أنهم كانوا يتنقلون في البوادي من غور الشام وما حواليها وأسفل منها، وأنهم كانوا أصحاب بادية وشاة وابل، وكان يوسف عليه السلام لم يستطع جمعهم والإتيان بهم، كذلك لم يستطيعوا أن يتجمعوا وكذلك لم يستطع أبوهم أن يجمعهم لأن يوسف عليه السلام يقول:

﴿ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِيٓ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾. (سورة يوسف الآية ١٠٠).

ولم يقل مثلاً: وجئتم من البدو، أو جئت بكم من البدو، أو: وجئت بهم يا أبت من البدو أو: وجاء اخوتي من البدو من بعد أن نزع الشيطان بيني وبينهم، ثم سمح لهم بالتنقل والرعي في صحارى الشرقية متنقلين متفرقين حتى لا يتجمع فسادهم، ولا ينكشف إفسادهم فعاشوا كذلك في الصحارى بدوا متفرقين، حتى خرج بهم موسى عليه السلام من مصر، وجاوز بهم البحر وإلى صحراء سيناء فتاهوا متحيرين، وتحيروا تائهين، فمتى وأين كان لهم وطن؟ ولا بد من الوقوف بتدبير وإمعان أمام سورة يوسف جميعاً في القرآن الكريم وهي آيات بينات.

لتستفيد الدنيا جميعاً الكثير والخطير من العبر والعظات ما يصلح النفس، والبيت، والأسرة، والدولة، والمجتمع، في كل الاتجاهات وما يصلح التخطيط،

والإخلاص، والتنفيذ، على كل المستويات، وما يدفع إلى العلم والعمل، والإخلاص، بكل الامكانات، وما يوجه المؤمنين إلى القضاء سريعاً على كل الاعتداءات والإنحرافات:

أخلاق العشرة الأول من بني إسرائيل:

ما أعجز القرآن وأروعه، وما أيسره وأبدعه وهو يقص التاريخ الأخلاقي الذليل لكبار بني إسرائيل حيث قال رب العزة في محكم التنزيل:

﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّائِلِينَ، إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ، ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُواْ مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَـٰلِحِينَ، قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَـٰعِلِينَ، قَالُواْ يَـٰأَبَانَا مَالَكَ لَا تَأْمَـنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَـٰصِحُونَ، أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ، قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ، قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّـخَـٰسِرُونَ، فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ، وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ، قَالُواْ يَـٰأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ، وَجَـآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ، بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾.

(سورة يوسف ١٢ / ٧)

والقرآن واضح كل الوضوح لكن بعض العلماء يلمح إلى مخاز دامغة في دماء بني إسرائيل بالرغم من أنهم استغفروا ربهم وكانوا من النادمين منها[1] :

١ ــ حقدهم القاتل لكل خير واستقرار ومحبة، والمقطع لكل الصلات الإنسانية حتى للمحبة بل وحتى بين الأب وابنه:

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا مِنَّا ﴾ (سورة يوسف الآية ٨).

هذا الحقد المتأصل في نفوسهم كنتيجة حتمية للحسد يشوي قلوبهم ويقطع أمعاءهم كما قال رب العزة عن بني إسرائيل:

﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَـٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾.. (سورة النساء الآية ٥٤).

... وكأن حسدهم هذا الذليل الوبيل أبعدهم عن الإنتساب إلى إبراهيم الخليل، عليه السلام فليسوا من آله، وليسوا من الناس، فهم يحسدون الناس ويحسدون آل إبراهيم. وهذا الحقد أيضاً كان بعض نتائجه الحتمية: الكيد الكائد، والإجرام المجرم، والخروج بهم من أبسط ملامح الإنسان إلى أشقى عداوة الشيطان. ألم يقل يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام:

﴿ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾ (سورة يوسف الآية ٥).

هذا وينتهي الشيخ محمد بن فتح الله بدران عند تفسيره لهذه الآية الى النتائج الآتية:[2]

٢ ــ إعتزازهم بالقوة الشريرة المدمرة، في قولهم (ونحن عصبة) ويلزم من هذا أنهم لا يخضعون أبداً إلا للقوة.

٣ ــ السبب الفاضح المخزي لأبيهم وتأكيدهم أنه في ضلال وأن ضلاله ظاهر

---

(١) راجع: الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن صفحة ٥٣٣ وما بعدها.

(٢) المصدر السابق.

واضح بيّن. وهذه أخزى مخزيات الدنيا: أن يجتمع عشرة أبناء على أبيهم يضاف إلى ما سبق تقطيع صلة الأبوة، والتناقض الشنيع في جمعهم بين وصفه بالأبوة لهم، والضلال في وقت واحد.

﴿ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾. (سورة يوسف الآية ٨).

٤ ـ تخطيطاتهم الإجرامية النكراء، التي تصل سريعاً إلى قتل الأبرياء والعدوان على من يتخيلون أنهم ضعفاء، ﴿ اقتلوا يُوسُفَ ﴾ (سورة يوسف الآية ٩)

٥ ـ حياكة المؤامرات الشريرة بموازنتهم بين قتل يوسف وطرحه في الأرض يدفن فيها حياً، ويهال عليه التراب فيموت، سبحانه الله الحفيظ ﴿ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً ﴾. (سورة يوسف الآية ٩)

٦ ـ تفاهة تفكيرهم وبلاهة مقصدهم وانحراف غرضهم: القتل والموت منهم لأخيهم الصغير من أجل أن يخلو لهم وجه أبيهم؟ أهذا منطق؟ يفجعون الوالد في صغيره، ليصفو وجهه لهم؟ يا للتفاهة والقذارة!. ﴿ يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ ﴾؟.. (سورة يوسف الآية ٩).

٧ ـ ترتيب الصلاح على القتل لطفل صغير بريء جميل هو أخوهم؟! والفجيعة لأب كبير ورسول جليل هو أبوهم يا شياطين الدنيا، ويا أبالسة العالم هل تستطيعون التلمذة على هؤلاء في بعض هذه الاجرامات وبعض هذه الادعاءات؟!!

﴿ وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِ قَوْماً صَٰلِحِينَ ﴾. (سورة يوسف الآية ٩).

يقول الشيخ محمد بن فتح الله بدران

٨ ـ إنه ليس فيهم رجل فيه رائحة الإنسانية حتى الذي قال: لا تقتلوا يوسف، كنا نتوقع بعدها مثلاً: أن يقول لأنه طفل. أو هو أخوكم أو ابن أبيكم، لا حول له، ولا مدافع عنه، ثوبوا إلى رائحة من آدمية أو حتى حيوانية ولا تستعملوا عصبيتكم القوية في امتصاص دماء الضعفاء الأبرياء ولكنه قال: ﴿ وَأَلْقُوهُ

﴿فِي غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ يا للعجب!.. غيابة متاهة تائهة، تغيب كل ما فيها، وكل ما يلقى إليها، أو أسفل الجب. والجب هو البئر: المقطوع أو المنقطع في صخر، البعيد الغور، وكأنه يقطع الصلة ويجبها: بين ما يلقى فيه وبين العالمين. (سورة يوسف الآية ١٠)

ثم من المواصفات العجيبة حتى على أنفسهم أن يقول قائلهم هذا:

﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾؟ وهل يمكن أن يسهل هذا من غيابة الجب؟ ولكنها عناية الله الحفيظ. (سورة يوسف الآية ١٠)

٩ ــ إجرامهم حتى في التنفيذ فبعد تدبير ومكر وكيد، حاولوا التنفيذ، قال ابن كثير جـ ٤ صفحة ١٣. (ذكر السدى وغيره: لم يكن بين إكرامهم له، وبين إظهار الأذى له إلا أن غابوا عن أعين أبيه وتواروا عنه، ثم شرعوا يؤذونه بالقول من شتم ونحوه، والفعل من ضرب ونحوه، ثم جاؤوا به إلى ذل الجب الذي اتفقوا على رميه فيه، فربطوه بحبل ودلوه فيه فكان إذا لجأ إلى واحد منهم لطمه وشتمه، وإذا تشبث بحافات البئر، ضربوه على يديه ثم قطعوا به الحبل من نصف المسافة فسقط في الماء).

١٠ ــ الخديعة والالتواء ومحاولة التظاهر بأنهم أبرياء ﴿قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا﴾ يا سبحان الله: ناصحون في التدبير والاجرام والقتل وتقطيع صلات القربى يقولون لأبيهم عن أخيهم يوسف: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَنَـٰصِحُونَ﴾ (سورة يوسف الآية ١١)

١١ ــ تأكدهم في ذات أنفسهم أنهم غير أمناء وغير مأمونين، حتى في نظر أبيهم ﴿مَالَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾. (سورة يوسف الآية ١١)

١٢ ــ استعمالهم القوة والتهديد، حتى لأبيهم ليصلوا إلى دنيء غرضهم ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً﴾ بالأمر. (سورة يوسف الآية ١٢)

هذا ويسترسل الشيخ بدران ويبدو أنه كان متأثراً او مطوراً لمنهج ابن كثير الذي يقول: في الجزء الرابع صفحة ١١ وأعلم أنه لم يقم دليل على نبوة أخوة يقول:

ومما يلفت النظر أنهم كلموا أباهم جميعاً فهم لا يأتمن بعضهم بعضاً جميعاً وصدق الله: ﴿ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾. وهذا شأنهم، وهذا جبنهم وهذا قتالهم، حتى يطهر الله الأرض منهم. وصدق الله.

﴿ لَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرىً مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ﴾. (سورة الحشر ١٤/٥٩).

١٣ ــ المداهنة بالألفاظ البراقة المطمئنة وبالدعايات الكاذبة الخادعة، وبالكلمات المزوقة المؤثرة ﴿ يَرْتَعْ... وَيَلْعَبْ ﴾(سورة يوسف الآية ١٢).

١٤ ــ ارتداؤهم غير ملابسهم وتخلقهم بالألفاظ لا بالعمل، وإعطاؤهم الوعود الكاذبة والمواثيق المؤكدة التي يصرون على نقضها وخيانتها حتى وقت النطق بها ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَـٰفِظُونَ ﴾. (سورة يوسف الآية ١٢).

١٥ ــ وثوق أبيهم في الذئب والوحش أكثر منهم ومن وعودهم، وعهودهم ومواثيقهم أنه يحزن بقوة وبكل تأكيد، وينقطع قلبه حسرة وكمداً وحزناً، أن يذهب أخوهم معهم، لأنه متأكد من غدرهم وخيانتهم وبطشهم إن شبعوا أما الوحش وأما الذئب فإنه يخاف مجرد خوف من أن يأكل يوسف إن تصادف وكان جائعاً أو مروعاً أو مهدداً لأن الوحوش كل الوحوش، لا تعتدي إلا في هذه الحالات. أما هم، فإننا نظلم الوحش والذئب، والإجرام والاغتيال إن نسبناه إليهم فلقد قال أبوهم لهم:

﴿ إِنِّي لَيَحْزُنُنِيٓ أَن تَذْهَبُواْ بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾(سورة يوسف الآية ١٣)

١٦ ــ ما أجرأهم على الكذب على أنفسهم وأسرعهم في تأكيد العهود بأغلظ المواثيق وهم متأكدون من قطعها مع مخادعهم، ومحاولة إظهارهم ما يطمئن غيرهم من ناحيتهم.

﴿ قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذاً لَّخَـٰسِرُونَ ﴾.(سورة يوسف الآية ١٤)

١٧ ـ مؤامرتهم المتلاحقة، حتى وقت تنفيذ الجريمة التي دبروها، ومكروا لها، وأجمعوا عليها، فهم لا يطمئنون حتى إلى قرار اتخذوه أو موثق واثقوا به أنفسهم: أن ينفذوه فلا بد من أن يدبروا وقت التنفيذ، ويجمعوا مرة أخرى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ﴾.(سورة يوسف الآية ١٥)

١٨ ـ إن عناية الله تحوط المؤمنين المخلصين المحسنين سريعاً وفي أحلك الأوقات لتنقذهم من شرور هؤلاء المجرمين فيطمئن الله عباده المؤمنين أن النصر لهم، ويقلب الله تدبير المجرمين إلى نصر عزيز للمؤمنين وإن امتد الزمن قليلاً.

هذا يوسف الغلام عليه السلام يلقيه الكبار في الجب. فتسرع إليه رحمة الله القريبة من المحسنين قبل أن يصل إلى (غيابة الجب) كما يقصدون بل وقبل أن يشعر بأذى أو بخوف أو حنين، فبمجرد أن قطعوا حبلهم عنه وصله الله بحبله المتين، وألقى عليه الأمن والأمان وبشره بما سيكون حيث قال العزيز الناصر رب العالمين:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾(سورة يوسف الآية ١٥)

الله أكبر.. اللهم نصرك.. وعنايتك.. ﴿ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

١٩ ـ نعود الى الكبار بالمنهج الذي يراهم به الشيخ بدران فيراهم الرجل ويبدو انه ركز اهتمامه بهم وعليهم قبل أن يتوبوا فيراهم: يمثلون أبشع الخسة والنذالة والذلة والهوان ﴿ وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴾ حيث الظلام قد خيم على ظلمهم الظالم المظلم.

٢٠ ـ بلاهتهم، وصغارهم حتى في التمثيل: بكاء، وحكاية قصة، واستدرار الدموع لتصديق التمثيل، بألفاظ كلها زور، وكذب وتضليل ولا يستطيع أحد أن يتخيل كيف كانوا يبكون، وهم المجرمون.

٢١ ـ خداعهم حتى لأبيهم وهو رسول الله يعقوب عليه السلام قالوا ﴿ يَٰٓأَبَانَآ ﴾ وهم يخادعون حتى في هذا اللفظ بعد كل هذا الذي حدث ضد هذا الوالد وضد ابنه الغلام الحدث.

٢٢ ـ توالي كذبهم وخداعهم حتى في الحادثة الواحدة: ﴿ ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ.. ﴾ ﴿ تَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَـٰعِنَا ﴾، ﴿ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ﴾ أعوذ بالله القوي الحكيم (سورة يوسف الآية ١٧).

٢٣ ـ إحساسهم الأكبر بكذبهم وتكذيب أبيهم لهم وعدم وثوقه بهم، وعدم ائتمانه لهم، أو الإيمان والتصديق لحديثهم ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾.
(سورة يوسف الآية ١٧).

٢٤ ـ إقرارهم على أنفسهم بأنهم هم الكذابون حتى في محاولتهم نفي الكذب على أنفسهم ﴿وَلَوْ كُنَّا صَـٰدِقِينَ﴾ (سورة يوسف الآية ١٧).

٢٥ ـ تفننهم في الإجرام والكذب حتى على الذئب، بعد أن كذبوا على أبيهم وعلى أخيهم وعلى أنفسهم، وعلى ربهم حتى على القميص، قميص يوسف
﴿ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾. (سورة يوسف الآية ١٨)

٢٦ ـ تكذيب أبيهم لهم، وكشفه لخبايا نفوسهم ومواجهته لهم بخسة ما سولته لهم أنفسهم: ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً ﴾.
(سورة يوسف الآية ١٨)

٢٧ ـ عدم استطاعة أبيهم عقابهم أو حتى العتب عليهم، أو القصاص منهم، مع أنه رسول لكونهم العصبة، المجرمة الغادرة، ولهذا أعرض منهم واعتصم بالصبر، والصبر مفتاح النصر، إن ﴿ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ اعتصم من أولاده بالصبر الجميل الذي تجمل عاقبته وتكرم نهايته ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

٢٨ ـ الإعتصام بالصبر عند الشدائد والمحنة، والصبر هو: قوة القوي التي تطوي الأحداث ولا تطوى، والتي تتلمس الفرج من الضيق، مهما أطبق الطريق وانحرف الابن أو الصديق أو الرفيق، فصبر جميل لأن الصبر هو العزمة الصادقة لتحقيق الأمل، وهو القوة النفسية الحقيقية للوصول إلى أعلى مثل،

فقد قال رب العزة سبحانه لخاتم النبيين ﷺ:

﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ (سورة الأحقاف الآية ٣٥)

٢٩ ــ الإستعانة الحقيقية بالله، وهي أقوى أسباب النصر والقوة في الحياة مهما خادع المنافقون ونافق المخادعون ومهما انحرف الماكرون ومكر المنحرفون ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَآ تَصِفُونَ ﴾. وصدق الله رب العالمين: ﴿ إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾. (سورة آل عمران ٣/ ١٦٠).

هذه اللمحات قليلة إلى بعض ما نستطيع حصره من ﴿ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾ في قول رب العالمين: ﴿ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ﴾.

من حول المشهد الأول فقط من قصة أخوة يوسف والذي قصه رب العالمين في اثنتي عشرة آية من أوائل السورة (٧ ـ ١٨): التي قال سبحانه في ختامها وفي الآية ١١١ منها:

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَـٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَـٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

أوكل هذا التاريخ الذليل للعشرة الكبار الأصول لبني إسرائيل، قد كشف عنه رب العزة في محكم التنزيل؟!

فلتشهد الدنيا، وليسجل التاريخ وليعتبر المؤمنون: جيلاً بعد جيل وهذا هو أقل القليل من بعض تاريخهم الطويل، ومما ورد عنهم حتى في توراتهم وفي الأناجيل. ولكننا هنا إنما نلتزم التاريخ الحق مما أشار إليه أو صرح به رب العزة في محكم قرآنه الحكيم الحق.

يقول الشيخ بدران بمنهجه الذي قد لا نقره عليه كلية: (. . . ولو حاولت الدنيا أن تستقصي العبرة من الشرور التي تتساقط من حول هؤلاء العصبة العشر لأظلم وجه الغبراء، ولزلزلت الأرض والسماء ولضاق عن مخازيهم ألف كتاب وكتاب، ولكنه التحذير والاستعداد للقضاء على هؤلاء الأوباش كما قال رب العالمين الحليم ذو الطول شديد العقاب:

﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ ما دامت الدنيا إلى يوم الحساب لكنه قد يثار سؤال أمام الشيخ بدران مؤداه أنه يقال عنهم في السنة النبوية أنهم تابوا إلى ربهم واستغفروه من ذنوبهم وتوسلوا الى الله بأخيهم، وبأبيهم، فاستغفر لهم أخوهم واستغفر لهم أبوهم وأنهم ﴿الأسباط﴾. وهذا ولا شك منهج قد يضع الآباء في موقف يختلفون فيه مع الأبناء ولكنه الدرس والعبرة.

(أضواء قرآنية على دفائن النفس اليهودية)

بعض الباحثين الغربيين ومعهم الكتّاب اليهود عندما يكتبون عن التراث اليهودي يحاولون بغير ما موضوعية إبراز جوانب إبداعية في شخصية اليهودي التاريخية، وهم في ذلك لا يبالون في أن يجعلوا من كل الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والعلمية قرائن على دور الشخصية اليهودية في مجالات الحياة المختلفة وللأسف فإن بعض الكتّاب المسلمين وقع في هذه المصيدة وأرجع كل تقدم وكل بحث رائد إلى دور اليهود التاريخي، وفي الجانب الأخلاقي والعقدي الذي يعنينا هنا وعلى ضوء خبر القرآن وقف بعض العلماء كإبن كثير[1] رحمه الله موقفاً مفوضا فيه ووقف الشيخ بدران يطالع[2] الآيات الكريمة التي تصف وتتحدث عن أخلاق العشرة الكبار فيرى في تشدد: أن التسامح مع هؤلاء الآباء وتبرير تصرفاتهم على أنة صدر عن قلب نقي عارف بالله وعقل يبحث عن الهدى إنما موقف متسامح أكثر من

---

(١) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم جـ ٤ صفحة ١١ وما بعدها.

(٢) محمد بن فتح الله بدران الفلسفة الحديثة في الميزان طـ ٢ صفحة ٥٣٥ ـ ٥٥٥.

اللازم، لأنه في هذه القضية التي معنا لم يرد في القرآن ما يشعر بأنهم تابوا، أو ندموا أو اعترفوا إلى الله أو توسلوا إلى الله لا بأخيهم يوسف ولا بأبيهم يعقوب عليهما السلام.

وإنما الذي صرح به القرآن على ضوء ما فهم الشيخ وما ذهب إليه: أنهم تمادوا في الضلال والبهتان واستحكموا وزادوا في الخزي والطغيان قرابة نصف قرن من الزمان: مدة مقام يوسف في بيت العزيز، وهي قرابة ربع قرن وبقاء يوسف في السجن، وهي قرابة عشر قرن، وتولي خزائن الأرض وبدل العزيز أكثر من عشر قرن حتى جاؤوا اليه أذلة، يمتارون ويستجدون الصدقة.

ولما طلب إليهم العزيز (يوسف عليه السلام) أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم هو «بنيامين» رجعوا إلى أبيهم وقالوا كما قالوا عن يوسف تماماً وورد عليهم أبوهم بما يدفعهم بالخزي ...

﴿ و... جعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَبِيهِمْ قَالُواْ يَـٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ ... لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ، قَالَ ... ءامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ... حيْرٌ حَـٰفِظاً ... ...حِمِينَ ﴾. (سورة يوسف ٦٣/ ٦٤).

لقد ذهبوا ... العز... لا يعرفونه، وطعنوا على يوسف وأخيه أمامه، فقد قالوا زوراً وبهتاناً عن يوسف العزيز، ولم يعرفوا أنه هو يوسف! وهم يتحدثون إليه عن أخيه الشقيق «بنيامين».

﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾. (سورة يوسف ١٢/ ٧٧).

ثم رجعوا إلى أبيهم بغير أخيهم وكان أبوهم قد آخذ عليهم موثقاً من الله: ألا يرجعوا إلا به، إلا أن يحاط بهم وقالوا لأبيهم؛ ﴿ يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ فما كان من يعقوب عليه السلام إلا أن كرر نفس الألفاظ التي قالها لهم لما رجعوا إليه

بالدم الكذب على قميص يوسف.

﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾.

﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ، قَالُواْ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ، قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾. (سورة يوسف ٨٤/٨٦).

ثم رجعوا إلى العزيز يستجدون، فكشف لهم يوسف عن نفسه:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَـٰهِلُونَ، قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَا أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ (سورة يوسف ٨٩/ ٩٠).

وفي حقد وذلة وهون، وأمام قوة العزيز فقط، سجلوا خطاهم ولم يتوبوا ولم يستغفروا ولم يتوسلوا ليوسف أن يستغفر الله لهم، أو أن يصفح هو عنهم، ولكنه يوسف: الكريم ـ ابن الكريم ـ عليهم الصلاة والسلام صفح عنهم ودعا لهم ولم يعتب عليهم:

﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَـٰطِئِينَ، قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّحِمِينَ ﴾. (سورة يوسف ٩١/٩٢).

وكأنهم ليسوا أهلاً حتى للعقاب، ولعله طمأنهم، وصفح عنهم، ليذهبوا بقميصه الحقيقي إلى أبيهم ليرجع إليه بصره، ولعل يوسف عليه السلام أعطى قميصه لبشير من غيرهم، خوفاً من كيدهم وخزيهم، وفعلا حصل ما توقع يوسف عليه السلام، فلقد حاولوا الحيلولة بين قميص يوسف الحقيقي وبين يعقوب عليهما السلام، حتى لا يطمئن إلى وجود لولده، وحتى لا يرجع إليه بصره.

ولكن الله سبحانه قد أراد، ولكن أباهم سجل عليهم، ولكنهم قد سجلوا على أنفسهم،أراد الله أن يلقي البشير القميص على وجه يعقوب عليه السلام، فيبصر، وسجل عليهم أبوهم أنهم ازدادوا طغياناً وبهتاناً حتى أصبحوا يكذبون جهاراً ويفترون على كل أقواله وأفعاله، كفراناً وفجاراً: ﴿ لَوْلَآ أَن تُفَنِّدُونَ ﴾ وسجلوا هم على أنفسهم: أنهم ازدادوا على توالي الزمن قرابة نصف قرن، عتوا ومجاهرة، ومواجهة لأبيهم بالسباب وبأشد وأقصى أنواع التأكيد والتهديد بالعقاب: ﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾.

مع أنهم من قرابة نصف قرن من الزمان كانوا لا يواجهون أباهم بهذا السباب اللعين.

﴿ إِذْ قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (سورة يوسف الآية ٨)[١].

ولكنهم الآن يواجهون، وبالله يقسمون، ولكن يا ترى: بأي رب يحلفون؟ فلما أسقط في أيديهم، وخيب الله كيدهم، وأحبط تدبيرهم: جبنوا. وذلوا، وهانوا، وضعفوا، واعترفوا بذنوبهم وخطئهم، وطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم، وكأنهم استكبروا حاقدين، وحقدوا مستكبرين، فلم يصرحوا بطلب المغفرة من أبيهم ومن ربهم أو أن يستغفر أبوهم لهم ربهم.

يقول رب العزة الحكيم الخبير عقب أن قال لهم يوسف:

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ،

---

(١) ابن كثير عند تفسير هذه الآية أكثر سلامة وأمنا فهو عند قول الله تعالى (أن أبانا لفي ضلال مبين) يفسرها بقوله: يعنون في تقديمه علينا ومحبته اياه أكثر منا. ثم عاد وقال: (وظاهر هذا السباق يدل على خلاف ذلك). راجع تفسير ابن كثير جـ ٤ صفحة ١١.

ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِي هَـٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ، وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلاَ أَن تُفَنِّدُونِ، قَالُواْ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَـٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ فَلَمَّآ أَن جَآءَ ٱلْبَشِيرُ أَلْقَـٰهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ بَصِيراً قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ، قَالُواْ يَـٰأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَـٰطِئِينَ، قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾.

(سورة يوسف ٩٢/٩٨).

يا سبحان الله لم يقل ربكم، أو حتى: رب العالمين، أو ربنا، مما يشعر بأنهم بعيدون عن رحمة الربوبية، ألم يقسموا بالله ويؤكدوا أن أباهم الرسول في ضلال، وأيضاً لم يقل نعم استغفر أو سأستغفر، وإنما قال ﴿ سَوْفَ ﴾ التي تفيد التسويف البعيد، البعيد زماناً، ولا يدري أحد هل استغفر لهم أو لا.

والبعيد رتبة، وكأنهم ليسوا أهلاً للاستغفار، بل ولم يشر القرآن أنه استغفر لهم ثم ويجب أن نقف طويلاً وبعمق، عند تعبير القرآن الكريم عن رجوعهم جميعاً إلى يوسف عليه السلام، حيث يقول رب العزة:

عن أبي يوسف وأمه ﴿ فَلَمَّآ دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ آوى إِلَيْهِ أَبَوَيْه ﴾ الآية ٩٩ وقبل ذلك في الآية ٦٩: يقول عن هؤلاء العشرة ومعهم أخو يوسف الشقيق:

﴿ وَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّيٓ أَنَاْ أَخُوكَ فَلاَ تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

* * *

لنستنتج سريعاً: إن يوسف عليه السلام آوى إليه أخاه وأبويه فقط، وكأن هؤلاء الثلاثة هم الذين ضمهم يوسف عليه السلام إلى نفسه لأنهم منه

ويستحقون، فآواهم لأنهم فقط هم المؤمنون من بين هؤلاء أجمعين:

ولعلنا نتذكر هنا سريعاً تذكير الله للمؤمنين حيث يقول:

﴿ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾.
(سورة الأنفال ٨/ ٢٦)

أما هؤلاء العشرة العصبة الكبار فهم لا يستحقون أن يؤويهم يوسف عليه السلام وإنما فقط أطعمهم وسقاهم، وأجرى عليهم ما يحفظ حياتهم.

ثم وقول يوسف لأخيه: ﴿ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ ﴾ بما يفيد الحصر والعصر يؤكد أن هؤلاء العشرة العصبة لا يصلحون [بغير توبة]للأخوة الإيمانية ولا الإنسانية ولا القومية ولا الأسرية ولا النسبية لأنهم [كانوا] قطعوها كما قطعوا جميع الصلات والقرابات والمواثيق والمعاهدات.

ولقد ورث أبناؤهم كل هذه الصفات بل ولقد زاد عليها بنو إسرائيل الآن ويزيدون الكثير والكثير من المخازي والمخزيات والفواحش والمفحشات. وإنها العبرة والتبصرة والذكرى.

وكل مؤمن، أو عاقل في أنحاء الدنيا متأكد تماماً أن كل هذه الصفات الدنيا التي كانت قد جرت في دماء العشرة الكبار من بني إسرائيل، هي هي، بل وأشنع منها وأفحش، تلك التي تجري إلى الآن وإلى قيام الساعة في دمائهم تنطلق بذلك أفعالهم ويؤكد ذلك سلوكهم وتبرهن دائماً على ذلك تصرفاتهم.

يقول الشيخ بدران وإني أود أن أقرر بقوة وأكرر المرة بعد المرة: إن سورة يوسف تقرر بعمق وتأكيد للعبرة أن هؤلاء الإسرائيليين الكبار العشرة: لا وطن لهم، ولا قبيلة تجمعهم ولا حاكم يحكمهم، ولا قائد يقودهم، ولا وال يؤثر فيهم ولا أخلاق تهذب سلوكهم، ولا دين يلين قلوبهم، ولا مثل تتجه إليها أعمالهم، ولا

إنسانية تطهر من نفوسهم، وانهم لا يجتمعون إلا على عصبة من أجل إمتصاص الأموال والمقدسات، والحريات بالخديعة وبالقوة وبالإفتراءات.

وهم لا تخضعهم إلا القوة، وقد خضعوا قليلاً لقوة العزيز، عزيز مصر قبل أن يعلموا أنه يوسف، وبعد أن علموا أنه يوسف، بل ولعل حقدهم القديم ازداد على يوسف عليه السلام.

ولا يستطيع عاقل أن يتصور كيف يسوغ لأحفاد هؤلاء أن يذعوا الوطن أو الخلق أو الدين، وكل هذه بريئة منهم، كبراءة الذئب من كذبهم. والقميص من افترائهم خصوصاً وقد لعنهم كل رسلهم وزادهم القرآن ودمغهم.

يقول الشيخ محمد بن فتح الله بدران:

وقد يقول قائل: وكيف لا دين لهم وهم أبناء رسول وأخوة رسول؟ بل وهم أحفاد رسول؟ بشر به إبراهيم الخليل؟!

فإنا نستطيع أن نقول: أما إنهم أخوة وأبناء وأحفاد لرسل الله، فهذا صحيح ولكنه لا يغني عنهم شيئاً من الله لأن كل إنسان مجزي بسعيه، ومحاسب على عمله يوم:

﴿ لَّا يَجْزِي وَالِدٌ عَن وَلَدِهِ وَلاَ مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾

(سورة لقمان ٣١/ ٣٣)

ولقد تقرر ذلك في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، يقول رب العزة:

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ، وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ، أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ، وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ، ثُمَّ يُجْزَيٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ، وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنْتَهَىٰ ﴾.

(سورة النجم ٥٣/ ٣٦ ـ ٤٢)

وطبق هذا رب العزة عملياً وقصه على الإنسانية قصصاً قرآنياً حقيقياً واقعياً، فضرب سبحانه المثل بابن نوح، وأبي إبراهيم، وامرأة نوح، وامرأة لوط، حيث كانوا كفرة فجرة ولم يغن الرسول من هؤلاء عن أمومتهم شيئاً، ولقد قالها خاتم المرسلين ﷺ لبضعته الزهراء فاطمة: «يا فاطمة إن أباك لا يغنى عنك من الله شيئاً...».

ثم وهؤلاء الفجار العشرة الكبار لم يعترفوا برسالة أبيهم ولا برسالة أخيهم، فقد علمنا في أول عصبتهم كيف دبروا القتل مع الترصد وسبق الإصرار للطفل البريء أخيهم يوسف، ودبروا جريمة الكيد الكافر الفاجر لأبيهم الرسول يعقوب عليه السلام وفعلوا ما فعلوا. مع تدبير المؤامرات المتلاحقة، وكلما طال الزمن بهم اشتد بهم فجورهم، وضلالهم في أواخر أيامهم وقد صاروا آباءً وأجداداً، اتهموا يوسف الصديق بالسرقة في مواجهته وهو عزيز مصر ولم يعرفوه، وجاهروا أباهم الرسول ابن الرسول بالسب العلن والفحش المؤكد القوي، حيث قالوا له، وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم:

﴿ تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴾. (سورة يوسف الآية ٩٥)

ثم لم يعترفوا لأبيهم بالرسالة حتى لم يستغلوها أمام أخيهم الرسول يوسف وحتى لم يتلوها، وقد كانت تفيدهم لو أرادوا مخلصين الرجوع بأخيهم «بنيامين» إلى والدهم يعقوب الرسول من رب العالمين.

وكأنهم دبروا أو استحسنوا ترك أخيهم عند العزيز عبداً.

وكأنهم استحسنوا أو دبروا فجيعة أبيهم في ولديه ولداً. ولداً.

﴿ قَالُواْ يَـٰأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾ وكأن نفوسهم الحاقدة وألسنتهم الكاذبة لم تطاوعهم أن يقولوا: ﴿ رَسُولاً ﴾ لا وحده ولا مع كونه ﴿ شَيْخاً كَبِيراً ﴾.

وهذا الموقف وحده كان يدفعهم بكل قوة إلى أن يتوبوا من ذنوبهم وأن يستغفروا إلى ربهم وأن يعترفوا بل ويؤمنوا بدين أبيهم وملة جدهم وجد أبيهم.

وربما لو فعلوا لتغير الموقف كله، ولكنهم أصروا على تكفيرهم للرسول وللرسالة وللملة، ونبذوا الدين وراءهم ظهرياً، وحاوروا ـ على ضعف واستجداء العزيز ملياً.

﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُواْ مِنْهُ خَلَصُواْ نَجِيّاً ﴾. (سورة يوسف الآية ٨٠)

وقد يثار سؤال حول وصية يعقوب لبنيه: ألم يوصهم بالدين فنفذوا وباقرار الله بالعبادة فامتثلوا؟!

لكننا نقول: يا ليت قومي يعلمون، ان من أخطر الدعايات الصهيونية والدسائس الإسرائيلية ادعاءهم التمسك بالدين، وهم وأصولهم الكبار من قبل قد كفروا بالدين ورب الدين، وبرسل الله أجمعين، حتى لعنتهم رسلهم، وانتزع الأمان والأمانة منهم. أما وصية يعقوب فقد جاءت بعد وصية إبراهيم الخليل عليهما السلام، لما رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل عليهما السلام ودعيا الله بأن يكونا مسلمين ومن ذريتهما أمة مسلمة وبرسول الإسلام الخاتم عليه السلام، وطلب إبراهيم استمرار ملته وإكمالها بالأسلام، فقال هو وإسماعيل عليهما السلام:

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْـحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

(سورة البقرة: ١٢٩)

وقال رب العزة:

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمُ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي ٱلآخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ، إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ، وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ الَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمُ وَإِسْمَـٰعِيلَ

وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾.

(سورة البقرة ١٣٠ ـ ١٣٣)

أما بنو إبراهيم من ذرية إسماعيل فقد امتثلوا ونفذوا، ولم يحتاجوا إلى تكرار الوصية أو التوجيه، ولم يحتاجوا لانشغال إبراهيم بهم حال وفاته.

أما بنو إسرائيل فقد انشغل أبوهم بهم وعليهم حتى حين حضره الموت وكأنه لم يثق حتى في فهمهم لمعنى الدين لأنهم عنه معرضون، فجمعهم جميعاً حال احتضاره وسألهم عن مدى فهمهم للدين، وكيف ينفذون ويطبقون إن نفذوا أو طبقوا أو كانوا من المؤمنين.

هذا وبنو يعقوب جميعاً في منهج الشيخ محمد بن فتح الله بدران[1] ثلاث طوائف:

طائفة تمثل الرسل: ويمثلهم يوسف عليه السلام.

وطائفة تمثل المؤمنين: ويمثلهم أخو يوسف (بنيامين)

وطائفة هم الكفرة الفجرة: وهم العصبة الكبار العشرة.

ولقد جمع يعقوب عليه السلام جميع بنيه، ولما حضره الموت وسألهم: ما تعبدون من بعدي؟ سؤال غريب يدل على كثير من دخائل القلوب، ولعله أراد أن يرد المؤمنون ليهتدي بعض الكافرين أو يرعوي بعض المفسدين، أو يتوب إلى رشده بعض الضالين، وكأني بهم، في إجابتهم قد أجاب عنهم، وطبق وصية أبيهم: إثنان فقط من بقية المؤمنين، هما يوسف عليه السلام وأخوه بنيامين.

وكأني بالعصبة الكبار منهم قد ترفعوا بأنفسهم، ودلوا بعصبتهم وانغمسوا في شهواتهم وأخلدوا إلى دنياهم وديانتهم، لأنهم رغبوا عن ملة إبراهيم أصلاً ودين يعقوب، ففهموا نفوسهم، ثم هم لم يعبدوا إلهاً واحداً هو إله إبراهيم وإسماعيل

---

(١) المصدر السابق.

واسحق، لأنهم لم يؤمنوا بواحد منهم ولم يستجيبوا لرسول من رسلهم ولأنهم ركبوا الشيطان بل ركبهم، وعبدوا الخسيس من ميولهم وأهوائهم.

ثم هم الكاذبون، حتى في قولهم ﴿ نَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ كما توالت سلسلة كذبهم ولو أسلموا، لسلموا وسلمت الدنيا من شرورهم.

وكم واثقوا، وكم عاهدوا، وكم وصاهم أبوهم، فغدروا، ونقضوا وكفـروا، ولم يسلم حتى أبوهم من كيدهم وغدرهم.

ولقد سجل رب العالمين:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقاً كَذَّبُواْ وَفَرِيقاً يَقْتُلُونَ ﴾.

(سورة المائدة ٥/ ٧٠)

وصدق الله:

﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾.

(سورة الصف ٦١/ ١٤)

* * *

الأسباط وحقيقتهم القرآنية:

هنا سؤال قد يثار: وأين إذا من الأسباط مكانهم؟ أو ليسوا من الأسباط أم الأسباط منهم؟! أو ليسوا ـ كما قيل ـ هم الأسباط دون غيرهم؟! والأسباط مؤمنون بربهم؟ بل ويجب علينا الإيمان بهم، وعدم التعرض لهم.

يقول الشيخ محمد بن فتح الله بدران عند هذه القضية: فلنتمهل ونتق الله ونتدبر ونتفهم.

ثم نتتلمذ على كتاب الله، وهو القول الفصل المحكم.

ثم نحتكم إلى سنة رسول الله ﷺ.

ولكن بشرط أن نقف في استفادة وأدب، عندما نؤخذ بأدبنا لنتفهم كلام الله، والأصل المحقق في أمهات الكتب. أعني كتب السنة المطهرة.

لنعرف شيئاً عن الأسباط:

ولنشر بذلك إلى تأسيس قاعدة قرآنية محكمة، تقوم على أساسها فقط مناهج البحث الديني والعلمي، إن أردنا من مناهج البحث أن نأخذ بيد الإنسانية إلى صريح الدين وصحيح العلم وصروح السعادة.

والآن إلى القرآن، إلى كتاب الله وهو الحجة، لأنه: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ﴾ (سورة فصلت الآية ٤٢) نسلم خاشعين له ولا نتعداه إلى غيره إلّا لمحاولة فهم ما نستطيع منه.

فقد ورد فيه لفظ الأسباط خمس مرات: مرة نكرة، وأربع مرات معرفة منها المرة الواحدة النكرة، وقد نزلت في مكة، والمرات الأربع المعرفة قد نزلت في المدينة.

والمرة الوحيدة التي ورد فيها لفظ أسباط بدون (الـ) نزلت في مكة وقد جاءت في الآية ١٦٠ من سورة الأعراف ورقم هذه السورة في المصحف ٧ وترتيب نزولها من بين السور في القرآن ٣٨.

وتدل على أسباط أمم: هود، أو من اليهود: من بني إسرائيل بعد موسى وهؤلاء هم أسباط بني إسرائيل.

أما المرات الأربع المعرفة والتي ورد فيها لفظ (الأسباط) بالألف واللام والتي نزلت في المدينة: فقد جاءت في سورة البقرة مرتين وفي كل من الآية ١٣٦ والآية ١٤٠.

وفي سورة آل عمران مرة، في الآية ٨٤.

وفي سورة النساء مرة، في الآية ١٦٣.

وهذه السور الثلاث في مفتتح المصحف بعد الفاتحة، وسورة البقرة هي أول سورة نزلت عقب الهجرة.

وترتيب هذه السور في المصحف على التوالي ٢و٣و٤.

ورتب نزولها من بين سور القرآن الكريم على التوالي كذلك: ٨٦ و٨٨ و ٩١ وكلها تدل على غير أسباط بني إسرائيل.

وليس في هذه المرات الخمس بل ولا في مرة: مما يشير من قريب أو من بعيد إلى أخوة يوسف العشرة، بل ولا إلى واحد من هؤلاء العصبة الفجرة الذين دبروا لأخيهم ولأبيهم بل وللإنسانية كلها الجرائم المنكرة.

وليوسف أخوة وله صواحب، وكلا الجنسين أصحاب مكايد ومقالب، ولكن الله القوي العزيز الغالب قد أحبط من حوله جميع المكايد لأنه من المحسنين:

﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ، وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَـٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

(سورة يوسف ١٢/ ٢١ ـ ٢٢)

ثم أن مجرد التلاوة لهذه الآيات التي ذكر فيها شيء عن الأسباط في القرآن كله يؤكد بكل صراحة وقوة: إن أخوة يوسف ليسوا هم، الأسباط ولا الأسباط منهم، فلا مكان لهم من الأسباط ولا صلة لهم بهم. لأن لفظ الأسباط في القرآن كله لا يصح أن يطلق عليهم، لأنه يدل صراحة على غيرهم للأسباب الواضحة الجليلة والتصريحات القرآنية التي هي فوق الدلائل البديهية، والتي نستطيع الآن أن نلفت إليها كل الناس باشارات سريعة إلى قاعدة من قواعد الأساس، نشير إلى بعض ركائزها الآن من بين آيات رب العزة الحكيم الخبير في القرآن ما يلي:

أولاً: تؤكد آية الأعراف أن الأسباط الأمم الاثني عشرة، إنما هم أمم بعدد عيون الحجر الاثني عشر، وأنهم بعد موسى عليه السلام ومن قومه.

وبدهي أن موسى ولد بعد وفاة كل أخوة يوسف بعديد من القرون والأجيال، وأنه عليه السلام حتى على حكاية التوراة من الجيل الخامس على الأقل لإسرائيل، ولكن لا علينا من التوراة الآن لأننا إنما نؤرخ الحق بالحق وللحق من القرآن.

وتؤكد آية الأعراف كذلك، أن الله سبحانه قطع هؤلاء الأمم الأسباط في الأرض، وأنه سبحانه أعلم كل أناس منهم مشربهم من الحجر الذي انبجس منه الماء، وأن ذلك كان في أواخر زمان موسى عليه السلام، لأنه كان بعد ما كان بين موسى وهارون وفرعون وهامان، وبعد إسلام السحرة بين موسى وهارون وبعد أن جاوز الله بني إسرائيل البحر، وبعد أن عبدوا العجل الذهبي من دون الله عقب أن نجاهم الله، وبعد أن أتم موسى ميقات ربه تضرعاً إلى الله، وبعد أن أتم موسى ميقاته، وبعد أن رجع موسى إلى قومه غضبان آسفاً، وبعد أن قال الله عنهم:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾. (سورة الأعراف الآية ١٥٢)

وبعد ست آيات فقط أشارت إلى مخازيهم المخزيات يقول سبحانه:

﴿ وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ، وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطاً أُمَماً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ ٱسْتَسْقَٰهُ قَوْمُهُ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

(سورة الأعراف ٧/ ١٥٩ ـ ١٦٠)

فلا يمكن أن يكون هؤلاء الأسباط اليهود الذين ظلموا أنفسهم أيضاً كأخوة يوسف ـ هم أخوة يوسف، وإنما هم من قوم موسى ومن بعده وأنهم أمم سقي الله آباءهم زمن موسى وسقاهم من بعد موسى من الحجر، وأكرمهم الله كثيراً ولكنهم تمردوا، وظلموا، وبدلوا، ورجعوا إلى طابع المفسدين ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

هؤلاء هم أسباط بني إسرائيل الذين كانوا هودا أو نصارى.

ثانياً: تؤكد الآية ١٤٠ من سورة البقرة الرد القوي الحازم على ادعاء بني إسرائيل أن الأسباط المعرفين بالألف واللام كانوا هودا أو نصارى من بني إسرائيل وكأن الآية تشير إلى أن أسباطهم نكرة، وقد قطعهم الله في الأرض اثنتي عشرة أسباطاً أمماً بعد موسى عليه السلام كما ورد في آية الأعراف.

وتفحم آية البقرة هذه الآية رقم ١٤٠ كل مزاعم اليهود والصهاينة من بعدهم وكل من انخدع بدسائسهم ومفترياتهم وزعم أن (الأسباط) في آية ١٣٦ من سورة البقرة أيضاً والتي بينها وبينها ثلاث آيات فقط، كانوا من اليهود أو النصارى من بني إسرائيل، أو أنهم كانوا أخوة يوسف أو أبناءهم، حيث يقول رب العزة في الآية ١٤٠ لبني إسرائيل ولكل المؤرخين عن بني إسرائيل:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَانتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾. (سورة البقرة الآية ١٤٠)

ثالثاً: أما آية البقرة ١٣٦ والتي يحاولون التمسك فيها والدس من حولها فتؤكد: إن «الأسباط» قد أنزلت إليهم رسالات وهم من المسلمين، ويجب على المسلمين الإيمان بهم كما يجب الإيمان بإبراهيم وإسماعيل وغيرهما من رسل الله، وهما اللذان قالا ﴿ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك﴾ ففي الآية ١٣٦ من سورة البقرة يأمر جميع المؤمنين رب العزة بقوله:

﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ

﴿وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾.

فهل أنزل دين أو فرقان إلى أخوة يوسف أو إلى أحد من أبنائهم قبل موسى كما أنزل على محمد وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام؟ اللهم لا.

رابعاً: تؤكد الآية ٣٤ من سورة غافر ٤٠:

إن بني إسرائيل جميعاً من إسرائيل نفسه (يعقوب) إلى موسى عليهما السلام، لم يرسل الله فيهم رسولاً غير يوسف عليه السلام، ولم ينزل الله إليهم كتاباً ولا نبياً، ولم يبعث فيهم ولا منهم ولا لهم أحداً مطلقاً: لا رسولاً ولا نبياً ولم ينزل على أحد منهم وحياً مطلقاً، لا وحي نبوة ولا وحي رسالة حيث يقول سبحانه على لسان الرجل المؤمن من آل فرعون لآل فرعون ولبني إسرائيل جميعاً لأنهم جميعاً في مصر بادون، جاء بهم يوسف من البدو حتى أخرجهم موسى إلى البدو، حيث يقول رب العزة:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾.

وعلى هذا فليس هناك ـ بصريح هذه الآية ـ رسالة ولا رسول ولا نبي ولا كتاب من يوسف إلى موسى عليهما السلام، فأين مكان أخوة يوسف من الرسالة والدين، أو أين مكانهم من الأسباط وقد أنزل الله إليهم الدين؟!

ثم ذكر القرآن الكريم من بعد موسى كثيراً من الرسل والرسالات والكتب والنبوات في بني إسرائيل من أمثال: داود، وسليمان، وزكريا، ويحيى وعيسى عليهم السلام، وكأن القرآن لم يترك منهم رسولاً أو رسالة حتى من أرسله إلى مائة ألف أو زيادة، وفي الوقت ذاته لم يصرح القرآن بأسماء رسل ولا كتب ولا رسالات في بني إسماعيل عليه السلام، من إسماعيل عليه السلام إلى خاتم النبيين محمد ﷺ، وإنما

ذكر بعض أقوام أو أمم منهم كذبوا رسلهم، مع أن الأمم من بني إسماعيل كانوا أصدق، وأرسخ وأكثر.

وكانوا أصحاب المناسك والمشاعر هم الذين استحفظهم الله بيته الحرام، واستأمنهم ملة إبراهيم عليه السلام، وتسلسل فيهم الإسلام في بني عدنان أو في أمم من بني قحطان الذين منهم الأنصار، ومنهم قوم تبع وأصحاب الرسل وسبأ وممن كذبوا الرسل، فحق عقاب.

وقد قال سبحانه: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾. (فاطر ٣٥/ ٢٤).

وقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً ﴾. (النحل ١٦/ ٣٦).

كما بيّن رسول الله ﷺ أن عدد المرسلين **٣١٥** على الأقل.

خامساً: تؤكد آية آل عمران أن الدين عند الله هو الإسلام، وأنه سبحانه أنزله على جميع رسله حتى أكمله برحمة العالمين محمد ﷺ. فأكمل به الدين، وأنه سبحانه أنزل كتبه ورسالته على أشخاص الرسل لأممهم، وعلى الأمم في أشخاص رسلهم وذكر بعضاً من هؤلاء وهؤلاء.

حيث يقول رب العزة:

﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعاً وَكَرْهاً وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ، قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ علينا وما أنزل عَلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ، وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَـٰمِ دِيناً فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾.

(سورة آل عمران ٣/ ٨٣ ـ ٨٥)

وتؤكد هذه الآيات كذلك أن الأسباط قد أنزل الله عليهم الدين والإسلام أنزل على محمد ﷺ وعلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب عليهم السلام، كما تحتم هذه الآيات وجوب الايمان بهؤلاء جميعاً، وبما أنزل الله عليهم جميعاً، بل

وبجميع رسل الله ودين الله وهذا هو الاسلام.

وقد ذكر رب العزة الأسباط، وأنه أنزل إليهم الدين وأنزل عليهم الدين وذكرهم الله فيما بين يعقوب وموسى عليهم السلام، وقد سبق أن تأكدنا من أن آية غافر ٤٠/ ٣٤ تؤكد أنه ليس في بني إسرائيل جميعاً من يعقوب إلى موسى وهارون رسالة ولا رسول، ولا كتاب، ولا دين أنزل إلى واحد منهم، أو أنزل على واحد منهم بما فيهم أخوة يوسف، غير يوسف فقط عليه السلام فأين أخوة يوسف من الأسباط كما تؤكد آية البقرة: ١٤٠ أن الأسباط بالألف واللام ليسوا من بني إسرائيل من زمن موسى ولا من بعده، كما أنهم ليسوا من بني إسرائيل جميعاً من موسى إلى يعقوب (إسرائيل نفسه).

سادساً: تشير الآية ١٦٣ من سورة النساء إلى أن الوحي أنواع كثيرة وأن أعلى أنواع الوحي هو وحي الرسالة ويليه وحي النبوة، ولكل درجات ثم تنبه هذه الآية إلى أن الوحي فيها هو وحي الرسالة، وإلى أن كل نبي يوحي إليه وحي نبوة، وإلى أن كل رسول هو نبي أيضاً ودائماً، لأن الله سبحانه إنما يصطفي من خواص أنبيائه من يمنحهم الرسالة فيوحي إليهم وحي الرسالة، فقد قال سبحانه لخاتم رسله وأنبيائه محمد ﷺ:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ﴾.

وقد ذكر القرآن أن ادريس عليه السلام كان نبياً، وهو قبل نوح عليه السلام، وليس من بعده، فهذا الوحي في هذه الآية هو وحي الرسالة.

ثم ذكرت الآية أن الأسباط قد أوحى الله إليهم وحي الرسالة هذا وتمام الآية هو قوله سبحانه لخاتم المرسلين والنبيين محمد ﷺ:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ

وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُوراً ﴾.

ثم ويؤكد أن هؤلاء المذكورين كلهم رسل، وأن الوحي إليهم جميعاً هو وحي الرسالة قوله سبحانه عقبها مباشرة لخاتم الرسل ﷺ:

﴿ وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾.
(سورة النساء الآية ١٦٤)

فهل يمكن أن يكون أخوة يوسف رسلاً؟ ويجب الإيمان بهم وبما أنزل إليهم وبما أنزل عليهم؟

وهل يمكن أن يكون أي واحد من أخوة يوسف رسولا؟ أو أنزل عليه دين أو بلغ ديناً؟ حتى يجب الإيمان بهم وبما أنزل إليه وبما أنزل عليه الله؟؟!

وهل يمكن مع هذا كله أن يكون في أي واحد من بني إسرائيل إلى موسى عليه السلام غير يوسف طبعاً عليه السلام - رسالة أو دين أنزله الله إليه وأنزله الله عليه. ويجب علينا الإيمان به، وبما أتاه الله من كتاب، وحكمة؟

خصوصاً وقد صرح القرآن الكريم أن جميع النبيين قد أتاهم الله من الكتاب ومن الحكمة، وأنزل إليهم من الكتاب ومن الحكمة، حتى أكمل الله الكتاب وأتم الحكمة جميعاً بخاتم النبيين ﷺ وجعله سبحانه هو المصدق لكل ما مع النبيين والمرسلين، وما آتاهم الله، ومهيمناً عليهم جميعاً وعلى ما آتاهم الله، وذلك بنص ميثاق النبيين كما ورد في سورة آل عمران في الآيات ٨١ - ٨٣ وقبل آية آل عمران السابقة في خامساً مباشرة وذلك قوله سبحانه:

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَـٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَٱشْهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ، فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ

ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ، أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ ﴾.

ولعله مع هذا كله قد آن لنا أن نتأكد في تقرير وأن نقرر في تأكيد: أن أخوة يوسف ليسوا الأسباط بل وليسوا أسباطاً.

وأن فريقاً أو أمة من بني إسرائيل إلى موسى ليسوا من الأسباط وليسوا أسباطاً، وأن من قوم موسى ومن بعدهم ومن قطعهم الله اثنتي عشرة أسباطاً أمماً، وأن الأسباط المعرفة بالألف واللام ليسوا من قوم موسى ولا من بعده: لا هوداً ولا نصارى، وليسوا من قبل موسى إلى إسرائيل نفسه.

وأما سابعاً:

فتعالوا بنا نطلع في يقين لنتدبر خاشعين ونخشع متدبرين أمام قول رب العالمين لرحمة العالمين: السابق واللاحق للآية السابقة، ولنؤرخ الحق لكل من يريد الحق وللأجيال اللاحقة من كتاب رب العالمين الحق وآياته الصادقة:

. ﴿ يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰباً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰناً مُّبِيناً، وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَـٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّداً وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُواْ فِي ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقاً غَلِيظاً، فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَـآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلاً، وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَـٰناً عَظِيماً، وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً، بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً،

وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً، فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَـٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيراً، وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً، لَّـٰكِنِ ٱلرَّاسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ والمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلأَخِرِ أُوْلَـٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْراً عَظِيماً، إِنَّـآ أَوْحَيْـنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُـوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنۢ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً، رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً، لَّـٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَٱلْمَلَـٰئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيداً ﴾.

(سورة النساء ٤/ ١٥٣ ـ ١٦٦)

وهنا نستطيع أن نقول أن هناك كثيراً من الناس يصدق عليهم قول رب الناس

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَـٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدىً وَلَا كِتَـٰبٍ مُّنِيرٍ ﴾
(سورة الحج الآية ٨)

وصدق الله رب العباد:

﴿ مَا يُجَـٰدِلُ فِيٓ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴾. (سورة غافر ٤٠/ ٤)

وثامناً: فقد استقر المنهاج الحق البصير في كتاب الله الحق المنير أن يذكر رب العزة كل واحد من رسله - أن ذكره - باسناد لفظ الرسالة أو الرسول له، وأن يفصل شيئاً من بعض مواقفه وما بلغه، وبإضافة الألفاظ الدالة على الرسالة إليه كالتبليغ والدعوة والتبشير، والانذار، والصبر.

ولم يرد شيء من هذا كله في القرآن كله، بالنسبة لهاؤلاء العصبة أخوة يوسف، ولا بالنسبة لواحد من نسلهم جميعاً أو بني إسرائيل مطلقاً إلى موسى عليه السلام، فليس أحد من هؤلاء ولا هؤلاء من الأسباط.

وتاسعاً: الصدق والأمانة، والتبليغ، والفطانة، والبعد عن المنفرات، والخزيات واجتناب الكبائر والصغائر والفواحش والضلالات.

كل هذه الأوصاف وغيرها مما يجب على كل رسول أو نبي أن يتصف بها. ولم يقترب واحد من أخوة يوسف ولا من نسلهم، ولا من أممهم ولا من الكفرة من بني إسرائيل جميعاً، إلى موسى عليه السلام، لم يقترب واحد منهم من أية صفة من هذه الصفات كلها، فليس واحد منهم من الأسباط الذين يجب الإيمان بهم وبما أنزل إليهم. وبما أنزل عليهم وبما أوتوه من كتاب ومن حكمة، لأنهم لم يؤمنوا بشيء من الكتاب والحكمة.

وعاشراً: ما ورد عن رسول الله عليه السلام بالنسبة لسبط من أسباط بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، الذي قطعهم الله في الأرض فيما رواه (الضباب) وذكره ابن الأثير في النهاية، والزبيدي في تاج العروس وابن منظور في لسان العرب:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ غَضَبَ عَلَىٰ سَبطٍ مِن بَنِيّ إِسْرَاءِيلِ فَمَسَّخَهُمْ دَوَاب ﴾

وبما يؤكد هذا قوله سبحانه وتعالى في سورة الأعراف (٧/١٦٦ - ١٦٨) عن بعض أمم بني إسرائيل:

﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِئِينَ، وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ

عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ، وَقَطَّعْنَـٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ أُمَماً ﴾

وقوله سبحانه في سورة البقرة ٦٥ ـ ٦٦ لبني إسرائيل جميعاً:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِئِينَ، فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

وقوله سبحانه جل شأنه في سورة المائدة ٥/ ٥٩ ـ ٦٠ :

﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَكُمْ فَـٰسِقُونَ، قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ أُوْلَـٰئِكَ شَرٌّ مَّكَاناً وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾.

وعلى هذا فمن أسباط بني إسرائيل الذين قطعهم الله في الأرض اثنتي عشرة أسباطاً، وإنما من لعنه الله وغضب إليه وأخزاه، وجعل منهم القردة والخنازير. فلا يمكن أن يكون من هؤلاء وهؤلاء: أفراداً وجماعات، وأمماً من يصح أو يطلق عليه أنه من« الأسباط »الذين أنزل الله عليهم من الكتاب ومن الحكمة ومن الرسالات ومن الدين، أو أنزل الله عليهم شيئاً من هذا، أو كل هذا مما لا يتفق وأن يطالبنا الله بالإيمان بهم، أو حتى بتصديقهم ومن باب أولى، لا يمكن أن يكون أخوة يوسف هم الأسباط أو منهم الأسباط أو الأسباط منهم.

وإذا ما رجعنا إلى حديث رسول الله ﷺ وجب أن نخشع كثيراً عند حديثين كريمين هما «الحسين سبط من الأسباط» أي أمة من الأمم في الخير. والحديث الثاني

«الحسن والحسين سبطا رسول الله ﷺ» أي طائفتان وقطعتان منه. فلم لا يكون الأسباط هم من أمم بني إسماعيل الذين أرسل الله إليهم ولم يذكر أسماء رسلهم ولا عدد أممهم، وبخاصة من بني قحطان كقوم تبع وأصحاب الرس وسبأ؟!!

خصوصاً والأنصار جميعاً من بني قحطان؟ أو لم يكونوا من بني عدنان ممن كانوا على ملة أبيهم إبراهيم الخليل عليه السلام؟ خصوصاً وقد كان منهم السابقون الأولون من المهاجرين، ومنهم وفيهم خاتم النبيين ورحمة العالمين محمد ﷺ، ولعل هذا المنهج لا يتسع إلى تفصيل أكثر من هذا الآن. ولكني أود أن أشير إلى قاعدة لمنهاج أو إلى منهاج لقاعدة: هي أن القرآن يجب دائماً أن يقعد منه، ولا يصح أن يقعد عليه. تخضع له جميع القواعد ولا يخضع هو لكل القواعد. ولا لقاعدة مهما كانت القواعد.

وأخرى: إذا كان اللفظ من العربي الأصيل، فلا يطلق إلا على العربي الأصيل، ولا يصح أن يراد به غيره من الدخيل، إلا على ضرب من المجاز والتأويل أو التضليل، خصوصاً وقد سمي العرب «سبطا» و «أسباطا» ولفظ «الأسباط» السين والباء، والطاء، وجميع مشتقاتها عربي أصيل، فلا يصح اطلاقاً إلا على الصريح من بني إسماعيل لأنهم صريح العروبة وخالصها النقي الصحيح.

أما أن يراد بهم من غيرهم ولو من بني إسرائيل فلا بد من كثرة المجاز والاستعارات والتعليل، أو شئت فقل: إنما هو الدس والتفريق والتضليل وتدور المادة « سبط» على الامتداد والبسط والاسترسال والخلو من التعقيد.

ومن ذلك ما جاء في صفته عليه السلام: «إنه سبط القصب». وفي صفة شعره ﷺ: إنه ليس بالسبط ولا بالجعد، ومنه سبط اليدين، بمعنى سخي ممتد العطاء كثير الرفد. ثم وقد أجمع العلماء أو اكدوا على أن السبط هو ابن البنت، في مقابلة «الحفيد وهو ابن الابن».

وقد نقل هذا شارح القاموس المحيط ثم قال: وكلام الأئمة صريح في أنه يشمل ولد الابن والابنة، كما صرح ابن سيده في المحكم، فهو بمعنى القبيلة.

والآن نستطيع أن نقول: لله الحمد والمنة والدعاء لأن قد زال العماء وانكشفت الإسرائيليات المدسوسة النكراء، فقد ذكر في توراتهم المحرفة، والمترجمة إلى العربية بأقلام بعضها أوروبية: إن أبناء يعقوب الأثني عشر هم الأسباط وهم اثنا عشر، وتابعهم من انخدعوا بدسائسهم عن قصر نظر عن قصور في التحقيق وجمع الآيات والسور، وكان من أهم أغراضهم الدعاية للإيمان بأصولهم، وأنهم هم المتمسكون بدينهم ليتلاعبوا بالدين ويستخدموه في شنيع أغراضهم وخبيث مقاصدهم.

أما القرآن الكريم فإنه يكشف للإنسانية عن دنيء صنيعهم وزيف مفترياتهم.. وفيه وحده الحق والهداية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

* * *

بنو اسرائيل من «يوسف» إلى «موسى» عليهما السلام:

جمع يوسف عليه السلام إسرائيل وبني إسرائيل جميعاً من البدو في أغوار الشام وأسافله، وفرقهم في (البدو) والصحراء في شرق مصر وقواحله، لرعي الماشية وتربية الأغنام بعد أن أخذ على أخوته المواثيق والعهود: أن يتوبوا إلى الله من ذنوبهم وألا يعودوا إلى أفسادهم وشرورهم. ثم أخذ يوسف عليه السلام يراقب اخوته ويشدد عليهم، وقد فرقهم في أرض جاسان من صحارى الشرقية، حتى لا تظهر عيوبهم وتتجدد شرورهم، ويلتفت الحكام إلى فسادهم وافسادهم، وبهذا يجب طردهم فيجددون أحزان أبيهم، وتنتشر مخازيهم، ولا يستطيع أحد حمايتهم خصوصاً وأن يوسف قد جمعهم من البدو رأساً وهم عدد كبير يضاهي السبعين نفساً.

وظلت الحال كذلك حتى مات يعقوب عليه السلام (إسرائيل) فتضاعف تشديد يوسف عليه السلام على أخوته وازدادت رقابته وفي يده القوتان: القوة المادية، فهو عزيز مصر وكبير وزرائها، والقوة الدينية لأنه رسول الله الذي يؤدي رسالته ويدعو إليها، كما قال رب العزة: حكاية لقول الرجل المؤمن من آل فرعون، ولبني إسرائيل جميعاً مدافعاً عن موسى عليه السلام لما أراد قتله:

﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِ رَسُولاً ﴾.

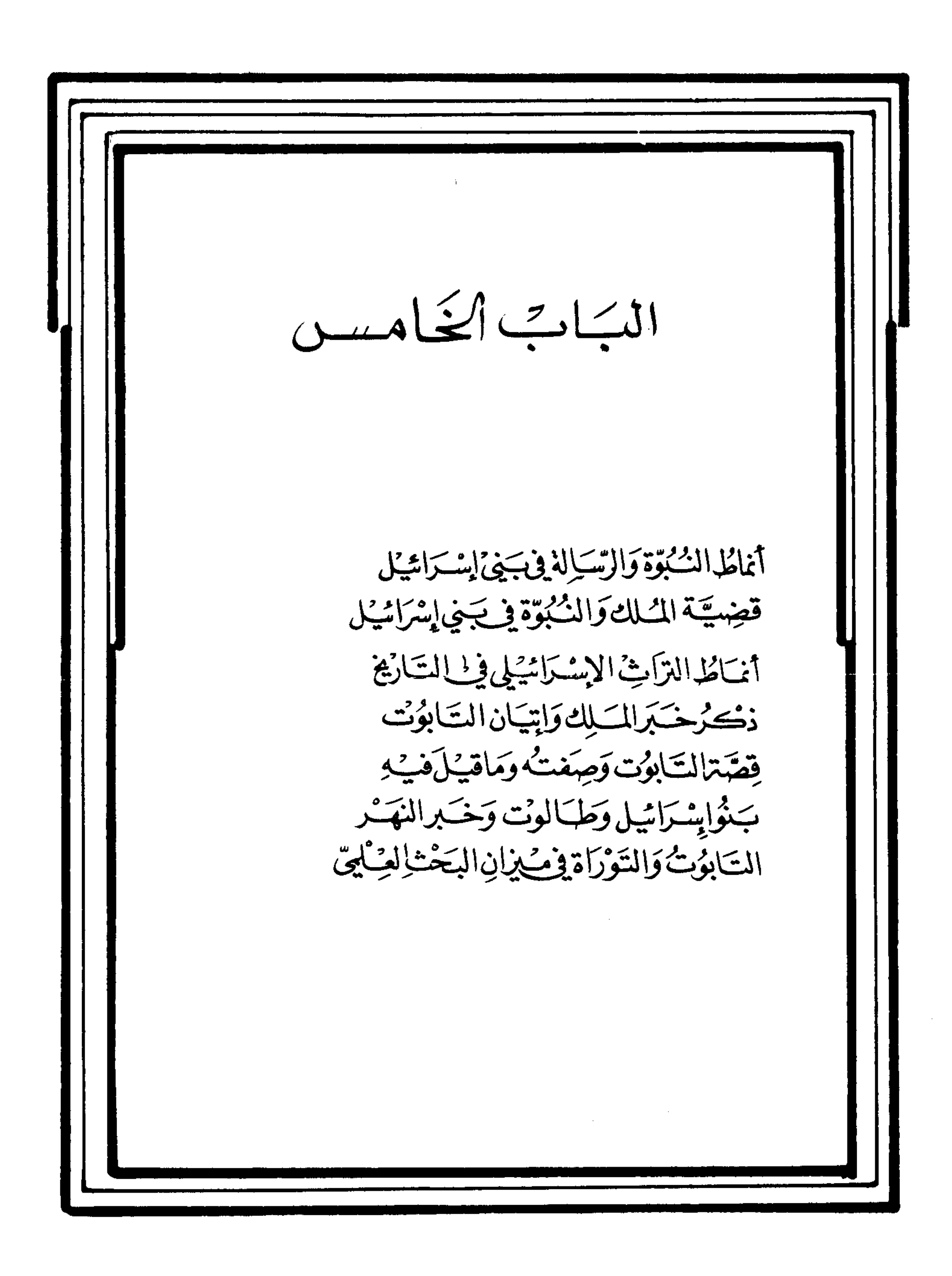
(سورة غافر ٤٠/ ٣٤).

وما أن مات يوسف عليه السلام، حتى تفجرت ينابيع الشر والفسوق والآثام من هؤلاء «البني إسرائيل» براكين الفساد، وقد توالدوا بغياً وفساداً كما تكاثروا أولاداً وأحفاداً. فتنبه إليهم المصريون وحكامهم وأخذوا يعالجونهم ويحاولون التخفيف من شرورهم، ولكنهم تمادوا في غيهم ولم يفلح أحد في كبح مخازيهم، ولا الحد من انتشار فسادهم وافسادهم، حتى اضطر عنوان الفساد والعناد، وهو فرعون المتأله ذو الأوتاد إلى أن يبيدهم، ويطهر الأرض منهم، وانتهى به الحال إلى أن يقتل كل مولود من ذكورهم، وأن تبقى على هون وذلة وصغار كل انثى من نسائهم، يقول رب العزة في سورة إبراهيم ١٤/ ٦:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَـٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾.

وفي سورة القصص ٢٨/ ٣ ـ ٤:

﴿ نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ، إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِ نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾.



البَابُ الخَامِس

أنماط النُبُوّة والرّسالة في بني إسرائيل

قضيّة المُلك والنُبُوّة في بني إسرائيل

أنماط التراث الإسرائيلي في التاريخ

ذكر خبر المَلِك وإتيان التابوت

قصّة التابوت وصفته وما قيل فيه

بنو إسرائيل وطالوت وخبر النهر

التابوتُ والتوراة في ميزان البحث العلميّ

أنماط النبوة والرسالة في بني إسرائيل

إن تاريخ النبوة والرسالة الإلهية في بني إسرائيل طويل، ومتعدد المراحل ومتنوع الاتجاهات.

هذا، ومصادره العديدة على كثرة استفاضتها، لم تقدم لنا صورة كاملة عن المقاصد العظمى في كل مرحلة من مراحل الدعوة الإلهية في بني إسرائيل فضلاً عن التفاوت والتناقض الذي يجيء في كثير منها، بحيث ينظر الباحث إلى بعض مراحل الرسالة الدينية في التاريخ اليهودي، وقد فقدت جوهر الرسالة الدينية، وتصبح معطياتها التاريخية والعقدية في مجال البحث العلمي صورة من الفولكلور الشعبي أو الميثيولوجي الأسطوري، الذي لا يفصح عن معنى والذي لا يعاون في تفهم العلاقة التاريخية لأطوار الرسالة الدينية في شعب بعينه، يمثل سلامة ونقاء وطهر المعتقد الديني الإلهي عبر كل مراحل التاريخ.

ومن عجب أنه لولا القرآن الكريم، وهو المصدر السماوي الوحيد الذي ليس للبشر فيه حتى وهم في مقام النبوة وصفاء الرسالة الدينية عند أصحابها دخل فيه باعتباره كلام رب العالمين، لا رب إقليم أو جماعة أو عنصر، هو الكتاب الذي أفاض عن كل تاريخ بني إسرائيل وتعرض بالتفصيل والشمول لبعض أنماط ومراحل النبوة والرسالة في بني إسرائيل، وكان ذلك من القرآن الكريم للدرس والتوجيه والانضباط حتى لا تتعرض الرسالة الإلهية لمثل ما تعرضت له في بني إسرائيل.

ولعل هذا هو الذي يفسر لنا نقل النبوة والرسالة الإلهية، من بيت ولد اسحق ويعقوب في سلسلة طويلة من التعاقب الزمني والتتابع المرحلي، حتى مجيء عيسى بن مريم عليه السلام إلى بيت إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام وذلك في شخص محمد بن عبد الله النبي العربي ﷺ خاتماً للنبوة والرسالة الإلهية.

ومن هنا حرص الرسول عليه السلام على أن يذكر بني إسرائيل بكل مراحل الوحي الإلهي معهم، وفضل الله عليهم لكي يؤمنوا به وتتم رسالة الإسلام ما سبقها من دعوات الله إليهم، لكنهم أبوا إلا الرفض والتمسك بما انتهى إليهم به تاريخ النبوة والرسالة، ولم يكن إلا تشويهاً وتدليساً لجوهر العقيدة الإلهية.

ومن هنا بعد معارك التحرير التي خاضها العرب المسلمون على أرضهم لتطهيرها من تأثيرات المعتقد اليهودي، وما يمكن أن يشوه به عقيدة التوحيد التي طهرها الإسلام، وأعاد صياغتها نقية لا يشوبها وثن ولا يعبر عنها صنم أو رمز، راح القرآن الكريم يقص على الإنسانية كلها أهم المراحل وأنماط النبوة والرسالة في بني إسرائيل.

فمثلاً لو أردنا أن نأخذ نمطاً مسجلاً ومدوناً في التاريخ. ثم جاء القرآن وقص أهم معالمه لرأينا كيف كانت دعوة الرسالة الدينية تضيع وتتبدد بسرعة عجيبة في معالم الوجود الإسرائيلي، أسير الصنم والوثن. يقص القرآن الكريم أخبار الرسول الذي جاء من بعد موسى لبني إسرائيل، ليجدد ويطهر ويدعو إلى الله من جديد، كيف تعرضت دعوته للتحريف والرفض من جانب بني إسرائيل:

يقول رب العزة في سورة الصافات:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ، اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ، فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴾.

يقرر القرآن الكريم في هذه الآيات أن بني إسرائيل حتى بعد موسى ووجود إلياس، يعبدون (بعلاً) ويتركون أحسن الخالقين الله رب العالمين.

وكان لا بد لكي تلتقي بعض الجماعات اليهودية على دعوة نبي أو رسول أن تقترن دعوته بضروب من المعجزات والتهاويل، التي تشدهم إليها من خلال هز حواسهم وتحريكهم في أنماط وأشكال مادية بحتة قوامها خرق كل ما هو طبيعي لعل وعسى.

ومن هنا راح التراث العربي الإسلامي يهتم كثيراً بإبراز هذه الجوانب المادية البحتة، القائمة على الكرامات والمعجزات التي اقترنت بحياة أنبياء بني إسرائيل، في سبيل أن يحققوا بعض أهداف الرسالة التي كانوا يضطلعون بها رسولاً ونبياً واحداً بعد الآخر.

يقص علينا المؤرخ الإسلامي «شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب» النويري ٦٧٧ - ٧٣٣ هـ في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» من الجزء الرابع عشر بعض أخبار «إلياس عليه السلام» كنموذج لما قامت به جماعة من بني إسرائيل. من بذل جهود في مجال المعجزات التي تحقق جواً من التوازن النفسي، بين رغبات الغريزة في الطبع الإسرائيلي وبين متطلبات الإيمان وعمل الوحي والرسالة الإلهية.

يقول النويري: كان إلياس على صورة موسى وقوته، ونشأ أحسن نشأة وبنو إسرائيل يقولون: هذا الذي بشرنا به العيزار، إن الله يهلك الملوك والجبابرة على يديه قال: فلما بلغ سبع سنين وكان يحفظ التوراة قال: يا بني إسرائيل إني أريكم من نفسي عجباً، فصاح بهم صيحة انتشرت فيهم فأرعبت قلوبهم، فلما سكنت روعتهم هموا بقتله وقال بعضهم: هو ساحر، فهرب منهم وصعد إلى جبل وهم يتبعونه، فلما قربوا منه انفرج له الجبل فدخل فيه وانصرف القوم، فنمى الخبر إلى بعض ملوكهم فعذبهم ثم انفرج الجبل وأقام إلياس به يأكل من المباحات حتى استكمل أربعين سنة، والناس قد أخذوا في عبادة الأصنام وخاضوا في المعاصي، فبعثه الله تعالى نبياً ورسولاً وجاءه جبريل بالوحي وأمره من الله تعالى أن يتوجه إلى الملوك والجبابرة الذين

يعبدون الأصنام ويدعوهم إلى طاعة الله تعالى وعبادته، وأن يرسلوا معه بني إسرائيل وأعطاه القوة. وأمر الغار والجبال والوحش بطاعته.

فانطلق إلياس إليهم وهم في سبعين قرية، كل قرية منها مدينة في كل مدينة جبار يسوسهم، وكلهم يعبدون صنماً يدعى «بعلاً» وهو على صورة امرأة، فصار إلياس إلى قرية من قراهم، وكان فيها ملك يقال له «آجاب» فوقف بالقرب من قصره وقرأ التوراة بأطيب نغمة، فسمعه الملك فقال لامرأته: ألا تسمعين ما أطيب هذا الصوت! فقامت المرأة إليه وأشرفت عليه من أعلى القصر وسألته عن حاله وخبره، فأخبرها أنه رسول الله، قالت: وما حجتك على دعواك؟ فاستدعى النار فجاءت إليه وشهدت بنبوته وصدقه، فأخبرت المرأة زوجها بما رأت منه، فجاء إليه وآمن به هو وامرأته وأوصاه بالصبر والجهاد.

وانصرف إلياس حتى إذا كان يوم اجتماع القوم، وقد خرجوا بزينتهم ونصبوا صنمهم بعلاً، وقف عليهم ودعاهم إلى الإيمان فقال فيما أخبره الله تعالى به عنه:

﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ، إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ، أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَـٰلِقِينَ، ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

فقالوا له: من انت؟ فقال أنسيتموني بعد أن كنت فيكم ومعكم (أنا الياس) فحثوا في وجهه التراب ورموه بالحجارة من كل جانب، وكان ملكهم الأكبر يقال له «عاميل» فأمر بزيت مغلي في قدر نحاس وقال لإلياس: إن رجعت وإلا طرحتك فيه! فقال: أنا وحيد في أرضكم، فريد في جمعكم ولكني أريكم آية تدل على صدق دعواي أني رسول الله إليكم فقال له الملك: نعم. فقال إلياس: أيتها النار اخمدي باذن الله تعالى. فخمدت وسكن غليان الزيت فعجب الناس من ذلك. قال الملك قد أتيت بحجة، ولكن أمهلنا يوماً لننظر في أمرك، ففارقهم وأتاهم من الغد ودعاهم، فجمع الملك ملوك قومه وعلماءهم وقال: ما تقولون في هذا الرجل؟ فقال العلماء: إنا نرى في التوراة صفة هذا الرجل، إنه يبعث نبياً تسخر له النار والأسود

والجبال وأنه لا يسمع أحد صوته إلا ذل وخضع له، فقال بعض علمائهم: أيها الملك كذب هؤلاء فيما ذكروه، وهذا ساحر فلا يهولنك أمره، فبسط العذاب على أولئك النفر فاشتد ذلك على إلياس وخالفه الملك «أجاب» الذي كان قد آمن به، ففارقته زوجته ولحقت بإلياس وكانت من الصالحات.

قال: واتخذ إلياس عريشاً بالقرب من قصر الملك «عاميل» فأشرفت امرأة عاميل عليه في بعض الليالي وهو يعبد الله تعالى، فنظرت إلى عمود من نور من لون العريش في السماء فآمنت به ولحقت به، فأمر زوجها أن تلقى في النار فألقيت فيها فدعا إلياس عليه السلام الله تعالى، فلم تعمل النار فيها شيئاً، فأطلقها الملك فلحقت بإلياس. ثم مات ولد العاميل الملك فجزع عليه وتضرع إلى صنم فلم يغن عنه شيئاً، فغضب الملك وقال لإلياس: إن ابني قد مات وعجز إلهي عن إحيائه فهل تقدر أن تحييه؟ فقال: هذا على ربي هين! ودعا الله تعالى، فقام الغلام يشهد أن لا إله إلا الله وأن إلياس عبده ورسوله، فآمن الملك وخرج عن الملك وتبع إلياس ولبس الصوف، وعبد الله تعالى حتى مات، وماتت زوجته وابنه واستمر القوم في ضلالهم وكفرهم ما شاء الله وإلياس يدعوهم فلا يجيبونه فأوحى الله تعالى أن أدعوهم وأنذرهم فآمنوا وإلا حبست عنهم الغيث وابتليتهم بالقحط، فدعاهم فقالوا: إنا لا نؤمن بك ولا بربك فاصنع ما أنت صانع.

فحبس الله عز وجل عنهم المطر وغارت العيون وجفت الأشجار فأكلوا ما عندهم حتى نفذ، ثم أكلوا المواشي حتى أكلوا الكلاب والسنانير والفيران وبلغ بهم الجوع حتى كانوا يأكلون من مات منهم، وإلياس بينهم وهم لا يرونه ويدعونه وهو لا يجيبهم. وكان الله تعالى قد جعل أمر أرزاقهم إليه، فأوحى الله إليه أن السماء والأرض ومن عليها قد بكت على هؤلاء، وقد هلك كثير من خلقي بسببهم، وكل يدعوك ولا ترحمهم فانصف خلقي يا إلياس فإن عصى فارزق، وإن كفر فاحلم، ففزع إلياس وقال: يا رب ما غضبت إلا لك وأنت أعلم بمصالح عبادك. فأوحى الله

إليه أن سر إليهم وادعهم فإن آمنوا فذاك وإلا كنت أرأف بهم منك.

قال: فانطلق إلياس حتى صار إلى أول قرية من قرى مدينتهم، فمر بعجوز فقال لها: هل عندك طعام؟ فقالت: وحق إلهي، ما ذقت الخبز منذ مدة. فقال: تؤمنين بالله؟ فقالت: إن ابني اليسع على دين إلياس، ولا أراه ينتفع به وقد أشرف على الموت من الجوع! فقال إلياس: يا اليسع أتحب أن تأكل الخبز: فصاح: كيف لي بالخبز؟ ومات فبكت العجوز ولطمت فقال لها: إن أحياه الله وجاءك ما تأكلين أتؤمنين بالله؟ قالت: نعم. فدعا الله تعالى فقام اليسع وهو يشهد أن لا إله إلا الله وإن إلياس رسول الله، ورزقهم الله تعالى خبزاً ولبناً فأكلوا. وآمنت العجوز وخرجت تنذر قومها فخنقوها فماتت فاغتم اليسع لذلك فقال له إلياس؟ إن الله سيحييها و يجعلكما آية لقومكما.

وخرج إلياس إلى قومه وقد إجتمعوا عليها يريدون أكلها، فصاح بهم فتفرقوا عنها وقالوا: إنك إلياس حقاً. فدعا الله تعالى فأحياها فأقبل القوم عليه وقالوا: ألا ترى ما نحن فيه سبع سنين؟ قال: فهلا دعوتم صنمكم بعلاً ليكشف عنكم؟ قالوا: قد دعوناه فلم يغن شيئاً، قال: فإن أغاثكم الله تعالى أتؤمنون؟ قالوا: نعم. فسأل الله تعالى فأمطرهم وجرت أنهارهم وأنبتت أرضهم وأحيا من مات منهم من الجوع، فازدادوا كفراً وعتواً فحذرهم إلياس وأنذرهم وذكرهم بنعمة الله عليهم فقالوا: إن القحط قد ارتفع عنا وهيهات أن يعود أبداً! وإن عاد فلا نبالي قد جمعنا في منازلنا ما يكفينا زمناً طويلاً.

فدعا الله عليهم واعتزلهم وقال: قد بلغت الرسالة وانك لاحق بالملائكة فاستخلف اليسع على المؤمنين، فقال اليسع: يا نبي الله إني ضعيف بين قوم كافرين. فأوحى الله تعالى إلى اليسع بذلك، وخرج إلياس عن ديار قومه في يوم جمعة، فإذا هو بفرس يلتهب نوراً، وله أجنحة ملونة فناداه: أقبل يا نبي الله فاستوى على ظهره، وجاءه جبريل فقال: يا إلياس طر مع الملائكة حيث شئت، فقد كساك الله الريش

وقطع عنك لذة المطعم والمشرب. وجعلك آدمياً ملكياً سماوياً أرضياً. قال: ونشر الفرس أجنحته فهو يطير مع الملائكة ثم أرسل الله عز وجل العذاب على قومه، فأحدثت بهم سحابة من جهنم واعتزلهم المؤمنون، فأحدقت السحابة بالكفرة، فأمطرت عليهم حجارة من العذاب قال الله تعالى: ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء. قال ثم انكشفت عن ديارهم وقد صاروا حمماً سوداً. قال الله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾. (سورة الصافات الآية ١٢٧)

قال: وأقام إليه اليسع مع بني إسرائيل حتى قبضه الله تعالى.

هذا ما أورده الكسائي في أخبار إلياس واليسع عليهما السلام. وأما ما حكاه الثعلبي رحمه الله في هذه القصة فإنه قال: قال ابن اسحق والعلماء من أصحاب الأخبار: لما قبض الله حزقيل النبي - عليه السلام - عظمت الأحداث في بني إسرائيل وظهر فيهم الفساد، ونسوا عهد الله تعالى إليهم في التوراة حتى نصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله - عز وجل - فبعث الله تعالى إليهم إلياس نبياً - قال الثعلبي: وهو إلياس ابن ياسين بن فنحاص ابن العيزار بن هارون عليه السلام.

قال: وإنما كانت الأنبياء بعد موسى عليه السلام يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا وضيعوا من أحكام التوراة، وبنو إسرائيل يومئذ متفرقون في أرض الشام وفيهم ملوك كثيرة، وذلك أن يوشع لما فتح أرض الشام بوأها بني إسرائيل وقسمها بينهم، فأحل سبطا منهم بعلبك ونواحيها، وهم سبط إلياس فبعثه الله تعالى إليهم نبياً، وعليهم يومئذ ملك يقال له «أجاب» قد أضل قومه وجبرهم على عبادة الأصنام، وكان يعبد هو وقومه صنماً يقال له «بعل» وكان طوله عشرين ذراعاً وكانت له أربعة وجوه فجعل إلياس يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وهم في ذلك لا يسمعون منه شيئاً، إلا ما كان من أمر الملك الذي كان في بعلبك، فإنه صدقه وآمن به، وكان إلياس عليه السلام يقوم أمره ويسدده ويرشده، وكان لأجاب الملك امرأة يقال لها «أرايل» وكان يستخلفها على رعيته إذا غاب عنهم في غزاة وغيرها، فكانت تبرز للناس كما يبرز زوجها وتركب كما

يركب وتجلس في مجلس القضاة فتقضي بين الناس.

وكانت قتاله للأنبياء، وكان لها كاتب وهو مؤمن حكيم يكتمها إيمانه وكان الكاتب قد خلص من يدها ثلثمائة فيما كانت تريد قتل كل واحد منهم إذا بعث، سوى الذين قتلتهم ممن يكثر عددهم، وكانت في نفسها غير محصنة ولم يكن على وجه الأرض أحسن منها، وهي مع ذلك قد تزوجت سبعة ملوك من ملوك بني إسرائيل وقتلتهم كلهم بالاغتيال، وكانت معمرة حتى يقال إنها ولدت سبعين ولداً، وكان لأجاب هذا جار من بني إسرائيل رجل صالح يقال له «مزدكي» وكانت له جنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها وسقيها، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته. فكانا يشرفان على تلك الجنينة ويتنزهان فيها ويأكلان ويشربان ويتقابلان فيها.

وكان «أجاب» في ذلك يحسن جوار «مزدكي» ويحسن إليه وامرأته أرايل تحسده على ذلك لأجل تلك الجنينة وتحتال في أن تغتصبها لما تسمع الناس يذكرون الجنينة ويتعجبون من حسنها ويقولون: ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر! ويتعجبون من الملك وامرأته كيف لم يغصبها صاحبها، فلم تزل المرأة تحتال على العبد الصالح «مزدكي» أن تقتله وتأخذ جنينته، والملك منعها عن ذلك، ثم اتفق أن خرج الملك إلى سفر بعيد وطالت غيبته.

فاغتنمت المرأة غيبة الملك واحتالت على «مزدكي» صاحب الجنينة وهو غافل عما تريد، مقبل على عبادة ربه واصلاح جنينته، فجمعت «ارايل» جمعاً من الناس وأمرتهم أن يشهدوا على «مزدكي» أنه سب زوجها الملك «أجاب» فأجابوها إلى تمسها من الشهادة عليه، وكان حكمها في ذلك الزمان على من سب الملك القتل إذا قامت البينة عليه بذلك فأحضرت «مزدكي» فقالت: بلغني أنك سببت الملك وعبته، فأنكر ذلك فقالت: إن عليك شهوداً، وأحضرت الشهود فشهدوا عليه بحضرة الناس، فأمرت بقتل «مزدكي» فقتل وأخذت جنينته غصباً، فغضب الله ـ عز

وجل ـ عليهم للعبد الصالح ، فلما قدم الملك من سفره قال لها : ما وفقت وما أصبت وما أرانا نفلح بعده أبداً وإن كنا عن جنينته لأغنياء وقد كنا نتنزه فيها منذ زمان طويل فأحسن الجوار وكففنا عن الأذى لوجوب حقه علينا فختمت أمره بأسوء حال الجوار، وما حملك على اجترائك عليه إلا سفهك وسوء رأيك وقلة عقلك وقلة تفكيرك في العواقب. فقالت: إنما غضبت لك وحكمت بحكمك. قال: أو كما كان يسعه حلمك ويحدوك عظم خطرك على العفو عن رجل واحد فتحفظين له جواره. فقالت: قد كان ما كان!

فبعث الله تعالى إلياس عليه السلام إلى «أجاب» الملك وقومه. وأمره أن يخبرهم أن الله تعالى قد غضب لوليه حين قتلوه بين أظهارهم ظلماً وآل على نفسه أنهما إن لم يتوبا عن صنيعهما ولم يردا الجنينة على ورثة «مزدكي» أن يهلكهما ، ويعني أجاب وامرأته في جوف الجنينة أشر ما يكون بسفك دمهما ثم يدعهما جيفتين ملقاتين فيها ، حتى تتعرى عظامهما من لحومهما ولا يمتعان بها إلا قليلاً.

قال: فجاء إلياس عليه السلام إلى الملك وأخبره بما أوحى الله عز وجل إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة. فلما سمع الملك ذلك اشتد غضبه ثم قال له: يا إلياس والله ما أرى ما تدعون إليه إلا باطلاً، والله ما أرى فلاناً وفلانا ـ سمى ملوكاً منهم ـ قد عبدوا الأوثان إلا على مثل ما نحن، يأكلون ويشربون ويتنعمون مملكين ما ينقص من دنياهم أمرهم الذي تزعم أنه باطل وما ترى لنا عليهم من فضل.

قال: وهم الملك بتعذيب إلياس وقتله. فلما سمع إلياس عليه السلام وأحس بالشر رفضه وخرج عنه، فلحق بشواهق الجبال، ودعا الملك الناس إلى عبادة بعل وارتقى إلياس عليه السلام أصعب جبل وأشمخه فدخل مغارة فيه فيقال: إنه بقي فيه سبع سنين شريداً، طريداً خائفاً، يأوي الشعاب والكهوف ويأكل من نبات الأرض وثمار الشجر، هم في طلبه قد وضعوا عليه العيون يتسقطون أخباره ويجتهدون في أخذه والله تعالى يستره ويدفع عنه فلما تمت له سبع سنين أذن الله تعالى

في إظهاره عليهم وشفا غيظه منهم فأمرض الله تعالى ابنا لأجاب الملك، وكان أحب ولده إليه وأعزهم عليه وأشبههم به، فأذنف حتى يئس منه، فدعا صنمه بعلاً وكانوا قد فتقوا به وعظموه حتى جعلوا له أربعمائة سادن وكلوهم به، وجعلوهم أنبياء وكان الشيطان يوسوس إليهم بشريعة من الضلالة فبينوها للناس فيعملون بها ويسمونهم الأنبياء فلما اشتد مرض ابنه الملك طلب إليهم أن يشفعوا إلى بعل ويطلبوا لابنه من قبله الشفاء والعافية، فدعوه فلم يستجب له ومنع الله تعالى بقدرته الشيطان عن صنمهم، فلم يمكنه الولوج في جوفه وهم مجتهدون في التضرع إليه، وهو لا يزداد مع ذلك إلا خموداً.

فلما طال عليهم قالوا:لأجاب: إن في ناحية الشام آلهة أخرى. وهي في العظم مثل إلهك. فأبعث أنبياءك فيشفعوا لك ولها فلعلها أن تشفع لك إلى إلهك بعل فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لقد كان أجابك وشفى لك ابنك. قال أجاب ومن أجل ماذا غضب عليّ وأنا أحيطه وأطلب رضاه منذ كنت لم استخطه ساعة قط؟ قالوا: من أجل أنك لم تقتل إلياس وفرطت فيه حتى نجا سليماً، وهو كافر بإلهك يعبد غيره ذلك الذي أغضبه عليك. وقال أجاب: وكيف لي أن أقتل إلياس يومي هذا وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني، وليس لإلياس مطلب ولا يعرف له موضع فيقصد، فلو عوفي ابني لتفرغت لطلبه ولم يكن لي هم ولا شغل غيره حتى أخذه، فأقتله وأرضي إلهي.

قال: ثم اندفعت انبياؤه الأربعمائة ليشفعوا إلى الأرباب التي بالشام ويسألوها إلى صنم الملك ليشفى ابنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس أوحى الله عز وجل إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم، وقال له: لا تخف فإني سأصرف عنك شرهم وألقي الرعب في قلوبهم فنزل إلياس عليه السلام من الجبل، فلما لقيهم استوقفهم فوقفوا وقال لهم: إن الله عز وجل أرسلني إليكم وإلى من وراءكم، فاستمعوا أيها القوم رسالة ربكم لتبلغوا صاحبكم فارجعوا إليه

وقولوا له: إن الله تعالى يقول لك ألست تعلم يا أجاب أني أنا الله لا إله إلا أنا. إلّه بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم أفجهلك وقلة علمك حملك على أن تشرك بي وتطلب الشفاء لابنك من غيري، ممن لا يملكون لأنفسهم شيئاً إلا ما شئت، إني حلفت باسمي لاغيظنك في ابنك ولأميتنه في فوره هذا حتى تعلم أن أحداً لا يملك له شيئاً دوني.

فلما قال لهم إلياس هذا رجعوا وقد ملئوا رعباً، فلما صاروا إلى الملك قالوا له ذلك، وأخبروه أن إلياس انحطعليهم وهو رجل نحيف طوال قد قشف ونحل وتمعط شعره وتقشر جلده، عليه حبة من شعر وعباءة فدخلها على صورة بخلال فاستوقفنا فلما صار معنا قذفت في قلوبنا الهيبة والرعب، وانقطعت ألسنتنا ونحن في هذا العدد الكثير وهو واحد، فلم نقدر على أن نكلمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه حتى رجعنا إليك. وقصوا عليه كلام إلياس عليه السلام فقال أجاب: لا تنتفع بالحياة ما دام إلياس حياً! ما الذي منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوثقوه وتؤتوني به وأنتم تعلمون أنه طلبتي وعدوي؟ قالوا: أخبرناك بالذي منعنا منه ومن كلامه والبطش به.

قال أجاب: ما يطاق إذاً إلياس إلا بالمكر والخديعة. فقبض له خمسين رجلاً من قومه ذوي قوة وبأس، وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال عليه لاغتياله، وأن يطمعوه في أنهم آمنوا به هم ومن وراءهم ليستنيم إليهم ويغتر بهم، فيمكنهم من نفسه فيأتوا به الملك، فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس عليه السلام ثم تفرقوا «فيه» وهم ينادونه بأعلى أصواتهم: يا نبي الله، أبرز لنا أنت آمن على نفسك (فإنا قد آمنا بك وصدقناك وملكنا أجاب) وجميع بني إسرائيل يقرؤون عليك السلام ويقولون: قد بلغتنا رسالة ربك وعرفنا ما قلت وآمنا بك وأجبناك إلى ما دعوتنا، فهلم إلينا فأنت نبينا ورسول ربنا، فاقم بين أظهرنا وأحكم فينا، فإنا ننقاد إلى ما أمرتنا وننتهي عما تنهانا، وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا وطاعتنا، فتداركنا وارجع إلينا.

وكل هذا منهم مماكرة وخديعة. فلما سمع إلياس عليه السلام مقالتهم وقعت في قلبه وطمع في إيمانهم وخاف الله تعالى، وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر لهم ولم يجبهم، بعد الذي سمع منهم. فلما أجمع على أن يبرز لهم رجع، رجع إلى نفسه فقال: لو إني دعوت الله عز وجل وسألته أن يعلمني ما في أنفسهم ويطلعني على حقيقة أمرهم. فقال: اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فاذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفينهم وأرمهم بنار تحرقهم، فما استتم قوله حتى حصبوا بالنار من فوقهم فاحترقوا أجمعين.

قال: وبلغ أجاب الخبر فلم يرتدع، واحتال ثانياً في أمر إلياس وجهز فئة أخرى مثل عدد أولئك أقوى منهم وأمكن في الحيلة والرأي فأقبلوا حتى ارتقوا قلل تلك الجبال (متفرقين) وجعلوا ينادون: يا نبي الله إنا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطواته، إنا لسنا كالذين أتوك من قبلنا، إن أولئك فرقة نافقت وخالفتنا فصاروا إليك ليكيدوك من غير رأينا ولا علم لنا، وذلك أنهم حسدونا وحسدوك وخرجوا إليك سراً ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك موتتهم، والآن فقد كفاك ربك أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم لنا ولك منهم. فلما سمع إلياس عليه السلام مقالتهم دعا الله تعالى بدعوته الأولى فأمطر الله عليهم نار فاحترقوا عن آخرهم. كل ذلك وابن الملك في البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله تعالى على لسان نبيه إلياس، لا يقتضي عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابه.

قال: فلما سمع الملك بهلاك أصحابه ثانياً ازداد غضباً إلى غضبه وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه، إلا أنه شغل عن ذلك بمرض ابنه فلم يمكنه.

توجه نحو إلياس الكاتب المؤمن الذي هو كاتب امرأته، رجاء أن يأنس به إلياس فينزل معه، وأظهر للكاتب أنه لا يريد بإلياس سوءاً وإنما أظهر له ذلك لما اطلع عليه من إيمانه، وكان الملك مع اطلاعه يقص عنه لما هو عليه من الكفاية والأمانة والحكمة وسداد الرأي، فوجهه نحوه وأرسل معه فئة من أصحابه وأوعز إلى

الفئة دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد أن يتخلف عنهم ، وإن جاء مع الكاتب واثقاً به أنساً بمكانه لم يوحشوه ولم يروعوه، ثم أظهر أجاب للكاتب الأنابة وقال: إنه قد آن لي أن أتوب وأتعظ، وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا والبلاء الذي فيه ابني، وقد عرفت أن ذلك بدعوة إلياس، وليست آمن أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته فانطلق إليه وأخبره إنا قد تبنا وأنبنا وأنه لا يصلحنا في توبتنا ما نريد من رضائنا وخلع أصنامنا إلا أن يكون إلياس بين أظهرنا يأمرنا وينهانا ويخبرنا بما يرضى به ربنا.

وأمر الملك قومه فاعتزلوا الأصنام وقال له: أخبر إلياس بأنا قد خلعنا آلهتنا التي كنا نعبد وارجأنا أمرها حتى ينزل إلياس إلينا، فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها وكان ذلك مكراً من الملك. فانطلق الكاتب والفئة حتى علموا الجبل الذي فيه إلياس عليه السلام، ثم ناداه الكاتب فعرف إلياس صوته فقامت نفسه إليه وأنس بمكانه، وكان مشتاقاً إلى لقائه فأوحى الله تعالى إلى إلياس أن أبرز إلى أخيك الصالح فألقه وجدد العهد به، وبرز إليه إلياس وسلم عليه وصالحه وقال له: ما الخبر؟ قال له المؤمن: إنه قد بعثني إليك هذا الجبار الطاغية وقومه. ثم قص عليه ما قالوا ثم قال: وإني خائف إن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني، فمرني بما شئت أن أفعله وأنتهي إليه إن شئت انقطعت إليك وكنت معك وتركته، وإن شئت جاهدته معك وإن شئت فأرسلني إليه بما تحب فأبلغه رسالتك، وإلا شئت دعوت ربك أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ومخرجاً.

قال: فأوحى الله عز وجل إلى إلياس عليه السلام إن كل شيء جاؤوك به مكر وخديعة ليضروا بك وأن «أجاب» إن أخبرته رسله أنك قد لقيت هذا الرجل ولم يأت بك إليه اتهمه وعرف أنه قد داهن في أمرك، فلم يأمن أن يقتله، فانطلق معه فإن في انطلاقك معه عذره وبراءته عند أجاب، وإني سأشغل عنكما أجاب، وأضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له هم غيره، وأميته على شر حال فإذا مات فارجع عنهم ولا

تقم. فانطلق معهم حتى قدموا على أجاب، فلما قدموا عليه شدد الله تعالى على ابنه الوجع وأخذه الموت. فشغل الله تعالى أجاب وأصحابه بذلك عدا إلياس. فرجع إلياس إلى مكانه فلما مات ابن أجاب وفرغوا منه وقل جزعه، انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب الذي جاء به فقال: ليس لي به علم وذلك أنه شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلا وقد استوثقت منه، فأضرب عنه أجاب وتركه لما كان فيه من الحزن على ابنه.

فلما طال الأمر على إلياس من الكمون في الجبال والمقام بها واشتاق إلى العمران وإلى الناس، فنزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بني إسرائيل، وهي أم يونس ابن متى (ذا النون) فاستخفى عندها ستة أشهر ويونس يومئذ مولود يرضع وكانت أم يونس تحدثه بنفسها وتواسيه بذات يدها، ولا تدخر عنه كرامة تقدر عليها، ثم أن إلياس سئم ضيق البيوت بعد مقامه بالجبال وسعتها، فأحب أن يلتحق بالجبال فخرج وعاد إلى مكانه فجزعت أم يونس لفراقه وأوحشها فقده ثم لم تلبث إلا يسيراً حتى مات ابنها (يونس) حين فطمته، فعظمت مصيبتها فيه فخرجت في طلب إلياس، فلم تزل ترقي الجبال وتطول (فيها) حتى عثرت عليه ووجدته.

فقالت: إني قد فجعت بموت ابني بعدك فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي، وليس لي ولد غيره فارحمني وادع ربك جل جلاله فيحيي لي ابني. . ويجبر مصيبتي، وإني قد تركته مسجى لم أدفنه وأني قد أخفيت مكانه فقال لها إلياس: ليس هذا مما أمرت به، وإنما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني به ربي، ولم يأمرنا بهذا.

فجزعت المرأة وتضرعت فعطف الله سبحانه وتعالى قلب إلياس عليها فسألها: ومتى مات ابنك قالت: منذ سبعة أيام، فانطلق إلياس معها وسار سبعة أيام أخرى حتى انتهى إلى منزلها، فوجد ابنها يونس ميتاً منذ أربعة عشر يوماً، فتوضأ وصلى ودعا الله فأحيا الله تعالى يونس بن متى بدعوة إلياس، فلما عاش وجلس وثب إلياس وانصرف وعاد إلى موضعه، انتهى والله أعلم.

قضية الملك والنبوة في بني إسرائيل:

هذه القضية الشديدة التعقيد في التاريخ: قضية الملك والنبوة واختصاص أبناء إسرائيل بها، حظيت في مراجع التاريخ ومصادر السيرة والتاريخ العربي والإسرائيلي على حد سواء بكثير من التناول والتأريخ، ولعل من أهم مقومات تكوين الطبع اليهودي، وتعميق الشعور بالعصبية والإنتماء إلى نعرة الجنس وسيادته هو: توارث هذه القضية وربط كل ما يقوم فيهم من دعوات أو حركات أو يتوجه إليهم من نبوات ورسالات بها، فإن كانت الدعوة التي يتوجه بها إليهم النبي أو الرسول تقدم الإله وشريعته في علاقته خاصة لبني إسرائيل، يتميزون بها عن غيرهم وينفردون بها على من سواهم بالسيادة والأمتياز، فإنهم يقبلون عليها ويفسرون شرائعها حسب المصلحة والهوى، وإن اصطدمت بالطبع الملتوي والخلق النهاز ولم تجعل الإله بيئياً واقليمياً وعنصرياً، فإن الرفض والتشويه والتمرد والعصيان سمة بارزة في معظم مراحل التاريخ اليهودي، وخاصة المراحل التي كانت بعد موسى وقبل عيسى عليهما السلام حتى ولو كان الإصرار والعنت من أجل التعبير عن هذا الشعور العدواني بالملك والسيادة يضعهم في بعض مراحل التاريخ، أمام عدو قوي يضربهم ويستذل كبرياءهم ويقضي على أوهامهم وعنصريتهم.

يقص القرآن الكريم أخبار مرحلة تعرض فيها بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام لنوع من الإختبار الالهي، فقيض لهم مسببات الوفاء بالعهد والوعد لتجاوز المرحلة والتغلب عليها، والعودة إلى ما كان موسى يبتغيه ويدعوهم إليه، لكنهم أبوا ورفضوا. يقول رب العزة في سورة البقرة (٢٤٦ ـ ٢٥٢) وهو يقص على حبيبه المصطفى محمدﷺ بعض جوانب الدين والتاريخ في بني إسرائيل وذلك على سبيل الدرس والتوجيه والانضباط فلا تتعرض الدعوة الخاتمة لمثل ما تعرضت له النبوة والرسالة في بني إسرائيل:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ

ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَـٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَـٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَـٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِٱلظَّـٰلِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَـٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ، وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ، فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَـٰٓءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ، تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

تستهدف هذه الآيات الكريمات أن تناقش جانباً مبهماً في تاريخ النبوة والرسالة في بني إسرائيل، وإلقاء الضوء عليه يفيد في الكشف عن إمكانات بني إسرائيل في تقبل أمور الوحي الإلهي والالتزام بها فمدخل الموقف كله في تصوير خلاب يقدمه

رب العزة لسيد ولد آدم، محمدﷺ، درساً للإنسانية كلها:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَاءِ مِنۢ بَنِيٓ إِسرَاءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

علماء الإسلام ومنهم: الإمام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل ابن كثير المتوفي سنة ٧٧٤ هجرية في تفسير القرآن العظيم من الجزء الأول المطبوع في دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع والإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، في الجامع لأحكام القرآن من الجزء الثالث في الطبعة الثالثة عن طبعة دار الكتب المصرية، لدار الكاتب العربي عام ١٩٦٧، أن هذا النبي الذي طلب منه بنو إسرائيل أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله هو: «شمويل» بن بال بن علقمة، ويعرف بابن العجوز لأن أمه كانت عجوزاً، فسألت الله الولد وقد كبرت وعقمت، فوهبه الله لها.

يقول الإمام ابن كثير: كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الإستقامة مدة من الزمان، ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين ظهورهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة، وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذي كان في قديم الزمان، وكان ذلك موروثاً لخلفهم عن سلفهم إلى موسى عليه الصلاة والسلام، فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك في بعض الحروب، وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها منهم إلا القليل، وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط (لاوي) الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل، فأخذوها فحبسوها في بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاماً يكون نبياً لهم، ولم تزل المرأة تدعو الله عز وجل أن يرزقها غلاماً، فسمع الله لها ووهبها غلاماً فسمته «شمويل» أي سمع الله دعاءها. ومنهم أي من بني إسرائيل من يقول عنه بدل «شمويل» «شمعون» على نفس المعنى الأول.

وشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وانبته الله نباتاً حسناً، فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده، فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه باديء ذي بدء أن يقيم ملكاً يقتلون معهم أعداءهم. وكان الملك قد انتهى فيهم فقال لهم النبي: فهل عسيتم أن أقام الله لكم ملكاً ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه؟ قالوا: وما لنا ألا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا. أي وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد. وسجل الله تعالى عليهم نقضهم لهذا الإلتزام ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾ أي ما وفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله سبحانه وتعالى عليهم بالظالمين.

ومن عجيب أن نبيهم حين دعا الله أن يستجيب لهم وبعث لهم ملكاً وعين لهم «طالوت»، وكان رجلاً من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان في سبطيهوذا ولم يكن طالوت من ذلك السبط، هنا ظهر التعصب العنصري والفئوي ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾ أي كيف يكون علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال، وهذا ولا شك اعتراض منهم على نبيهم وتعنت وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف.

لكن النبي الذي كان موضوع اختيار بني إسرائيل قال لهم: إن الله اصطفاه عليكم أي اختاره لكم من بينكم حتى ولو كان سقاء، أو دباغاً، فقد قيض الله وهيأ من أسباب مقوماته للملك وللقيادة غير ما تتصورون وما تعتقدون، وزاده بسطة في العلم والجسم، أي أنه اصطفاه الله له فهو أعلم منكم وأنبل وأشكل وأشد قوة وصبراً في الحرب ومعرفة بها، ثم أراد النبي «شمويل» أن يلفت نظرهم إلى قدرة الخالق وهيمنته أو وجوب الإذعان له، والله يؤتي في ملكه من يشاء ثم قال لهم، ان الله حين يؤتي ملكه من يشاء فإنما لا على ضوء علمه وقدرته ﴿ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ أي هو واسع الفضل يختص رحمته من يشاء عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه.

ثم يدخل عليهم هذا النبي من مدخل ديني بحت، ومن تعلق عاطفي كان

يجب عليهم أن تهفو نفوسهم له وتهتز مشاعرهم من أجله، لكنهم أبوا وعصــو.
ومن هنا فقد كان هذا النبي «شمويل» مفترضاً قلة استجابتهم وعدم إيمانهم ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمْ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

يقول لهم نبيهم: إن علامة بركة طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذي كان أخذ منكم ﴿ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ ﴾ أي فيه وقار وجلال من الضياع والتمزق والامتهان الذي أنتم عليه. وتحقيقاً لاختبارات الطبع الملتوي والضمـير الوثنـي في وجدان بني إسرائيل يقص القرآن الموقف الحواري الذي ساقه النبي «شمويل» مع بني إسرائيل.

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾.

(البقرة / ٢٤٩)

يقول تعالى تعبيراً عن الموقف الذي ساقه النبي إلى بني إسرائيل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ ﴾ أي مختبركم بنهر وهو نهر في منطقة فلسطين ﴿ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي ﴾ أي لم يصحبني ولن أرتبط به. ﴿ وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ ﴾ أي فمن التزم وسمع وأطاع ولم يشرب امتثالاً واستجابة ﴿ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِ ﴾ لكن نتائج الموقف كلـه كان صورة من صور الإفصاح اليهـودي عن سوء المعتقـد وضـعف الـوازع ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ هذا وقد أفاضت مصادر التراث الديني ومراجع السيرة الدينية في الحديث عن هذه المرحلة من مراحل الإختبار الإلهي لبني إسرائيل، ذلك

أن الظروف التي وهب الله لهم فيها النبي شمويل كانت بعد قحط وجدب في ذرية إسرائيل ، أوشك أن يقتل في بعضهم الأمل في عون الله لهم مرة ثانية . ثم لما جاء هذا النبي وضعوه أمام دعوى غير صادقين فيها، وهي أنهم يريدون في سبيل استرداد ملكهم وتابوتهم أن يقاتلوا في سبيل الله ، فلما جاء هذا الملك لم يسمعوا ولم يطيعوا.

ومن هنا راح بعض مؤرخي التراث يدونون ما تناهى إليهم من معلومات وأخبار عن هذه المرحلة، ليكشفوا للإنسانية عن العجب العجاب في تاريخ بني إسرائيل.

فمن ابتداء أمر النبي « شمويل» في بني إسرائيل، وكيف كانت نبوءته وكيف أدى دوره، وما هي أهم الأطوار والشخصيات التي تناولها عصره في محاولة للكشف عن مدى نمطية الأسطورة التاريخية عند بني إسرائيل يقول شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري في موسوعته « نهاية الأدب في فنون الأدب» من الجزء الرابع عشر، ونستطيع أن نضع تصورنا على ضوء ما قرره النويري وهو محقق اهتم بالتراث الإسرائيلي كثيراً تحت هذا العنوان:

أنماط التراث الإسرائيلي:

يقول النويري قال الثعلبي قال وهب: كان لأبي شمويل امرأتان إحداهما عجوز عاقر لم تلد وهي أم شمويل والأخرى ولدت عشرة أولاد، وكان لبني اسرائيل عيد من أعيادهم قد قاموا بشرائطه وقربوا القرابين، فحضر أبو شمويل وامرأتاه وأولاده العشرة ذلك العيد، فلما قربوا قربانهم أخذ كل منهم نصيبه، فكان لأم الأولاد العشرة أنصباء وللعجوز نصيب واحد فعمل الشيطان بينهما ما يعمل بين الضرائر من الحسد والبغي، فقالت أم الأولاد للعجوز: الحمد لله الذي كثرني في ولدي وتلك. . فوجمت العجوز وجوماً شديداً، فلما كان السحر عمدت العجوز إلى متعبدها فقالت: اللهم بعلمك وسمعك كانت مقالة صاحبتي واستطالتها علي

بنعمتك التي أنعمت عليها، وانت ابتدائها بالنعمة والإحسان فارحم ضعفي وارحمني وارزقني ولداً نقياً رضياً، أجعله لك ذخراً في مسجد من مساجدك، يعبدك ولا يكفرك، ويعطيك ولا يجحدك، وإذا رحمت ضعفي ومسكنتي وأجبت دعوتي فاجعل لها علامة أوفها بها.

فلما أصبحت حاضت وكانت من قبل يئست من الحيض، فألم بها زوجها وكتمت حملها، ولقي بنو إسرائيل في ذلك الوقت من عدوهم بلاء وشدة، ولم يكن في بني إسرائيل من يدبر أمرهم، فكانوا يسألون الله تعالى أن يبعث لهم نبياً يشير عليهم ويجاهدون عدوهم معه، وكان سبط النبوة قد هلك فلم يبق منهم إلا هذه المرأة الحبلى، فلما علموا بحبلها تعجبوا وقالوا: إنما حملت بنبي لأن الآيسات لا يحبلن إلا بالأنبياء، فأخذوها وحبسوها في بيت رهينة أن تلد جارية فتبدل بها غلاماً لما ترى من رغبة بني إسرائيل من ولدها فجعلت المرأة تدعو الله تعالى أن يرزقها غلاماً فولدت غلاماً فسمته «أشمويل» وقيل فيه «شمعون» وتقول: سمع الله دعائي. واختلفوا في نسبه فالذي يقول اسمه شمعون يقول: هو شمعون بن صفية بن علقمة بن أبي ياسف بن قارون بن يصهب بن فاهث بن لاوي بن يعقوب.

وقال سائر المفسرين: هو اشمويل، وهو بالعربية إسماعيل بن بالي ابن علقمة بن حام بن النهر بن بهر بن صرف بن علقمة بن ماجت بن عموصا ابن عزريا.

قال مقاتل: وهو من نسل هارون عليه السلام. وقال مجاهد: اشمويل ابن هلفنانا، والله أعلم.

قالوا: فلما كبر الغلام أسلمته أمه يتعلم التوراة في بيت المقدس وكلفه عيلى، فلما بلغ اشمويل الوقت الذي يبعثه الله عز وجل نبياً أتاه جبريل وهو نائم إلى جنب عيلى الكاهن، وعيلى لا يأمن عليه أحداً، فدعاه بلحن الشيخ: يا أشمويل، فقام

فزعا إلى الشيخ فقال: يا أبتاه دعوتني؟ فكره الشيخ أن يقول لا، فيفزع الغلام. فقال: يا بني ارجع، فرجع فنام، ثم دعاه ثانياً فأتاه فقال: أدعوتني؟ فقال الشيخ: ما شأنك؟ فقال: أما دعوتني؟ قال: لا. قال أشمويل: فإني سمعت صوتاً في البيت وليس فيه غيرنا. فقال: ارجع فتوضأ وصل فإذا دعيت باسمك فأجب وقل لبيك أنا طوعك فمرني أفعل ما تأمرني. ففعل الغلام ذلك فنودي الثالثة فقال: لبيك أنا طوعك فمرني أفعل ما تأمرني. فظهر له جبريل وقال: اذهب إلى قومك فبلغهم رسالة ربك، فإن الله تعالى قد بعثك إليهم نبياً وإن الله تعالى ذراك يوم ذراك (للنبوة) ورحم وحدة أمك في ذلك اليوم الذي تاهت عليه ضرتها ولأنت اليوم أشد غضضاً ولا أطيب ولادة منك فانطلق إلى عيلى فقل له: إنك كنت خليفة الله على عباده، فبقيت زماناً تأمر بأمره وحاكماً بكتابه وحافظاً لحدوده، فلما امتد سنك، ودق عظمك وذهبت قوتك، وفنى عمرك، وقرب أجلك وصرت أفقر ما تكون إلى الله تعالى ولم تزل فقيراً إليه عطلت الحدود وعملت بالرشا، وأضعت حكومات الخلق، حتى عز الباطل وأهله وذل الحق وحزبه، وظهر المكر، وخفي المعروف، وفشا الكذب، وقل الصدق وما الله عاهدك على هذا ولا عليه استخلفك، فبئس ما قمت به عملك والله لا يحب الخائنين! فبلغه هذه الرسالة وقام بعد بالخلافة، فلما بلغ أشمويل عيلى هذه الرسالة فزع وجزع.

فقالوا وكان السبب فيما عاتب الله تعالى عبده عيلى ووبخه عليه أنه كان له إبنان شابان، فأحدثا شيئاً في القربان لم يكن فيه، وذلك كان في مسواط القربان الذي يسوطونه به كلابان. فما أخرجا كان للكاهن الذي يسوطه فجعل أبناء لهما كلاليب، فأوحى الله تعالى إلى أشمويل انطلق إلى عيلى فقل له: منعك حب الولد أن تزجر إبنيك أن يحدثا في قرباني أو يعصياني فلأنزعن الكهانة منك ومن ولديك، ولأهلكنك وإياهما. فأخبر أشمويل عيلى بذلك ففزع فزعاً شديداً وسار إليهم عدوهم، فأمر عيلى ابنيه أن يخرجا بالناس ويقاتلا ذلك العدو، فخرجا وأخرجا معهما التابوت، فجعل عيلى يتوقع الخبر، فجاءه رجل وهو قاعد على كرسيه فأخبره أن

الناس قد انهزموا، وأن ابنيه قتلا. قال: فما فعل بالتابوت؟ قال: ذهب به العدو، فشهق عيلي ووقع ميتاً، فلما بلغ ملكهم ايلات أن التابوت استلبت وأن عيلي قد مات كمداً مالت عنقه فمات كمداً.

قالوا: فلما مات وأخذا التابوت خرج أمر بني إسرائيل وأجـر عليهـم عدوهم فقال لأشمويل ما أخبر الله تعالى به عنهم في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾.

الآيات: وذلك بعد ما دبر أشمويل أمرهم عشر سنين وإنما كان قوام أمر بني إسرائيل بالإجماع على الملوك وطاعة الملوك أنبيائهم، وكان الملك هو الذي يسير بالجنود ويقاتل العدو، والنبي يقيم له أمره ويشير عليه ويرشده ويأتيه بالخبر من الله تعالى.

قال وهب: بعث الله تعالى أشمويل نبياً، فلبثوا أربعين سنة بأحسن حال، وكان من أمر جالوت الملك والعمالقة ما كان، فسألوه أن يبعث لهم ملكاً فقال لهم « هل عسيتم أن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا» فأجابوه كما قص الله تعالى في كتابه ﴿ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ قال: فلما أخذ أشمويل ميثاقهم في الطاعة والجهاد سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً. والله أعلم بالصواب.

* * *

ذكر خبر الملك طالوت واتيان التابوت وخبر جالوت:

قالوا: ولما سألوا أشمويل أن يبعث لهم ملكاً، سأل الله تعالى في ذلك فأتى بعصا وقرن فيه دهن القدس وقيل له: إن صاحبكم الذي يكون ملكاً طوله طول هذه العصا، وقيل له أنظر إلى القرن الذي فيه الدهن، فإذا دخل عليك رجل فشى الدهن الذي في القرن، فهو ملك بني إسرائيل، فادهن به رأسه وملكه عليهم.

فقاسوا أنفسهم بالعصا فلم يكونوا مثلها، وكان طالوت واسمه بالسريانية (شارك) بالعبرانية شادل ابن قيس بن اتيال بن ضراء بن أحرى بن افيح بن ايشن بن بنيامين بن يعقوب بن اسحق بن إبراهيم رجلاً دباغاً يعمل الأدم، قال وهب وعكرمة والسعدي: كان سقاء يسقي على حمار من النيل، فضل حماره فخرج في طلبه.

وقال وهب: بل ضلت حمر لأبي طالوت فأرسله وغلاماً له يطلبانها فمر ببيت أشمويل فقال الغلام لطالوت: لو دخلنا على هذا النبي فسألناه عن أمر حمرنا ليرشدنا ويدعو لنا بالخير. فقال: نعم. فدخلا عليه فبينما هما عنده يذكران شأن الحمر إذ نش اندهن في القرن، فقام أشمويل وقاس طالوت بالعصا فكانت على طوله فقال لطالوت: قرب رأسك، فقربه فدهنه بدهن القدس ثم قال له: أنت ملك بني إسرائيل، وقد أمرني الله تعالى أن أملكك عليهم فقال طالوت: أنا؟ قال: نعم. قال: أوما علمت أن سبطي أدنى الأسباط في بني إسرائيل؟ قال: بلى. قال: أعلمت أن بيتي أدنى بيوت بني إسرائيل؟ قال: بلى. قال: فبأي آية أكون ملكاً؟ قال: بآية أنك ترجع وقد وجد أبوك حمره فكان كذلك.

ثم قال لبني إسرائيل « إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه» وإنما قالوا ذلك لأنه كان في بني إسرائيل سبطان: سبط نبوة، وسبط مملكة، فكان سبط النبوة سبط لاوي بن يعقوب منهم موسى وهارون عليهما السلام، وسبط المملكة سبط يهوذا ابن يعقوب منهم سليمان بن داود، ولم يكن الطالوت من سبط النبوة ولا المملكة، وإنما كان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكانوا عملوا ذنباً عظيماً كانوا ينكحون النساء على ظهر الطريق نهاراً، فغضب الله تعالى عليهم ونزع النبوة والمملكة منهم، فأنكر بنو إسرائيل ذلك وقالوا: « أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال». قال أشمويل: « إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة» أي فضيلة وسعة في العلم، وذلك أنه كان أعلم بني إسرائيل في وقته، وقال الكلبي: « في العلم» بالحرب والجسم يعني

بالطول والقوة، وكان يفوق الناس برأسه ومنكبيه وإنما يسمى طالوت لطوله. وقال ابن كيسان: للجمال، وكان أجمل رجل في بني إسرائيل وأعلمهم ﴿ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ قالوا: فما آية ذلك؟ قال لهم نبيهم:

﴿ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

(سورة البقرة الآية ٢٤٨)

* * *

ذكر قصة التابوت.. وصفته.. وما قيل فيه:

قال أبو اسحق الثعلبي ـ رحمه الله ـ قال أهل التفسير وأصحاب الأخبار: إن الله تعالى أهبط تابوتاً على آدم حين أهبط آدم على الأرض، فيه صور الأنبياء من أولاده وفيه بيوت بعدد الرسل منهم، وآخر البيوت بيوت محمد ﷺ، وهو من ياقوتة حمراء، وإذا هو قائم يصلي وعن يمينه الكهل المطيع مكتوب على جبينه: هذا أول من يتبعه من أمته «أبو بكر الصديق» وعن يساره الفاروق «مكتوب على جبينه قرن من حديد لا تأخذه في الله لومة لائم» ومن ورائه ذو النورين أخذ بحجزته، مكتوب على جبينه بار من البررة ومن بين يديه «علي بن أبي طالب» شاهر سيفه على عاتقه مكتوب على جبينه: هذا أخوه وابن عمه المؤيد بالنصر من عند الله، وحوله عمومته والخلفاء والنقباء والكبكبة الخضراء، وهم أنصار الله وأنصار رسله، نور حوافر دوابهم يوم القيامة مثل نور الشمس في الدنيا.

وكان التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في ذراعين، وكان من عود الشمشار الذي تتخذ منه الأمشاط، مموهاً بالذهب، فكان عند آدم إلى أن مات ثم عند شيث، ثم توارثه أولاد آدم إلى أن بلغ إبراهيم عليه السلام، فلما مات كان عند إسماعيل، ثم

كان عند قيذار بن إسماعيل، فتنازعه ولد اسحق وقالوا: إن النبوة قد صرفت عنكم، وليس لكم إلا هذا النور الواحد (يعني نور محمدﷺ) فأعطنا التابوت، فكان قيذار يمتنع عليهم ويقول: إنه وصية لأبي ولا أعطيه أحداً من العاملين.

قال فذهب ذات يوم يفتح التابوت فتعسر عليه فتحه، فناداه مناد من السماء: مهلاً يا قيذار! فليس لك إلى فتح هذا التابوت سبيل، إنه وصية نبي، لا يفتحه إلا نبي فادفعه لابن عمك يعقوب إسرائيل الله، فحمل قيذار التابوت على عنقه وخرج يريد أرض كنعان، وكان بها يعقوب عليه السلام، فلما قرب منه صر التابوت صرة سمعها يعقوب فقال لبنيه: أقسم بالله لقد جاءكم قيذار بالتابوت. فقدموا نحوه فقام يعقوب وأولاده جميعاً إليه، فلما نظر يعقوب إلى قيذار استعبر باكياً وقال: يا قيذار ما لي أراك متغيراً وقوتك ضعيفة؟ أرهقك عدو أم أتيت معصية بعد أبيك إسماعيل؟ قال: ما أرهقني عدو ولا أتيت معصية ولكن ثقل من ظهري نور محمد، فلذلك تغير لوني وضعف ركني. قال: أفي بنات اسحاق؟ قال لا، في العربية الجرهمية وهي العامرية.

فقال يعقوب: بخ بخ! شرفاً لمحمد لم يكن الله عز وجل ليجريه إلا في العربيات الطاهرات! يا قيذار وأنا مبشرك ببشارة قال: وما هي؟ قال: اعلم أن العامرية قد ولدت لك البارحة غلاماً. قال قيذار: وما علمك بابن عمي بأرض الشام وهي بأرض الحرم ؟ قال يعقوب : علمت ذلك لأني رأيت أبواب السماء وقد فتحت، ورأيت نوراً كالقمر الممدود بين السماء والأرض، ورأيت الملائكة ينزلون من السماء البركات والرحمة، فعلمت أن ذلك من أجل محمدﷺ. فسلم قيذار التابوت إلى يعقوب ورجع إلى أهله فوجدها قد ولدت غلاماً فسماه «حملاً» وفيه نور محمد ﷺ.

قالوا: وكان التابوت في بني إسرائيل إلى أن وصل إلى موسى عليه السلام فكان موسى يضع فيه التوراة ومتاعاً من متاعه، وكان عنده إلى أن مات، ثم تداوله أنبياء

بني إسرائيل إلى وقت أشمويل، وكان فيه ما ذكر الله تعالى (فيه سكينة من ربكم) قال الثعلبي: واختلفوا في السكينة ما هي: فقال علي بن أبي طالب: السكينة ريح خجوج هفافة لها رأسان (كرأس الهرة) ووجه كوجه إنسان. وقال مجاهد: رأس كرأس الهرة وذنب كذنب الهرة وجناحان وقال ابن اسحق عن وهب عن بعض علماء بني إسرائيل: السكينة رأس هرة ميتة كانت إذا صرخت في التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم بالفتح.

وقال السدي عن أبي مالك عن ابن عباس: هي طست من ذهب من الجنة، كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء، وقال بكار بن عبد الله عن وهب: روح من الله تتكلم إذا اختلفوا في شيء تخبرهم ببيان ما يريدون. وقال عطاء بن أبي رباح: هي ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال قتادة والكلبي: فعيلة من السكون أي طمأنينة من ربكم وفي أي مكان كان التابوت اطمئنوا (وربقيه مما ترك آل موسى وآل هارون).

قالوا: كان فيه عصا موسى ورضاض الألواح، وذلك أن موسى لما ألقى الألواح تكسرت، فوقع بعضها وجمع ما بقي فجعله في التابوت، وكان فيه أيضاً لوحان من التوراة وقفيز من المن الذي كان ينزل عليه ونعلا موسى وعمامة هارون وعصاه، وكان التابوت عند بني إسرائيل وكانوا إذا اختلفوا في شيء تكلم وحكم بينهم، وإذا حضروا القتال قدموه بين أيديهم يستفتحون به على عدوهم، فلما عصوا وأفسدوا سلط الله عز وجل عليهم العمالقة فاستلبوا التابوت كما تقدم.

* * *

ذكر اتيان التابوت إلى بني إسرائيل وسبب عوده:

قال أبو اسحق: لما سلب العمالقة قوم جالوت التابوت كان جالوت صغيراً، فأتوا بالتابوت قرية من قرى فلسطين يقال لها أشدود، وجعلوه في بيت صنم لهم ووضعوه تحت الصنم الأعظم، فأصبحوا من الغد والصنم تحته، فأخذوه ووضعوه فوقه وسمروا قدم الصنم على التابوت، وأصبحت أصنامهم كلها منكسة فأخرجوه من بيت الصنم ووضعوه في ناحية من مدينتهم فأخذ أهل تلك الناحية وجع في أعناقهم حتى هلك أكثرهم، فقال بعضهم لبعض: أليس قد علمتم أن إله بني إسرائيل لا يقوم له شيء فأخرجوه من مدينتكم، فأخرجوه إلى قرية أخرى فبعث الله عز وجل على تلك القرية فأراً، يبيت الرجل صحيحاً فيقرضه الفأر فيصبح ميتاً قد أكلت ما في جوفه فأخرجوه منها إلى الصحراء ودفنوه في مخرأة لهم، فكان كل من تبرز هناك أخذه الباسور والقولنج، فتحيروا فقالت لهم امرأة كانت عندهم من بني إسرائيل من أولاد الأنبياء: لا تزالون ترون ما تكرهون ما دام هذا التابوت عندكم فأخرجوه عنكم، فأتوا بعجلة بإشارة تلك المرأة فحملوا التابوت عليها ثم علقوها على ثورين ثم ضربوا جنوبهما، فأقبل الثوران يسيران ووكل الله تعالى بهما أربعة من الملائكة يسوقونهما. فلم يمر التابوت بشيء من الأرض إلا كان مقدساً، فأقبل حتى وقف على أرض فيها حصاد لبني إسرائيل فكسرا برتهما وقطعا حبالهما، ووضعا فيها التابوت ورجعا إلى أرضهما فلم يرع بني إسرائيل إلا التابوت، فكبروا وحمدوا الله تعالى.

وقال الكسائي: إنهم لما دفنوا التابوت إلى جنب الحش وأخذهم الباسور أعادوه إلى الكنيسة فغزاهم بعض الفراعنة فهزمهم ودخل الكنيسة وأخذوا التابوت وهموا بفتحه فلم يقدروا، فهموا بكسره فلم يقدروا فتركوه فكان القوم يتشاءمون به لما كان يصيبهم من البلاء، فحولوه إلى خمس مدائن فقال أهل المدينة الخامسة: إن هذا البلاء يصيبكم بسبب هذا التابوت فأخرجوه وساق نحو ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰئِكَةُ ﴾ أي تسوقه فعند ذلك أقروا بملك طالوت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: جاءت الملائكة بالتابوت تحمله بين السماء والأرض، وهم ينظرون إليه حتى وضعوه في دار طالوت فأقروا بملكه. قال الله تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (البقرة/٢٤٨).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن التابوت وعصا موسى في بحيرة طبرية وأنهما يخرجان يوم القيامة، والله أعلم.

* * *

ذكر سير طالوت بالجنود وخبر النهر الذي ابتلوا به:

قالوا: فلما أقروا بملك سألوه أن يغزوا بهم وهم يومئذ سبعون ألف مقاتل. وقيل: ثمانون ألفاً لم يتخلف عنه إلا كبير لهرمه، أو مريض لمرضه، أو ضرير لضرره، أو معذور لعذره، وذلك أنهم لما رأوا التابوت قالوا: قد أتانا التابوت وهو النصر لا شك فيه فسارعوا إلى الجهاد. فقال طالوت: لا حاجة لي في كل ما أرى، لا يخرج معي رجل من بنى بناء لم يفرغ منه، ولا صاحب تجارة مشتغل بها ولا رجل عليه دين، ولا رجل متزوج بامرأة ولم يبن بها، ولا يتبعني إلا الشباب النشيط الفارغ.

فاجتمع له ثمانون ألفاً على شرطه، وكانوا في حر شديد فشكوا قلة المياه فيما بينهم وبين عددهم وقالوا: «إن المياه لا تحملنا فادع الله تعالى أن يجري لنا نهراً، فقال لهم طالوت: (إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني) أي من أهل ديني

وطاعتي، ومن لم يطعمه فإنه مني ثم استثنى فقال: «إلا من اغترف غرفة بيده».

قال الكسائي: لما سألوه أن يجري لهم نهراً قال: افعل إن شاء الله، وسار بهم حتى إذا كانوا في برية وفقدوا الماء وأجهدهم العطش أتوه. فدعا أن يجري الله تعالى لهم نهراً فأوحى الله إليه وأخبر به في كتابه قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ** ﴾ الآية. قال: وهو نهر الأردن من بلاد فلسطين. وقال الثعلبي قال ابن عباس والسدي: هو نهر فلسطين. وقال قتادة والربيع: هو نهر بين الأردن وفلسطين، عذب. قال الكسائي قالوا: وما تغني عنا الغرفة ثم عرض لهم النهر فانهمكوا في شربه. قال الله تعالى: ﴿ **فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ** ﴾. قال: واختلفوا في القليل الذين لم يشربوا فقال السدي: كانوا اربعة آلاف وقال غيره كانوا ثلاثمائة وبضعة عشرة وهو الصحيح لقول رسول الله ﷺ لأهل بدر: أنتم اليوم على عدة أصحاب طالوت حين عبروا النهر وكان أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر.

قالوا: فلم يزد هؤلاء على الغرفة فكانت كفاية لهم ولدوابهم فمن اغترف غرفة، كما أمر الله نور الله قلبه وصح إيمانه وعبر النهر سالماً والذين شربوا وخالفوا أمر الله عز وجل اسودت شفاههم وغلبهم العطش فلم يرووا وبقوا على شط النهر وجبنوا عن لقاء العدو فقال طالوت للذين عصوا ربهم: «ارجعوا فلا حاجة لي بكم» فرجعوا قال الله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ** ﴾. وإنما قال ذلك للذين عصوا وشربوا:

﴿ **قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ** ﴾. (سورة البقرة الآية/٢٤٩).

التابوت والتوراة في ميزان البحث العلمي

للتابوت وللتوراة في كتب التراث أهمية خاصة، وذلك بسبب ما ورد بشأنهما مما تعرض له المفسرون وكتّاب التاريخ، القدامى والمحدثين عندما تعرضوا لموضوعي: التابوت والتوراة كمحاولة لفهم ما جاء بشأنهما وخاصة في كتب العهد القديم، وهي التي افاضت في الحديث عن التابوت والتوراة ونظراً لأننا في الصفحات السابقة، قد أتينا على ذكر التابوت في نهج كتاب التراث المسلمين، ورأينا منهجهم السمح الكريم الذي جعله بعض الغربيين متكئاً تاريخياً لكثير من الدعوات الباطلة في العصور الأخيرة، فإننا في هذه الصفحات، سنحاول إن شاء الله أن نضع قضية التابوت وما يتعلق بها أمام التدبر العلمي على ضوء نظرة نقدية فاحصة لروايات كتب العهد القديم، ومصادر التاريخ، وذلك كي يتأكد أمامنا وبمستوى اليقين المطلق الصورة البيانية المتكاملة التي قصها القرآن الكريم للتدبر وللتأمل وللإنصاف.

وبادىء ذي بدء يحدثنا سفر (الخروج) (أحد الخمسة) أن موسى عليه السلام تلقى الوحي أو التوراة مشافهة من ربه، وبعد أن قرأها على قومه وأخذ الميثاق منهم على اتباعها دونها كتابة، وفي الإصحاح الرابع والعشرين تقول الفقرات ٣ ـ ٨ من الخروج وبالنص: (. . . فجاء موسى وحدث الشعب بجميع أقوال الرب وجميع الأحكام، فأجاب جميع الشعب بصوت واحد وقالوا كل الأقوال التي تكلم بها الرب نفعل، فكتب موسى جميع أقوال الرب، وبكر في الصباح وبنى مذبحاً في أسفل

الجبل، واثني عشر عمداً لأسباط إسرائيل الأثني عشر، وأرسل فتيان بني إسرائيل فأصعدوا محرقات، وذبحوا ذبائح سلامة للرب من الثيران، فأخذ موسى نصف الدم ووضعه في طسوس، ونصف الدم رشه على المذبح، وأخذ كتاب العهد وقرأ في مسامع الشعب، فقالوا كل ما تكلم به الرب نسمع ونفعل).

وهذا النص الذي بين أيدينا يقرر أن موسى تلقى وحياً شفهياً، ثم دونه كتابه، وما كتب أقره الشعب، وزيادة في التحوط من كاتب السفر فإنه يخبرنا في نفس الإصحاح من الفقرات ١٢ ـ ١٨ إن الرب أراد أن يسجل بخط يده: ـ تعالى الله ـ التعليمات التي للإسرائيليين أن يسيروا على هديها وأن يلتزموا بها فأمر الله موسى على ضوء ما في هذه الرواية أن يصعد الى الجبل[1] وأن يمكث أربعين نهاراً وأربعين ليلاً وبعدها سيعطي الوحي مكتوباً على حجر وبإصبع الله؟

وتريد رواية سفر الخروج أن تقول أن للتوراة التي يتحدث عنها سفر الخروج اعتباران أحدهما الوحي القائم على المشافهة بين موسى وربه مباشرة والثاني الكتابة مدونة بإصبع الله؟ (تعالى الله). وبالقطع ليس في السفر جواباً لهذا السؤال الذي نطرحه وهو: لماذا كان الله يرسل تعليماته إلى موسى على ضوء رواية سفر الخروج مرة مشافهة ليسجلها موسى بنفسه، ومرة أخرى يعفي الإله موسى من مهمة الكتابة ويكتب هو له على لوحي الحجر وبإصبعه ثم يعطيها لموسى؟.

يقول الإصحاح الرابع والعشرون من سفر الخروج فقرات ١٢ ـ ١٨.. (وقال الرب لموسى إصعد إلى الجبل وكن هناك، فأعطيك لوحي الحجارة والشريعة والوصية التي كتبتها لتعليمهم، فقام موسى ويشوع خادمه، وصعد موسى إلى جبل الله، وأما الشيوخ فقال لهم أجلسوا لنا ها هنا حتى نرجع اليكم، وهذا هارون وحور معكم، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم اليهما، فصعد موسى إلى الجبل، فغطى السحاب الجبل، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفي اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس

---

(١) (سفر الخروج) اصحاح ٢٤ فقرات ٣ ـ ٨ ـ ١٢ ـ ١٨.

الجبل أمام عيون بني إسرائيل، ودخل موسى في وسط السحاب، وصعد إلى الجبل، وكان موسى في الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلاً.).

وبعد هذه الخلوة فإن موسى كما في الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر الخروج فقرة ١٨: (. . . أعطى موسى عند فراغه من الكلام معه في جبل سيناء لوحي الشهادة لوحي الحجر مكتوبين بإصبع الله).

لكن العجيب حقاً مما تحمل سيرة وتراث إسرائيل في العهد القديم من الغاز وأحاجي هو الإخبار التي بين يدي الباحث من إصحاحات سفر الخروج من الرابع والعشرين حتى الحادي والثلاثين فهي تطالعنا، بأحاديث عن الوحي القائم على المشافهة وعن العهد الذي أخذه موسى من الشعب وقبله الشعب وعن الهجرة من مصر بقيادة الرجل الذي اطلعهم على الوحي وآمنوا به نبياً ورسولاً وقائداً كذلك تطالعنا بالبشارة في سيناء من منظر مبهر يعبر عنه في السفر بمجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل وموسى وسط السحاب كل ذلك الذي نراه يضيع تماماً ويفتقد فجأة في الإصحاح الثاني والثلاثين من نفس السفر وليس بعد فترة زمنية طويلة ولكن عقب العودة من خلوة الجبل التي كان فيها موسى وشعب عهد الوحي في انتظاره فما الذي حدث من مفارقات تحدثت عنها الإصحاحات من الرابع والعشرين حتى الحادي والثلاثين وجاء نقيضها في الثاني والثلاثين الذي حدث كما يقول الإصحاح الثاني والثلاثون وهو فيما يقوله كأنه يرد على القائلين بعصمة ووحدة العهد القديم: إن الشعب بعد أن غاب عنه موسى أربعين يوماً ضاق ذرعاً بالإنتظار، وأحس أنه في محنة ساقه اليه موسى بعد أن غرر بهم إذ أخرجهم من مصر فقاموا إلى حلى نسائهم وصاغوا منها عجلاً ذهبياً وقضوا وقتهم حوله يرقصون ويلعبون ويعبدون؟ ولقد كان المشهد أمام موسى حين العودة مزعجاً للغاية إلى الحد الذي عبرت عنه فقرات إصحاح سفر الخروج بأنه طرح ما كتبه له الرب بإصبعه وكسر ما كتب بإصبع الرب على لوحي الحجر في أسفل الجبل.

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال على ضوء رواية سفر الخروج هذه؟ . . الوحي الإلهي حدث لموسى مشافهة، والعهد الديني أخذ من بني إسرائيل في جمع من بني

إسرائيل وصعد موسى إلى الجبل في وسط بشارة أو كرامة بادية واضحة والجمع ينتظر عودته، وردة بني إسرائيل عن موسى مسجلة وواضحة كما تقول عبارات إصحاحات سفر الخروج وعبادة الصنم من الذهب في غيبة النبي مقررة ومدونة، وكسر اللوحين الذين كتبهما الله بإصبعه لموسى منسوبة ومسجلة، هل يمكن القول بعد ذلك أن شيئاً مقدساً مكتوباً أو محفوظاً يمكن أن يظل على ما هو عليه مذكوراً أو محفوظاً من بني إسرائيل؟ وإذا كان يمكن القول على ما يقوله السفر نفسه بعد ذلك من أن الرب سرعان ما وجه نداءاً آخراً إلى موسى بأن يبحث له عن لوحين من حجر مثل الأولين يكتب له فيهما مثلما كتب في اللوحين الذين كسرهما موسى فإنه ليس هناك ما يمنع من تكرار الموقف السابق، فضلاً عن أن اللوحين كتبا هذه المرة بيد موسى لا بإصبع الله كما إدعى السفر في المرة الأولى. وللنظر في نص السفر في الموقفين في الإصحاح الثاني والثلاثين عن نقض العهد وعبادة الصنم[1]: (. . . ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل إجتمع الشعب على هارون وقالوا له قم؛ اصنع لنا آلهة تسير أمامنا لأن هذا موسى الرجل الذي أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه، فقال لهم هارون انزعوا أقراض الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتوني بها، فنزع كل الشعب أقراص الذهب التي في آذانهم وأتوا بها إلى هارون فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر فلما نظر هارون بنى مذبحاً أمامه وناد هارون وقال غداً عيد للرب فبكروا في الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامه وجلس الشعب للاكل والشرب ثم قاموا للعب فقال الرب لموسى إذهب أنزل لأنه قد فسد شعبك الذي أصعدته من أرض مصر زاغوا سريعاً عن الطريق الذي أوصيتهم به، صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له وذبحوا له وقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أصعدتك من أرض مصر).

(وسفر التثنيه) في الإصحاح الحادي والثلاثين فقرات ٩ ـ ١١ يلقى هو الآخر

---

(١) (سفر الخروج) الإصحاح الثاني والثلاثون فقرات ١ ـ ٩.

ضوءاً لا بأس به في الكشف عن المناخ والظروف والأحوال التي استقبل فيها أصحاب التوراة: ان مضمون الإصحاح الحادي والثلاثين في التثنيه يتلخص في أن موسى عليه السلام بعد أن كتب التوراة في أعقاب حادث كسر اللوحين الذي ذكره سفر الخروج سلمها مكتوبة مدونة للكهنة من بني (لاوى) ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم بقراءتها في نهاية كل سبع سنوات وأراد موسى أن يأخذ عليهم من أنفسهم وأمرهم بوضع كتاب التوراة بجانب تابوت عهد الرب، ويكشف السفر سر هذا النوع من التحوط وهو ان موسى يعلم مدى فساد وزيغان قومه فماذا تقول التثنيه؟ :

(. . . وكتب موسى هذه التوراة وسلمها للكهنة بني لاوى حاملي تابوت عهد الرب ولجميع شيوخ إسرائيل وأمرهم موسى قائلاً في نهاية السبع سنين في ميعاد سنة الإبراء في عيد المظال، حينما يجيء جميع إسرائيل لكي يظهروا أمام الرب آلهك في المكان الذي يختاره تقرأ هذه التوراة أمام كل إسرائيل في مسامعهم).

ولكن شيئاً من هذا لم يحدث فلم تحفظ التوراة بجانب التابوت ولم تقرأ كل سبع سنوات وهذه النتيجة التي نسوقها نحن هنا ليست اجتهاداً أو أخباراً بما كان لكنها نبوءة وبشارة وتوقعاً من موسى نفسه لقومه ومن حاملي تابوت الرب لأنه. .

(. . . عندما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة في كتاب الى تمامها أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب قائلاً خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب عهد الرب آلهكم ليكون هناك شاهداً عليكم، لأني أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة هوذا وأنا بعد حي معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتي، اجمعوا إلى كل شيوخ أسباطكم وعرفاءكم لأنطق في مسامعهم بهذه الكلمات، وأشهد عليهم السماء والأرض، لأني عارف بعد موتي تفسدون وتزيغون عن الطريق الذي أوصيتكم به ويصبكم الشر في آخر الأيام، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال يديكم، فنطق موسى في مسامع كل جماعة إسرائيل بكلمات هذا النشيد إلى تمامه[1]

---

(١) (سفر التثنية) الإصحاح الحادي والثلاثون فقرات ٢٤ - ٣٠.

وإلى هنا والأمر لا يحتاج إلى تعليق، فموسى أعطى التوراة لجماعـة من بنـي إسرائيل وأمرهم بوضعها بجانب تابوت عهد الرب، وهو يعلم أنهم لن يعملوا أكثر من الشر الـذي يغيظـون به هذا الـرب، لكن واحـداً من عشـاق التـأويلات . . والتخريجات اللاهوتية القائمة على الرمز قد يقول لنا: وعلى فرض صحة نبوءة موسى في بني إسرائيل حين أمرهم بوضع التوراة بجانب تابوت العهد وأمرهم بالحفاظ عليها وأخبر بأنهم يفعلـون الشرور حتـى يغيظـوا الـرب فإنـه ليس بالضرورة أن تكون شرورهم قد تناولت التوراة بالحذف أو الإضافة، لكن العجيب والغريب الذي لم ينتبه له شراح التوراة كثيراً هو أن يشوع كما جاء في سفره قام بعملية تدوين ونسخ للتوراة التي تركت مع اللاويين، على حجارة غير الحجارة التي تركها موسى وقـام بعملية النسخ والتدوين هذه في ظل عهد وحكم وفريضة أخذها على بني إسرائيل وهذا بالقطع إقرار من السفر بأول عملية حذف وإضافة في التوراة التي يرد ذكرها بين الأسفار. . . الخمسة. فماذا في سفر يشوع يقول الإصحاح الثامن ومن فقرات ٣٠ ـ ٣٥ وبالنص[١]: (. . . حينئـذ بنى يشوع مذبحاً للرب آله إسرائيل في جبل عيبال كما أمر موسى عبد الرب بني إسرائيل، كما هو مكتوب فـي سفر توراة موسى، مذبـح حجارة صحيحة، لم يرفع أحد عليها حديداً وأصعدوا عليه محرقات للرب وذبحوا ذبائح سلامة وكتب هناك على الحجارة نسخة توراة موسى التـي كتبهـا أمـام بنـي إسرائيل وجميع إسرائيل وشيوخهم والعرفاء وقضاتهم وقفوا جانـب التابوت من هنا ومن هناك مقابل الكهنة اللاويين حاملي تابوت عهد الرب، الغريب كما الوطني، نصفهم الى جهة جبل جرزيم ونصفهم إلى جهة جبل عيبال كما أمر موسى عبد الرب أولا لبركة شعب إسرائيل وبعد ذلك قرأ جميع كلام التوراة البركة واللعنة حسب كل ما كتب في سفر التوراة لم تكن كلمة من كل ما أمر به موسى لم يقرأها يشوع قدام كل جماعة إسرائيل والنساء والأطفال والغريب السائر في وسطهم).

ومع أن يشوع لم يقل لنا في هذه النصوص ما الذي فعلوه بالنسخة الحجرية

---

(١) (سفر يشوع) إصحاح ٨ فقرات ٣٠ ـ ٣٥.

التي تركها موسى بعد أن كتب هو نسخة عن توراة موسى، هل أبقوها معهم؟ وهل كانت تصلح للقراءة وللأخذ منها، وإذا كان ذلك كذلك فلم كانت نسخة يشوع وعلى فرض وعهود جديدة ثم وعلى فرض بقاء النسختين معاً فأيهما كان عند بني إسرائيل أكثر أهمية بل أكثر قداسة النسخة التي تركها موسى أم تلك التي نسخها يشوع عن نسخة موسى ولم كان العهد وجمع يشوع للشعب عند كتابة نسخته وإذا كان الأمر يتعلق بمجرد نسخة للتداول فلم أقتصر على نسخة واحدة لم لم ينسخوا عشرات النسخ للتداول ولديوع النص الذي تركه موسى.

وأياً كان الأمر حول النسخة التي تركها موسى وتلك التي نسخها أو دونها يشوع فإن سفر صموئيل الأول يخبرنا عن مصير التابوت الذي كان على الإسرائيليين أن يحفظوا التوراة التي تحدثت عنها الأسفار إلى جواره بناء على أوامر وتوجيهات موسى لهم، ذلك أنه أمام إحدى المعارك العنيفة التي كانت بين بني إسرائيل الفلسطينيين على حد ما يزعم سفر صموئيل، نقل الإسرائيلين التابوت من مكانه في (شيلو) الى ميدان القتال على أمل أن يجلب نصراً على أعدائهم، لكن الدائرة تدور عليهم ويستولي الفلسطينيون على التابوت ويصبح في محلتهم، وحتى ولو سلمنا بما يخبر به العهد القديم فإن التابوت كما هو في الإصحاح السادس من سفر صموئيل الأول[1] **يظل متنقلاً بين بلاد الفلسطينيين والإسرائيليين إلى أن يستقر آخر المطاف في** أورشليم داوود وفي عهد إبنه سليمان وبعد بناء الهيكل حين نقل إليه التابوت لم يكن به سوى لوحي الحجر أما التوراة التي كتبها موسى والتي نسخها يشوع فلم يرد لهما ذكراً، ولم يتحدث أحد عن أخبار نسختي موسى ويشوع ولننظر ما يقوله صموئيل الأول في الإصحاح الرابع[2].. (وخرج إسرائيل للقاء الفلسطينيين للحرب ونزلوا عند حجر المعونة، وأما الفلسطينيون فنزلوا في أفيق.

---

(١) (سفر صموئيل الأول) الإصحاح السادس فقرة ١ ـ وكذلك صموئيل الثاني في الإصحاح السادس فقرة ١٢.

(٢) (صموئيل الأول) الإصحاح الرابع فقرات ١ ـ ١١.

واصطف الفلسطينيون للقاء اسرائيل واشتبكت الحرب فانكسر اسرائيل امام الفلسطينيين، وضربوا من الصف في الحقل نحو أربعة الاف رجل، فجاء.. الشعب الى المحلة، وقال شيوخ اسرائيل لماذا كسرنا الرب امام الفلسطينيين لنأخذ لأنفسنا من شيلوه تابوت عهد الرب فيدخل في وسطنا ويخلصنا من يد اعدائنا، فارسل الشعب الى شيلوه، وحملوا من هناك تابوت عهد رب الجنود الجالس على الكروبيم وكان هناك ابناء عالي حفنى وفينحاص مع تابوت عهد الله وكان عند دخول تابوت عهد الرب الى المحلة ان جميع اسرائيل هتفوا هتافا عظيما حتى ارتجت الأرض، فسمع الفلسطينيون صوت الهتاف فقالوا ما هو صوت هذا الهتاف العظيم في محلة العبرانيين، وعلموا ان تابوت الرب جاء الى المحلة، فخاف الفلسطينيون، لأنهم قالوا قد جاء الله الى المحلة، وقالوا ويل لنا لأنه لم يكن مثل هذا منذ امس ولا ما قبله، ويل لنا من ينقذنا من يد هؤلاء الآلهة القادرين، هؤلاء هم الالهة الذين ضربوا مصر بجميع الضربات في البرية، تشددوا وكونوا رجالا ايها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم، فكونوا رجالا وحاربوا، فحارب الفلسطينيون وانكسر اسرائيل، وهربوا كل واحد الى خيمته، وكانت الضربة عظيمة جداً وسقط من اسرائيل ثلاثون الف رجل وأخذ تابوت الله، ومات ابنا عالي: حفنى وفنحاص).

وهذا النص على ما فيه من مبالغات وخيال يطالعنا بأخبار الحروب.. الاسرائيلية الفلسطينية التي كان ينكسر فيها الاسرائيليون حتى مع استحضار البركات والبشارات وشحذ الهمم لهذا الجانب الديني الضعيف اصلا في وجدان الانسان الاسرائيلي ويطالعنا بجلد وصبر وشجاعة الانسان الفلسطيني القديم الذي يبدو انه استعبد العبراني اكثر من مرة في مواجهات سابقة عن تلك التي يحدثنا عنها هذا الاصحاح. وتبرز وتتضح هذه المعاني من عبارة الاصحاح الرابع في صموئيل التي جاءت بين اسياق: (... كونوا رجالا ايها الفلسطينيون لئلا تستعبدوا للعبرانيين كما استعبدوا هم لكم). كما يخبرنا النص بأن تابوت الله قد اخذ من ايدي العبرانيين، لكن رقم الثلاثين الف رجل الذين سقطوا من اسرائيل مزعج للغاية ومبالغ فيه من

جانب كاتب السفر فاذا كان الذين سقطوا قتلى فقط بهذا. . الحجم فكم كان عدد الجيش الاسرائيلي أصلاً بل كم كان عدد الشعب الإسرائيلي جميعه.

ومن الجدير بالذكر ان الأساطير الحبشية تروي عن التابوت الإسرائيلي في عهد سليمان ان (ابن الحكيم) الذي ولدته (مكيدا) من سليمان بطريق غير مشروع[1]. طلب من سليمان أبيه جزءاً من غطاء تابوت العهد ليهديه لأمه وشعبها.

وحين أجاب سليمان سؤله استطاع بعض مرافقيه من أبناء أورشليم بتوجيه من الكاهن (عارز بن صادوق) أن يصنعوا صندوقاً على صورة تابوت العهد ثم استبدلوه. . بالتابوت الأصلي وهكذا كان لابن الحكيم عند سفره من أورشليم الى الحبشة التابوت والغطاء معاً، ودون ان يدري بأمر سرقة التابوت الا حين وصل الى مصر ورأى ان تماثيل آلهتها كانت فيما تقول الأساطير الحبشية تنحني للتابوت وتسجد له، ونحن هنا لا نريد ان نعلق على هذه الأسطورة أهمية كبيرة في دراستنا النقدية لمراحل وكيفية تدوين كتب العهد القديم وخاصة سفر التوراة الى الكتب الخمسة التي نحن بصدد الحديث عنها. لكن الذي نود أن ننبه اليه وفي وضوح ان الدارس للتراث الإسرائيلي يجد ان الفترة التي اعقبت موت سليمان قد تعرض بعدها بنو اسرائيل لمراحل من الصراع السياسي وألوان من التمزق الإجتماعي استتبع ذلك كله حدوث فجوة وهوة عميقة بين الشعب الإسرائيلي بمختلف طوائفه وبين القيادات القائمة على قيم الشريعة وكان طبيعياً أن تتسع الفجوة بين الشعب وبين البقية التي يمكن أن تكون باقية من قيم الشريعة حتى عهد سليمان، ثم لما انتهى دور سليمان كان شيئاً طبيعياً ألاَّ يرى الشعب الإسرائيلي جمهوره وقيادته وكهانته وشيوخه شيئاً ما مرتبطاً بقيم هذه الشريعة وبعد زمن طويل من وفاة سليمان الى عصر ظهور الملك اليهودي الذي يراه العهد القديم رجلاً فاضلاً ومستقيماً في عيني الرب وأعني به (يوشيا الملك) كان الشعب اليهودي الإسرائيلي بكافة طوائفه وقياداته من عصر سليمان قد انقطعت صلته تماماً بكل ما يمكن ان يكون لديه بقية من قيم الشريعة ثم لما تولى الملك يوشيا

---

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى القديم جزء ٢ صفحة ٢٧.

بعد ثمانية عشر عاماً من حكمه كلف احد موظفي قصره وهو (شافان بن أصليا بن مشلاّم) بأن يذهب الى بيت الرب ويقابل كبير الكهان وهو (حلقيا) ليحسب له الفضة المدخلة الى بيت الرب التي جمعت من أموال الشعب. والأمر الذي لم ينتبه اليه المفكرون اليهود القدامى والمحدثون وكان يجب عليهم أن يفطنوا له ويدركوه هو انه من موت سليمان وحتى عصر ظهور يوشيا الملك حوالي ٦٢٢ قبل الميلاد أي أكثر من ثلاثمائة عام ولا توجد أدنى معلومة عن التوراة ولم يسأل أحد من الشعب أو قادته عن سفر الشريعة ثم فجأة وبعد عمليات عديدة من الهدم والبناء يكتشف الكاهن حلقيا وبطريقة الصدفة المجردة (سفر الشريعة) ومتى يكون ذلك؟ عندما يرسل اليه الملك يوشيا خادمه (شافان بن اصليا بن مشلاّم) للمحاسبة ومراجعة الأموال المجبية من الشعب، وعندما يقرأ الجميع الكاهن حلقيا وشافان والملك والشعب يدرك الجميع أنهم حادوا وضلوا وزاغوا عن الطريق المستقيم، والعجيب الغريب الذي يقصه علينا سفر الملوك الثاني في الاصحاح رقم ٢٢ ومن الفقرات ٣ ـ ١٣ وكذلك اخبار الأيام الثاني من الأصحاح ٣٤ فقرات ٨ ـ ٢٨ مما يتعلق بهذه الوقائع لم يفطن اليه كما قلنا العقل اليهودي في القديم والحديث ويدرك انه امام محنة قاسية وانه واقع امام عملية تزييف كبرى قام بها الكاهن حلقيا في دعواه الكاذبة التي ادعى فيها انه وجد سفر الشريعة في ركن من اركان الهيكل.

ان الهيكل قبل عهد يوشيا وقبل عهد احاز ملك يهوذا قد تعرض للنهب والعدوان ولم يكن مغلقا على أسرار فضلاً عن أن الكهنة والسدنة والخدم يدخلونه كل يوم وليس بالقطع فيه من الجوانب أو الحجرات أو السراديب شيئاً يمكن ان لا تكون قد وقعت عليه يد الكهان. ثم ان يوشيا لم يرسل الى حلقيا شافان إلا بعد مضي ثمانية عشر عاماً على ملكه كما يقول الإصحاح الثاني والعشرين من الملوك الثاني فأين كان حلقيا طوال هذه المدة ولمَ لم تقع عينه على سفر الشريعة طوال سبعة عشر عاماً لم يقل لنا كاتب الملوك الثاني أي نسخة من الشريعة وجدها حلقية لتلك التي كتبها موسى وأخذ عليها العهد من بني اسرائيل، أم النسخة التي خطها يشوع وأضاف اليها ما أضاف وحذف منها ما حذف على ضوء ما في سفره أم لوحي الحجر الذين

تركهما موسى مع تابوت العهد أن شيئاً من هذا لم يوضحه لنا حلقيا فيما نسبت اليه الأسفار.

ولننظر الى ما يقصه علينا في هذا الشأن الإصحاح الثاني والعشرون من الملوك الثاني: (. . . وفي السنة الثانية عشر للملك يوشيا أرسل الملك شافان بن اصليا بن شلاّم)الكاتب الى بيت الرب قائلاً إصعد الى حلقيا الكاهن العظيم فيحسب الفضة المدخلة الى بيت الرب التي جمعها حارسوا الباب من الشعب. . فيدفعوها ليد عاملي الشغل الموكلين لبيت الرب ويدفعوها الى عامل الشغل الذي في بيت الرب لترميم سلم البيت للنجارين والبنائين والنحاتين ولشراء أخشاب وحجارة منحوتة لأجل ترميم البيت الا انهم لم يحاسبوا بالفضة المدفوعة لأيديهم لأنهم انما عملوا بأمانة فقال حلقيا الكاهن العظيم لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر لشافان فقرأه وجاء شافان الكاتب الى الملك ورد على الملك جواباً وقال قد افرغ عبيدك الفضة الموجودة في البيت ودفعوها الى يد عاملي الشغل وكلاء بيت الرب وأخبر شافان الكاتب الملك قائلاً قد اعطاني حلقيا الكاهن سفراً وقرأ شافان أمام الملك فلما سمع الملك كلام سفر الشريعة مزق ثيابه وأمر الملك حلقيا الكاهن واخيقام بن شافان وعقبور بن ميخا وشافان كاتب وعسايا عبد الملك قائلاً. . إذهبوا اسألوا الرب لأجلي ولأجل الشعب ولأجل كل يهوذا من جهة كلام هذا السفر الذي وجد لأنه عظيم هو غضب الرب الذي اشتغل علينا من أجل أن آباءنا لم يسمعوا لكلام هذا السفر ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب علينا).

ونفس النص تقريباً يسوقه عن هذه الواقعة نفسها سفر اخبار الأيام الثاني في الإصحاح الرابع والثلاثين وقد أراد كتّاب السفرين: الملوك الثاني وأخبار الأيام الثاني بما أورداه التدليل على حفظ وصون سفر الشريعة لكنهم لم يفطنوا الى الخلل الموضوع والتدوين الذي جاء بين سياق ما ورد في السفرين فضلاً عن عدم المامهم بما سبق الحادثة التي يروونها في السفرين مما يجعل قبول ما في السفرين عن سفر الشريعة المكتشف على يد حلقيا متعذراً بل وغير متصور على الإطلاق.

يقول الإصحاح الرابع والثلاثون من سفر أخبار الأيام الثاني فقرات ٨ ـ ٢٢ : في

السنة الثانية عشر من ملكه بعد ان طهر الأرض والبيت أرسل شافان بن اصليا وملسيا رئيس المدينة ويوآخ بن احاز المسجل لأجل ترميم بيت الرب آلهه، فجاؤا الى حلقيا الكاهن العظيم وأعطوه الفضة المدخلة الى بيت الله التي جمعها اللاويون حارسوا الباب منسى وفرايم ومن كل بقية اسرائيل ومن كل يهوذا وبنيامين ثم رجعوا إلى أورشليم ودفعوها لأيدي عاملي الشغل الموكلين في بيت الرب فدفعوها لعاملي الشغل الذين كانوا يعملون في بيت الرب لأجل اصلاح البيت وترميمه وأعطوها للنجارين والبنائين ليشتروا حجارة منحوتة وأخشاباً للوصل ولأجل تسقيف البيوت التي أخربها ملوك يهوذا وكان الرجال يعملون العمل بأمانة وعليهم وكلاء: تحت عوبيديا اللاويان من بني مراري وزكريا ومشلام من بني القهائيين لأجل المناظرة، ومن اللاويين كل ماهر بآلات البناء وكانوا على الحمال ووكلاء على كل عامل شغل في خدمة فخدمه وكان من اللاويين الكتاب وعرفاء وبوابون. وعند اخراجهم الفضة المدخلة الى بيت الرب وجدا حلقيا الكاهن سفر الشريعة الرب فأجاب حلقيا وقال لشافان الكاتب قد وجدت سفر الشريعة في بيت الرب وسلم حلقيا السفر الى شافان فجاء شافان بالسفر الى الملك ورد الى الملك جواباً قائلاً: كل ما أسلم ليد عبيدك هم يفعلونه وقد افرغوا الفضة الموجودة في بيت الرب ودفعوها ليد الوكلاء ويد عاملي الشغل وأخبر شافان الكاتب الملك قائلاً: قد أعطاني حلقيا الكاهن سفراً وقرأ فيه شافان امام الملك، فلما سمع الملك كلام الشريعة مزق ثيابه وأمر الملك حلقيا واخيقام بن شافان وعيدون بن ميخا وشافان الكاتب وعسايا عبد الملك قائلاً: اذهبوا اسألوا الرب من أجل من بقي من إسرائيل ويهوذا من كلام السفر الذي وجد لأنه عظيم غضب الرب الذي انسكب علينا من أجل ان أباءنا لم يحفظوا كلام الرب ليعملوا حسب كل ما هو مكتوب في هذا السفر.

هذا هو نص ما جاء في أخبار الأيام الثاني ولا تفسير عند أتباع وشراح العهد القديم لهذا التوافق العجيب في رواية الحدث الواحد في سفرين بينهما حقبة زمنية طويلة وبالقطع أحدهما ولو في مراحل التدوين فقط متقدم عن الآخر فلم لم يكتف اللاحق بالاشارة الى هذا الحادث الذي كتبه السابق أو أن يعرضه لكن بصياغة يخالف

بها أحدهما الآخر، وأياً كان الأمر فهذان المصدران من كتب العهد القديم يريدان أن يقولا: ان سفر الشريعة في عهد يوشيا كان موجوداً ومتداولاً وان حلقيا لم يكن له دور أكثر من كونه مكتشفاً لسفر الشريعة، والسؤال الذي بين ايدينا هو ما الذي جعل حلقيا الكاهن على فرض صحة الرواية التي تقول أنه عثر على سفر الشريعة في ركن من أركان الهيكل ما الذي جعله يوقن أن ما وجده كان هو سفر الشريعة الرب الذي كان بيد موسى كما يقول إخبار الأيام الثاني محدداً على غير ما فعل الملوك الثاني خاصة وان السفر كما تؤكد عبارات اصحاحاته يقول أن الآباء وبالقطع بينهم أباء حلقيا لم يعرفوا ولم يحفظوا كلام الرب فمن أين عرف حلقيا أن ما عثر عليه من نصوص هو كلام الرب وأن عهد الآباء والأبناء بكلام الرب كما يقول النص أنهم لم يعرفوا ولم يحفظوا.

واذا لم يكن حلقيا هو الذي ألف وصنع ما قدمه من نصوص وما صنعه من سفر لشافان فمن أين له أن يعتقد أن ما عثر عليه هو سفر شريعة الرب، لم لا يكون مدسوسا في البيت أعني في الهيكل من أعداء يهوذا وإسرائيل، ثم ولماذا لم يتحقق الملك هو الآخر هذا الملك الذي تعبر عنه الأسفار بأنه يعمل المستقيم في عيني الرب وحتى يوشيا الملك لماذا لم يتحقق من سلامة وصحة اكتشاف حلقيا خاصة وانه طوال سبعة عشر عاماً من ملكه وأخبار الهيكل تأتيه. ولا معلومة واحدة قد وصلته عن سفر الشريعة، ولم يكن قد كلف أحداً بالبحث عنه فضلاً عن انقطاع صلة الشعب والكهان بنصوص سفر الشريعة وما بقي منها اذا كان قد بقي شيء فهو مما حفظته الذاكرة في وعي بعض الرجال عبر أجيال طويلة. فإذا لم يكن الحادث حادث اكتشاف حلقيا لسفر الشريعة المدعى في السفرين المذكورين مسرحية مدبرة بين الملك يوشيا وكاتبه شافان والكاهن حلقيا فالذي لا جدال فيه ان حلقيا يكون قد نجح في اقناع . . الشعب والملك بهذه الأكذوبة التي سجلتها فقرات السفرين المشار اليهما آنفا.

وفي هذا يقول العلامة : (رحمت الله بن خليل الرحمن الهندي) في كتابه: (اظهار الحق) :(العجب كل العجب ان تكون النسخة في البيت لا يراها أحد فهذه

النسخة ما كانت الا من مخترعات خلقيا فإنه لما رأى توجه السلطان والأراكين الى اتباع الملة الموسوية جمعها من الروايات اللسانية التي وصلت اليه من أفواه النـاس سواء كانت صادقة أو غير صادقة وكان الى هذه المدة يقصد فتـرة حكم يوشيا في جمعهـا وتأليفها فبعـدما جمع نسب إلى موسى عليه السلام، ومثـل هذا الإفتـراء والـكذب لترويج الملة وإشاعة الحق كان من المستحبات الدينية عند متأخري اليهود وقدماء المسيحيين.)[1].

وبجدل علمي متزن راح (رحمت الله بن خليل) في كتابه (اظهار الحق) يناقش حادث اكتشاف حلقيا لسفر الشريعة ويقول: (ولكني أقطع النظر ها هنا عن هذا وأقول[2] أنه وجدت نسخة التوراة في العام الثامن عشر من سلطنة يوشيا وبقيت معمولة الى ثلاث عشر سنة مدة حياته، ولما بات المجلس (يهوحاز) على سرير السلطنـة ارتـد وأشاع الكفر وتسلط عليه سلطان مصر وأجلس أخاه على سرير السلطنة وهـو كان مرتداً أيضاً كأخيه، ولما مات جلس ابنه على السرير وكان مرتداً كأبيه وعمه وأسره بخنصـــر مع جمع غفير من بني إسرائيل ونهب بيت المقدس وكنز بيت الملك وأجلس عمه على سرير السلطنة وكان مرتداً أيضاً كإبن أخيه فإذا على هذا فأقول: ان تواتر التوراة في اليهود منقطع قبل زمان يوشيا والنسخة التي وجدت في عهـده لا اعتماد عليها ولا يثبت بها التواتر، ومع ذلك ما كانت معمولة الا الى ثلاث عشر سنة وبعدها لم يعلم حالها، والظاهر انه لما رجع الارتداد والكفر بين اولاد يوشيا زالت قبل حادثة بختنصر وكان وجودها بين ازمنة الإرتداد ولو فرض بقاؤها أو بقاء نقلها فالمضمون زوالها في حادثة بختنصر.

هذا ومن المؤكد أن اليهود في مرحلة السبي والتـي تكررت مرات بعـد هجمـة نبوخذ نصر لم يكونوا يتداولون فيما بينهم ولو سراً شيئاً من سفر الشريعة ولم يشر الى ذلك واحد من أنبياء مرحلة السبي الذي فاض بذكرهـم العهـد القـديم باستثنـاء

---

(١) (اظهار الحق) رحمة الله بن خليل الرحمن الهندي إخراج وتحقيق عمر الدسوقي الجزء الأول وزارة الشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية مكتبة الوحدة العربية بالدار البيضاء عام ١٩٦٤ صفحة ٣٢٥.

(٢) المرجع السابق صفحة ٣٢٦.

(عزرا) الذي شرع يقرأ على العائدين طوال يوم كامل ما قيل عنه انه (سفر شريعة موسى) ولما فرغ من قراءتها ومجموعة المعاونين له أقسم الكهنة والزعماء على ان يطيعوا هذه الشرائع ويتخذوها دستوراً لهم وأغلب الظن عندي أن مجموعة الشرائع التي قرأها (عزرا) حين العودة على أنها سفر شريعة موسى ليست هي سفر الشريعة وليست هي كذلك السفر الذي ادعى حلقيا انه سفر الشريعة في عهد يوشيا وذلك لسبب واحد وبسيط وهو ان سفر الشريعة الذي ادعى حلقيا العثور عليه قرأه على الملك في يوم واحد أو في جلسة واحدة ثم بكوا بعدها جميعاً بينما الشرائع التي قرأها عزرا على الشعب حين العودة على انها من سفر الشريعة احتاجت في نصوصها الى أسبوع كامل كما يقول (نحميا في سفره بالإصحاح الثامن يقول في الفقرة ١٣ : (وفي اليوم الثاني اجتمع رؤوس آباء جميع الشعب والكهنة واللاويون الى (عزرا) الكاهن ليفهمهم كلام الشريعة) والفقرة رقم ١٨ من نفس السفر في نفس الإصحاح المنسوب لنحميا تقول (وكان يقرأ في سفر شريعة الله يوما فيوماً من اليوم الأول الى اليوم الأخير وعملوا عيداً سبعة أيام وفي اليوم الثامن اعتكفوا حسب المرسوم).

وأعتقد انه بهذه المقابلة بين الموقف الذي قرأ فيه حلقيا الكاهن سفر الشريعة أمام الملك وبين الأيام التي كانت تقرأ فيها الشريعة على يد (عزرا) يوما بعد الآخر يتأكد لنا أن هذه التي كان يقرأها حلقيا غير تلك التي كان يقرأها (عزرا).

ويكاد يجمع علماء الحضارة وفيهم (ول ديورانت)[1] وأسبينوزا[2] على ان اليهود

---

(١) يقول(ول ديورانت)في (قصة الحضارة في الجزء الثالث من المجلد الثاني طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الطبعة الثانية في صفحة ٩٣: (. . . كتب اليهود بالعبرية أو الارامية أو اليونانية روائع خالدة كأسفار الجامعة ودانيال وأجزاء من الأمثال والمزامير والجزء الأكبر من الأسفار الأبوكريفية، كتبوا بعضها في أورشليم ومعظمها في الإسكندرية وبعضها الآخر في غيرهما من موانيء شرق البحر الأبيض المتوسط وكتبوا تواريخ كسفر الأخبار وقصصاً صغيرة كاستر ويهوديت وأناشيد للأسر كسفر طوبيت. . ويقول ديورانت: (وقبل ان يختم القرن الثالث كان علماء المجتمع العظيم قد فرغوا من نشر الأدب القديم كله وانتهوا بكتب العهد القديم، وقد حكموا في ذلك الوقت أن عصر الأنبياء قد إنتهى وإن الوحي اللفظي قد انتهى زمنه، وكانت نتيجة هذا الحكم أن كثيراً مما كتب في ذلك العصر وان كان مليئاً بالحكمة والجمال لم تتح فرصته من السند الالهي.

(٢) (اسبينوزا) رسالة في اللاهوت والسياسة.

قد قاموا بتجميع ما سمي بالتوراة أثناء السبي البابلي في شكل . . شرائع وتعاليم وأنهم كتبوا هذه الشريعة التي أرادوا بها أن ينظموا مجتمعهم ولقد كتبت هذه التعاليم بتأثير من قوانين حمورابي.

ولئن كنا هنا لا نريد ان نقول ما يقوله علماء الغرب عن التشابه الكبير بين قوانين حمورابي وقوانين التوراة وشرائع العبرانيين[1] فإن الذي لا شك فيه ان التوراة الحالية التي بين أيدينا ومن خلال أسفار الخمسة في العهد القديم قد مرت مراحل متعددة تطورت خلالها مادتها الاخبارية وتغيرت بالطبع أساليب تدوينها وتسجيلها بل لقد تغيرت وظيفة النبي والكاهن من حال إلى حال فطورا يقوم بدور القاضي وآخر بدور السياسي والثالث يقوم بدور مقيم الشعائر وحارس الهيكل ورابع في خدمة المحتل أو المستعمر عدو رب الشعب والشعب وهكذا بل تغيرت صفات ومعالم العقيدة الدينية التي تعرضها الأسفار الخمسة من مرحلة عن الأخرى وكان ذلك بأثر التنقيح والحذف والإضافة الذي تعرضت له الأسفار الخمسة ونعتقد ان النسخة الأصلية او قل النسخة القريبة من أصول ونصوص وجوهر النسخة الأصلية لم يعد منها متداولاً او معروفاً إلا ما علق بذهن بعض الكهان وكان نقله بهذا الشكل الضيق المحصور المتمثل في النقل الشفهي عبر أجيال بعض الكهان ثم كان يتداول على بعض الألسنة كتراث ديني وقومي، وظل الحال على هذا المنوال دون ان يكون بين أيدي الشعب كتاباً مدوناً أو مسجلاً يتداول على أنه سفر الشريعة حتى العودة من السبي وبعد عدة أجيال بدأ تدوين التوراة العبرية مما انتهى وتناهى الى الكهان وخاصة في أعقاب عملية التخزين والاستحضار التي قام بها بعضهم في ظل القهر البابلي وقد أخذت الأسفار الخمسة صورة أقرب ما تكون إلى وضعها الحالي في كتب العهد القديم ثم تناولتها يد التنقيح منذ هذه المرحلة بعد العودة من سقي بابل حتى قيام دولة الإسكندر، بل إن هناك بعض الباحثين المعاصرين من يرى على ضوء دراسته لتاريخ حركات الشعوب في الشرق الأدنى القديم أن أسفار بعض كتب الأنبياء في العهد

---

(١) (محمد بيومي مهران) دراسات في تاريخ الشرق الأدنى جزء ٢ ص ٣٧.

القديم فيما ترويه من حوادث وأخبار تاريخية ترجح أنها أقدم من الكتب الخمسة المسماة (بالتوراة) والى مثل هذا الرأي يذهب الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل في كتابه الموسع (مصر والشرق الأدنى القديم) الجزء الثالث صفحة ٢٠٣[1]. ومع اننا قد لا نرجح مثل هذا الرأي الذي يذهب اليه الأستاذ الدكتور نجيب ميخائيل بالرغم من أهميته إلاّ أنه يصبح في مجال التاريخ لمراحل تدوين الكتب الخمسة والتعرف على هذه المراحل عاملاً مساعداً على الكشف عن كل ما يحيط بمراحل تدوين الكتب الخمسة من غموض. كما انه يعاون في التدليل على أن هذه الكتب لم تحفظ قبل عصر السبي بالتواتر ولم تنقل الينا كما هي دفعة واحدة وإنما تمت لها عمليات من التتميم والتكميل وأصبحت على حال غير الحال الذي تركه عليها نبي الله موسى عليه السلام بين بني إسرائيل.

وان كان هذا القول الذي لا يعود بتاريخ التوراة التي في العهد القديم الى ما قبل العودة من السبي لا يمنع من أنه قد يكون بين سياق الكتب الخمسة فكراً بشرياً مدوناً أقرب ما يكون الى روح ما أملاه بعض الكهان حين تم تدوين التوراة العبرية مما كان عالقاً بذهنهم عن أخبار سفر الشريعة أي تعاليم التوراة. أما نص الوحي الهي الذي تلقاه موسى والذي دون على لوحي الحجر أو حتى النسخة التي نسخها يشوع عن نسخة موسى فيما روت الأسفار لو صحت روايتها فإن شيئاً من هذا لم يثبت تواتره ولم ينته إلينا عبر الأسفار الخمسة أو غيرها من كتب العهد القديم. وقصتها مع تابوت بنى اسرائيل.

---

(١) (نجيب ميخائيل) مصر والشرق الأدنى الجزء الثالث صفحة ٢٠٣ الإسكندرية عام ١٩٦٦.



الباب السادس

الإطار العام لبني إسرائيل في القرآن الكريم

القصص القرآني عن تاريخ بني إسرائيل

القرآن يرفع الخطيئة عن بني إسرائيل

عذاب الله لبني إسرائيل في الدنيا

الإطار العام لبني إسرائيل في القرآن الكريم

حين نبحث عن الوحدة الموضوعية في خبر القرآن الكريم عن بني إسرائيل نرى ما هو أدق من آلة تصوير ترصد جوانب، ما بطن فيه وما ظهر من التاريخ اليهودي نرى أدق ما فيه وأبسطه، وما عظم أو صغر ويضع القرآن الكريم كل التفاصيل المتعلقة ببني إسرائيل في اطار عام وصور مجملة، تسعف الناظر وتقيم الدليل على ما يطرحه القرآن الكريم من دروس العبر والتوجيه الالهي في تجربة التاريخ الديني بالسلب والإيجاب في بيت إسرائيل.

ومن الإعجاز القرآني في رصده للوجود الإسرائيلي عبر التاريخ، أن جملة الجوانب التي رصدها القرآن الكريم وسجلها للدرس والتدبر وقصها على قلب محمد ﷺ، قد جعل لكل منها مرحلة أو جانباً أو معتقداً، أو خبراً، أو حلاً أو ترحالاً، أو غزوا، أو إغارة، أو حرباً أو سلماً، في اطار مستقل تتقارب صوره وتتحدد عناصر موضوعه وأفرد له القرآن الكريم مكاناً بين سوره ومختلف آياته.

ففي سورة البقرة الآية رقم ٤٠ وما بعدها يقول رب العزة:

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰيَ فَٱرْهَبُونِ، وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ

كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِئَايَـٰتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّـٰىَ فَٱتَّقُونِ، وَلَا تَلْبِسُواْ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَـٰطِلِ وَتَكْتُمُواْ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ، وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ، أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَـٰشِعِينَ، ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ، يَـٰبَنِيٓ إِسْرَآءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

ففي هذه الآيات القرآنية الكريمة تتضح جوانب تسجيلية يقصها الله سبحانه على الإنسانية كلها من خلال القرآن على قلب الخاتم محمدﷺ، وتفصح هذه الجوانب التي سجلتها هذه الآيات الكريمة عن معطيات إلهية كريمة لبني إسرائيل، كان منها مثلاً حسبما تقص الآيات وتؤكد: أن هناك عبر مراحل النبوة الطويلة، ومن خلال الجهد الذي بذلته الرسل والأنبياء عن بني إسرائيل، عهداً خاصاً قد أخذه الله على بني إسرائيل قوامه: الإيمان بالله رب العالمين من جانبهم، والتكريم والإصطفاء من جانب الله سبحانه وتعالى لهم، لكنهم نقضوا العهد وشوهوا العلاقة وتحللوا من الالتزامات التي فرضها الله عليهم، كي تكون تعبيراً عن علاقتهم بالله، ومع ذلك أرادوا أن تظل علاقته بهم كما كانت تكريماً واصطفاء وعوناً ومساعدة فجاءت الآية القرآنية الكريمة لتكشف عن مدى حنثهم ومراوغتهم ورغم ذلك فإن الأمل بالنسبة لهم في رحمة الله لم يلغه القرآن، حين تحدث عن نعمة الله عليهم:

﴿ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ ﴾.

ولم يكن المطلب الإلهي والذي بمقتضاه لم يحجب رحمته عنهم، سوى أن يعبروا عن وفائهم بعهد الله لهم وعهدهم مع الله، بأن يؤمنوا بمحمدﷺ لأن الإيمان به جوهر العهد الذي أعطاه الله لهم، وبمقتضى هذا الإيمان فإنه من غير المنطقي أن

يحرفوا بنود العهود، ولا أن يشوهوا جوهر الاتفاق ولا يمزجوا الحق بالباطل:

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ ﴾.

وحتى يرضي الله فيهم نعرة الإعتداد بما هم عليه، ويظللهم بتكريمه وفاء بعهده معهم، فإنه يخبرهم أن تبعيتهم لمحمد ﷺ ليست أكثر من تصديق لما هو معهم.

ومن عجب أنه في ذلك الوقت من التاريخ ـ القرن السابع الميلادي ـ لم تكن هناك لدى العالم كله، مصادر فكرية، أو دينية، أو ثقافية تطمئن إلى ما لدى بني إسرائيل من تراث أو ما هم عليه من عقيدة، ذلك لأنهم منذ عصر الميلاد وخاصة بعد موقفهم المعروف من السيد المسيح [عيسى بن مريم] ومقاومتهم له وظهور تيارات الفكر الديني اليهودي التي تعمل مع السياسة الرومانية أو ضدها وبروز التفسيرات والتأويلات اليهودية، فيما كان يتداوله الأحبار والربيون، وليس لدى اليهود ما يقوم دليلاً على إمكان أن نكون بين القوم وربهم علاقة طهر أو عبادة، ومن ثم فلم يكن لدى العالم كله من دليل يساق إلى أن ما عليه بعض اليهود وما عندهم فيه بقية من حق. أو كتاب صدق.

لكن القرآن الكريم من لدن رب السموات والأرض، وهو يوحي به على قلب محمد العربي ﷺ، يؤكد هذه القضية ويقيم الدليل على اليهود، ويطالبهم بمقتضى ما عندهم أن يؤمنوا ويحذرهم من التزييف:

﴿ وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَناً قَلِيلاً وَإِيَّـٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة/ ٤٠).

ويعيب عليهم القرآن الكريم سلوكهم الديني وأثم ما يفعلون، وبهذا المدخل الإنكاري لما هم عليه يناديهم رب العزة، لعلهم يثوبون:

﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَـٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (البقرة/ ٤٤).

هكذا يقرر القرآن الكريم أن القوم في عصر رسول الله محمد ﷺ كان عندهم الكتاب الذي يقرأونه، والذي يلزمهم الإيمان بمحمد ﷺ لكنهم ألبسوا الحق بالباطل، واشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً وحرفوا الكلم عن مواضعه.

ومن هنا رأينا الله سبحانه في القرآن الكريم ينذرهم ويتوعدهم، ولكن بلغة القرآن الكريم التي تفيض على الإنسانية حباً وتسامحاً وعذوبة.

فالله سبحانه في القرآن الكريم يذكر بني إسرائيل لأنهم قد نسوا، ويهدد لأنهم لم يرعووا، وينذر لأنهم لم يرتدعوا، ويقول لهم يا بني إسرائيل إنه بمقتضى الوعد الذي بيني وبينكم والذي بمقتضاه نلتم فضلي وعوني ما يجدر بكم أن لا تنسوا أو تخونوا العهد والأمانة.

وإن الذي عهده بربه لا يتصور منه ما أنتم عليه من خلق ومن سلوك. يقول رب العزة:

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ، وَٱتَّقُواْ يَوْماً لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾. (سورة البقرة ٤٧/٤٨).

وهذه اللغة القرآنية الرقيقة في التوجيه، العذبة في النداء، المرهفة في السمع، يضع رب العزة فيها جواباً لسؤال قد يجيء مغالطاً ويتقول على الذكر الحكيم ويسأل عن أسباب هذه المؤاخذة فيقول سبحانه وهو يكشف عن أبعاد الجحود والنكران في تكوين الطبع اليهودي بما تفصح عنه هذه الآية الكريمة:

تقول الآية رقم ٢١١ من سورة البقرة:

﴿ سَلْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴾.

هذا وتجيء الآية رقم ٧٠ من سورة المائدة، لتكشف عن بعد خطر وموقف يهودي معاند أشد وأفظع، يقول رب العزة:

﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾.

ومن عجب انهم بعد موقفهم هذا عن عمد قتلوا وكذبوا، وأعملوا شهواتهم وهوى نفوسهم.

﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ (المائدة/٧١).

هذا ويكشف الله سبحانه وتعالى لنبيه المصطفى خاتم النبيين وسيد المرسلين في محكم الذكر عن وقائع في التاريخ اليهودي تستحق الوقوف عندها على ضوء ما رصد القرآن وسجل، وذلك للدرس والتدبر.

يقص الله على نبيه محمدﷺ وللإنسانية كلها من خلاله أن الله قد اختبر بني إسرائيل بالعفو والمغفرة مراراً كثيرة، وأنه سبحانه قدم لهم من عونه وفضله الشيء الكثير، وأنه سبحانه على امتداد مراحل التاريخ وعمل النبوة فيهم لم يضن عليهم بفضله ورحمته وتقديم ضروب آياته وجزيل نعمائه، لكنهم نسوا، ونقضوا وحرفوا، وزيفوا، ويوجه القرآن محمداًﷺ إلى ما ينبغي أن يتحلى به من الصبر معهم رغم أنه ﷺ يطلعه ربه على خائنة منهم:

يقول رب العزة في سورة المائدة في الآيتين ١٢, ١٣:

﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا

وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لأُكَفِّرَنَّ سَيِّئَاتِكُمْ عَنكُمْ وَلأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلأَنْهَـٰرُ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ، فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ لَعَنَّـٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَـٰسِيَـةً يُحَرِّفُـونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾.

وهكذا يقرر القرآن صراحة أن اليهود قد نقضوا ميثاقهم مع الله وقد حرفوا الكتاب، وقد اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وقد ألبسوا الحق بالباطل ومع ذلك فإن القرآن الكريم ظل يتابع برصده الإلهي كل جوانب الوجود اليهودي بمنتهى الدقة والتفصيل.

* * *

القصص القرآني عن تاريخ بني إسرائيل:

الشخصية اليهودية الإسرائيلية في حديث القرآن عنها لا تفصح عن الإستعداد للتضحيات أو البذل والعطاء إذا ما أشتد الوغى وحمى الوطيس كما أنها لا تفصح عن وفاء والتزام، حتى ولو كانت قد تعهدت به والتزمته، كما أنها تفصح عن ضعف الوازع الديني وعدم تمكنه من قلب ونفس الإنسان اليهودي الإسرائيلي عبر مراحل التاريخ المختلفة التي مر بها الوجود اليهودي سواء في مراحل النبوة أو الخلو منها.

تبرز هذه المعاني في القرآن الكريم حين كان يحدثنا عن مرحلة من التاريخ اليهودي، وخاصة بعد وفاة النبي الرسول موسى عليه السلام، تلك الفترة التي تعرضوا فيها للكشف عن مدى قابليتهم للتمسك بالدين والحفاظ عليه من عدمه، وتعرضوا فيها للإختبار عن مدى تأثير الإيمان فيهم وسيطرته على نزواتهم وشهواتهم

من عدمه. وحين كانت التجربة سلبية وفاشلة، لم تفلح فيها جهود المخلصين منهم ولا الأنبياء والصديقين فيهم. قص القرآن الكريم ملامح هذه المرحلة التي يمكن على ضوء الآيات الكريمة التي تعرضت بالتسجيل والرصد لهذه المرحلة الدقيقة أن تعاون في تفهم الشخصية اليهودية في التاريخ وبالتالي تعاون في إمكانية الإعداد لنوع التعامل مع هذا القطاع من البشر.

يقول الله سبحانه في سورة البقرة من الآيات ٢٤٦ - ٢٤٩:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِالظَّٰلِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾.

هذه الآيات الكريمة التي تعالج ما سبق أن تعرضنا له في تناول التراث العربي له، وعالجناه في الصفحات السابقة بشيء من التفصيل عن مرحلة من النبوة والملك في تاريخ بني إسرائيل، نأتي عليها هنا ونحن نحاول أن نتعرف على الملامح العامة للشخصية اليهودية ضمن الاطار العام للقصص القرآني الذي تناول سيرة بني إسرائيل بالدرس والتحليل على ضوئه.

وكما تفصح الآيات وتقول، بل وكما تؤكد ضعف وهزال العقيدة وانعدام الإلتزام عند بني إسرائيل، يكشف القرآن هذا الموقف: ﴿ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَـٰتِلْ فِي سَبِيلِ ﴾، وهذا المطلب الذي كان بعد مرحلة من الضياع طويلة كان يقتضي منهم الاستجابة لما تفضل الله به عليهم.

ولقد كانوا يطلبون «ملكاً» أي ملك بدون تحديد ولا مواصفات، كل الذي رغبوا فيه أن يقاتلوا في سبيل الله، فلما جاء الملك، أفصح الطبع الملتوي عن حقيقة معدنه: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا ﴾.

وحتى عندما التزم به بعضهم وكان الموقف للاختبار:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِ ﴾.

لم يلتزم هذا البعض جميعه وإنما تعرض لتصفية أخرى برز فيها ضعف الأصالة وقلة اليقين: ﴿ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ ﴾.

وإذا كان هذا هو الحال مع (طالوت) الملك فإن نفس الموقف أو أشد منه كان مع نبي الله موسى، فبرغم اليقين اليهودي عند بني إسرائيل خلال فترة تواجدهم في مصر بموسى وظهور نبي الله موسى بينهم، وحدوث تصادم بينه وبين السلطة المصرية القديمة ممثلة في الفرعون، لم تستجب أكثرية بني إسرائيل للدعوة الإلهية حفاظاً على أنفسهم من مقاومة الفرعون لهم. يقول الذكر الحكيم في الآية رقم ٨٣ من سورة يونس:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾.

وحتى العناصر التي بدأ عليها الإيمان بنبي الله موسى عليه السلام، وقررت الخروج معه من مصر كانت عقيدة التوحيد المنزه الذي لا يشوبه صنم أو وثن ثقيلة عليهم، ومشاعرهم النفسية تهفو دائماً أبداً للصنم وللوثن والرغبة في المحاكاة والتلقين للغير، حتى ولو كان انحرافاً هو خلقهم ومطمعهم وهو أدواتهم في التعبير عن أخلاقهم.

يسجل الله عن بلادة الحس عند بني إسرائيل رغم كل ما يلمحونه أمامهم من آيات الله وعونه لهم من أجل هذا النبي الذي يدعوهم إلى الإيمان بالله، آية في كتابه الحكيم تبين مدى تغلغل عقيدة الصنم في وجدان القدماء من بني إسرائيل وعدم قدرتهم على الإستجابة أو الإلتزام بما يترتب على قضية التوحيد.

تقول الآية الكريمة رقم ١٣٨ من سورة الأعراف:

﴿ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهاً كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾.

ولم يكن أمام النبي الرسول إلا أن يقول لهم: أغير الله أبغيكم إلهاً؟! ومع ذلك فإن جهود النبي موسى ﷺ لم تفلح فيهم.

* * *

القرآن يرفع الخطيئة عن أنبياء بني إسرائيل:

لما كانت البعثة المحمدية تمثل أعظم وأكبر عون من الله سبحانه للبشر، فلقد

كان من المعقول جداً، بل ومن الضرورة أن يتناول الكتاب الذي لا ريب فيه والذي تعهده الله سبحانه بالحفظ والصيانة كل ما يتعلق بالنبوة والرسالة.

ولما كانت تجربة النبوة والرسالة في بيت إسرائيل طويلة وكبيرة، بل ومريرة فقد كان حرياً بالقرآن الكريم أن يتعرض لكل جوانب هذا التاريخ.

جاء القرآن الكريم ووجد مذاهب وعقائد تتحدث عن التاريخ الديني على ضوء ما أراد اليهود وفسروا. فحين كانت تملي عليهم حياتهم ممارسة ضروب من الخطيئة والإثم والعدوان، لا بأس عندهم من أن يشرعوا لهذه الخطيئة ديناً وعقيدة، ثم يلبسوها للتاريخ الديني ولو اقتضى ذلك أن تنسب مبررات الخطيئة إلى أنبياء الله ورسله.

وحين كانت تفرض عليهم الموجات الغازية التي تعرضوا لها نمطاً من الحياة يضطرون فيه إلى أن يركبوا التيار المضاد، لا بأس عندهم من الوشاية والخديعة والكذب والنفاق، وممارسة ضروب من الانحراف الأخلاقي والديني، حتى ولو كانت دعارة وفسقاً في مجالات العقيدة والأخلاق.

هذا وليس عندهم ما يمنع من تكليف الكهان والأحبار بتقرير مثل هذه الانحرافات وربطها بتاريخ الدين والأنبياء.

ومن هنا كانت الضرورة الدينية تدعو أن يجيء القرآن الكريم، ليكشف عن الحقيقة الدينية التي تربط حياة النبي وسيرته بالتزامات من الطهر والعفة والسماحة والنقاء باعتبار النبي من قبل ربه أنموذجاً لما يدعو إليه، مصطفى من قبل ربه ومعداً لهذه المهمة.

ولما كانت النبوة والرسالة الدينية على يد نبي الله داود وابنه سليمان ومن بعدهما المسيح عيسى بن مريم عليهم السلام قد تعرض أتباعهما للكثير من الأذى وألصق بهم الكثير من الدنس فإنا نرى مصادر العقيدة الدينية عند القوم تمتلىء بكثير من المدسوس والموضوع.

وما تعرضت له النبوة والرسالة في بيت إسرائيل اعتبرته الأجيال اليهودية نوعاً

من الدين وأسلوباً في العبادة، فجاء الذكر الحكيم في قرآن رب العالمين، يكلف النبي الخاتم محمداًﷺ بأن يبدأ في عملية تصحيح للوجدان العفن عند اليهود وأن يقود الدعوة إلى الله لعل اليهود من خلالها أن يروا النبوة والرسالة من خلال معيار نظيف، أكرم وأطهر مما فعلوه بتراث النبوة والرسالة الإلهية.

يقول الله سبحانه وتعالى في سورة المائدة ٧٧ ـ ٧٩ لنبيه محمدﷺ:

﴿ قُلْ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ، لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ، كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴾.

هكذا يبين القرآن الكريم عن تكوين الخلق اليهودي ومدى تعنتـه وانحرافـه، واستمرائه لهذا الانحراف، حتى أنك لتجد أن الرأي العام الإسرائيلي في التـاريخ القديم الذي يعالجه القرآن الكريم، هذا الرأي العام لم يعد يميز بين أنواع السلوك، فالانحراف والمنكر، لا يجد في الرأي العام الإسرائيلي من يتحرج منه أو يرفع صوته

بالاستهجان والاستقباح **﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ﴾**.

﴿ يَـٰأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ (المائدة/٧٧).

وهكذا استحضر القرآن الكريم التاريخ ليكشف للناس عن علاقة بني إسرائيل بالنبوة والرسالة، وليقرر في النهاية انهم لم يعودوا أهلاً لها.

إن موقفاً اتخذ من جانب بني إسرائيل ضد نبـي الله موسى عليه السلام وآخر

ضد عيسى بن مريم عليه السلام، على بعد ما بين النبيين العظيمين من مراحل التاريخ، ليكشف لنا عن مدى العنت والكفر والجحود، والنكران الذي كانت عليه أجيال اليهود، حتى مع الأنبياء والمرسلين.

يكشف القرآن الكريم عن الطبيعة العدوانية ويقول في سورة الصف من الآيتين الخامسة والسادسة:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ، وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

هـذا ويقص الله سبحانـه على الإنسـانية دروس الوحـي الإلهـي لبيت إسرائيل وموقفهم من هذه التجربة ويقول في سورة البقرة من الآيات ٨٣ ـ ٨٨:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَاناً وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْناً وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ، وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ، ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقاً مِّنكُم مِّن دِيَـٰرِهِمْ تَظَـٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَـٰرَىٰ تُفَـٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَـٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْأَخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ، وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ

بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ، وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفُۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾.

في هذه الآيات الكريمة يخبرنا الله سبحانه وتعالى بقصة عهد اليهود معه كان هذا العهد والذي هو ميثاق بين الله وبين بني إسرائيل، أن لا يعبدوا إلا الله سبحانه، ولا يشركوا مع الله إلهاً آخر، وأن تكون علاقاتهم بأهليهم حسنة تقوم على الحب والخير، وخاصة بين المرء ووالديه، نظراً لأنهم بحكم الطبع الملتوي وحياة الإغارة والعدوان، وخلق الوشاية والخداع تنعدم فيهم علاقات الحب والتعاون. فقصت الآيات الكريمة مطلب الله يوم أن أخذ منهم الميثاق أن يبروا وأن يتراحموا وأن يتعاطفوا وأن يجعلوا من برهم بأهليهم علاقات اجتماع تسري إلى الناس، بدءاً بالوالدين وذوي القربى واليتامى والمساكين.

واسترسلت الآية الكريمة تكشف بأنوارها الربانية أبعاد الموقف الذي أخذه الله عليهم ﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾ وواضح أن الهدف من هذا الميثاق أن الله سبحانه أراد به أن يقرب اليهود من حقيقة الدين والارتباط به، حتى إذا ما كانت الممارسة وأعباء التكاليف، يتحملون موقفاً من المسؤولية وتقديم التضحية لا يقومون إلى أنفسهم ليتقاتلوا ويلعن بعضهم البعض.

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ ﴾: لكنهم سفكوا، وظلوا على هذا الحال حتى عندما كانت القبائل العربية في يثرب قبيل البعثة المحمدية تتقاتل كانوا قد قسموا انفسهم مجموعات لتعاون في استمرار حرب هذه القبائل، حتى تطورت الحرب وأصبحت تتناولهم أيضاً.

﴿ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُمْ مِّن دِيَٰرِكُمْ ﴾ لكنهم بالعدوان والمؤامرة قد أخرجوا أنفسهم.

ينعى عليهم الذكر الحكيم انهم يقتلون أنفسهم، ويخرجون فريقاً من ديارهم بعد أن تظاهروا عليهم بالاثم والعدوان، وكان هذا الموقف العدواني نتيجة طبيعية

لتركيبهم الإجتماعي القائم على الاستكبار والهوى، ذلك أنهم كلما جاءهم رسول بما لا تهوي انفسهم استكبروا.

يقول رب العزة: ﴿ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾. (سورة البقرة/٨٧).

ومن أجل الروح العدوانية وتطهيراً لنفوس بني إسرائيل مما شابها وشوهها، تكررت كثيراً آيات الله لهم من خلال الأنبياء والمرسلين لعلهم أن يكفوا أو يتوبوا.

ومن هنا رأينا الآيات القرآنية الكريمة التي تقص على الإنسانية من خلال المصطفى محمدﷺ عتاب الله لهم وتوبيخه إياهم.

يقول رب العزة:

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُواْ بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّـٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾.. (البقرة/٤٠).

ويقول سبحانه:

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

(سورة البقرة ٤٧)

ويقول سبحانه وتعالى عن القرآن الكريم وتبشيرهم به:

﴿ أَوَ لَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَـٰٓؤُاْ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء/١٩٧).

وهذا العلم من غير شك كان ذات يوم تكريماً من الله لبني إسرائيل.

لكن هذا التكريم الذي ظل به الله يمد يده الكريمة على بني إسرائيل، لكي تصح فيهم النبوة والرسالة، وأن تتطهر جوارحهم من الدنس، وتعف عواطفهم عن الخطيئة وتنقى عقائدهم من الوثنية، ويعبدون الله الذي لا شريك له لم يثمر فيهم، وأكثر مراحل التاريخ وهم يأخذون كل اصلاح بغير ما يجب أن يكون له من احترام

والتزام، فضلاً عن مراحل قتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف.

وكان لا بد من وضع حد لهذا القطيع من البشر الذي كاد بكثرة ما تجرد من خلق الإنسانية الفطرى أن يفقد بشريته ويصبح غير محل لكل احتمالات التكريم، وهنا حقت عليهم كلمة الله بالعذاب.

* * *

عذاب الله لبني إسرائيل في الحياة الدنيا:

قد يبدو من السياق العام لتاريخ بني إسرائيل أن الله سبحانه وتعالى لم يؤاخذهم على كثرة معاصيهم، ولم تنزل بهم نقمته في الحياة الدنيا، ولهذا لم يرعوا، لكن تفاصيل الدراسة لجوانب التاريخ اليهودي من خلال رؤية قرآنية يؤكد غير هذا تماماً، ويقرر أن الله سبحانه قد حاسبهم على ما اقترفوا في الدنيا ويوم القيامة هم من الخاسرين.

يقول تعال في سورة البقرة ٦٣ ـ ٦٦:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ، فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

وكان هذا الاعتداء الذي وقع من اليهود في أيام (سبوت) كثيرة سبباً في أن يصور الله سبحانه وتعالى فيهم أو في الغالبية العظمى أن تكون على هذا المستوى من المسخ الأخلاقي والتشويه الخلقي: **﴿ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴾**.

ولما كان عدوانهم لن يكفوا عنه حتى أمام أوامر إلهية، فإن الله قد عاقبهم وقص

على الإنسانية صورة من صور أخلاقهم في كتابه الكريم.

لقد شرع الله سبحانه لليهود ولبني إسرائيل جميعاً، منذ أيام النبوات الأولى أن يلتزموا بأمور العبادة التي فرضها عليهم، وأن يجعلوا يوم السبت يوم قربان الله ولا يعملوا فيه شيئاً، لكن مجموعة كبيرة منهم ـ أهل قرية ـ كانوا يتحايلون على الله، بشكل حاولوا إيهام الله سبحانه وتعالى عن ذلك بأنهم على التزامهم بما وجههم إليه، وهو أنهم لا يعملون في السبت، وكانت هذه القرية تسكن منطقة قريبة من البحر، فحفروا حياضاً لتنساب فيها المياه وما تحمله من أسماك ثم يخففونها، فإذا أرادت الأسماك ترجع إلى البحر لا تستطيع لعدم وجود كمية الماء التي تعاونها على ذلك، وحين ينتهي السبت، تكون كميات الأسماك جاهزة للصيد فيعوضون يومهم وزيادة.

ولما كان حجز الأسماك في الحياض تجاوزاً لما حرم الله عليهم من أعمال الصيد في يوم السبت لأن حجز الأسماك لصيدها في اليوم التالي يعتبر صيداً لها في اليوم التالي أخذهم الله، ثم عاقبهم بعذاب من عنده.

وتنزل الذكر الحكيم في سورة الأعراف من الآيات ١٦٣ ـ ١٦٦ ليقص على المصطفى محمدﷺ ما فعل بيهود عقاباً لهم على كفرهم بأنعم الله وأياديه عليهم.
يقول تعالى:

﴿ وَسْئَلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ، فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيس بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ، فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِئِينَ ﴾.

وكان هذا التوجيه الإلهي لنبيه المصطفى في أن يسأل الخلف من أبناء إسرائيل الذين كانوا في عصر البعثة المحمدية وعصوا وكفروا واعتدوا، يسألهم عن أصحابهم وآبائهم من اليهود الذين اعتدوا في السبت، عما فعل الله بهم، كان هذا السؤال بمثابة لفت النظر إلى إمكان أن يحل بهم عذاب الله، أن لم يرجعوا عما هم فيه من إثم وعدوان.

وفي سورة البقرة آيتان كريمتان تعرضتا لهذا الاختبار، وهذا الدرس الإلهي بنوع من الحسم والشدة والتحذير بالعاقبة وسوء المغبة، ففي الآيتين ٦٥، ٦٦ نرى رب العزة يوجه للسابقين واللاحقين هذا الاعلان:

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْاْ مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ، فَجَعَلْنَـٰهَا نَكَـٰلاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾.

(البقرة / ٦٥ - ٦٦)

هذا ونرى في سورة النحل صورة تسجيلية أخرى لهذه الواقعة وذلك من خلال قوله

﴿ إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾. (سورة النحل/١٢٤).

وينقل الخطاب الالهي نهجه في استنطاق التاريخ للدرس والعبرة إلى نهج موجه حاسم وآمر، لعل العواطف الجبانة تلين والقلوب المتحجرة تتحرك بالإيمان وتنفعل بالتوحيد.

فيوجه القرآن يهود بني إسرائيل في عصر البعثة المحمدية إلى الالتزام بما بين أيديهم في الكتاب الصحيح، وترك ما طرأ عليه من زيف العدوان وتحريفات الهوى والشيطان، وأن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وإلا فإن عدم الإيمان به عليه السلام مخالفة وجحوداً وكفراً لا يقل عن كفر وجحود ومخالفة أولئك الذين تحايلوا واعتدوا في السبت.

يقول رب العزة في سورة النساء الآية ٤٧ :

﴿ يَـٰأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَـٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقاً لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهاً فَنَرُدَّهَا عَلَىٰ أَدْبَارِهَا أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَـٰبَ ٱلسَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولاً ﴾.

وفي مواجهة العنت والكفر والعصيان والحـرص على تحملـه وتوريثـه للأجيال تجيء الآية الرادعة رقم ١٦٧ من سورة الأعراف، لتؤكد دوام استمرار عذاب الله لبني إسرائيل في الدنيا، ويوم القيامة هم من الخاسرين، يقول تعالى:

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.



الباب السابع

الضياعُ الدينيّ والسياسيّ لبني إسرائيل
الفرقُ الدينيّة السياسيّة عصرَ الميلاد
إنتزاعُ النبوّة والرسالة من بيت إسرائيل
العلاقة اليهوديّة المسيحيّة في نبأ القرآن
الرفضُ السياسيّ اليهوديّ لنبوّة المسيح

ومن البداهة لدارس التاريخ اليهودي أن حكم الله هذا فيهم كان بعد أن استنفذ الوحي الإلهي معهم كل ضروب العون والرحمة، وكأن الله سبحانه حين كان يوبخهم على صنيعهم في أنبيائه، كان يلوح لهم بأنواع هذا العذاب، يقول رب العزة في سورة البقرة الآية ٩٣:

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُواْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾.

* * *

نماذج من الضياع السياسي والديني لبني إسرائيل:

لو ابتعدنا قليلاً عن لغة القرآن الكريم المرهفة في حديثها عن بني إسرائيل وأردنا أن نتعرف على أهم مراحل التاريخ السياسي لهم من معطيات غير قرآنية فإننا سنرى عجباً، وسنرى في نفس الوقت أن الرصد القرآني لدقائق مراحل التاريخ كان اعجازاً إلهياً في المعالجة ونقد مراحل التاريخ.

ذلك أنه من المعروف والمسلم به تاريخياً أن مقومات التجمع السياسي واعتبارات الاستقرار الاجتماعي وتأثير العقيدة الدينية في كل هذين العاملين التجمع السياسي والاستقرار الاجتماعي مفتقدة هذه الاعتبارات وتلك المقومات تماماً في التاريخ السياسي والديني عند بني إسرائيل.

وإذا ما استحضرنا أمثلة ونماذج فسيطالعنا العديد من هذه الأمثلة والنماذج وستتكرر في معظم مراحل التاريخ اليهودي الإسرائيلي.

فمنذ عصر أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وحياة الترحال والانتجاع من موطن لآخر، طلباً للمرعى أو الكلأ، أو إيثاراً مرحلياً لحياة الأمن بدلاً من الاغارة والعدوان، و (عبور) البادية والصحراء والأنهار سمة تلازم أبناء يعقوب عليه السلام حتى سمي هذا القطاع من الناس الذي يتصل وينتمي إلى أبناء يعقوب (بالعبريين) حتى ظهور البعثة المحمدية بل وإلى أن قامت الحركة الصهيونية بقيادة اليهودي النمسوي الأصل «تيودور هرتزل» في عام ١٨٩٧م. وليس هناك ملامح للوجود اليهودي بأرض بعينها يتمثل فيها معنى النظام السياسي والاستقرار الاجتماعي.

فحتى في عصر الممالك المدعاة، أعني عصر داود وابنه سليمان عليهما السلام تحدثنا المصادر اليهودية نفسها عنه بأنه كان عصر صراعات وانقسامات، ولم تظللهم السكينة ولم يعرفوا الاستقرار إلا من خلال شخصي النبيين العظيمين «داود وسليمان عليهما السلام» وبتأثير عمل النبوة وحدها.

وما أن اختفيا من على مسرح العمل الديني الذي جاهدا به أن يصنعا شيئاً من الأمن والأمان لمن بلغوا رسالة إلهية حتى تعرضت الأرض العربية كلها في بادية الشام لموجة من الغزو الأجنبي، طالت وتضخمت، لم يقاومها ويضربها إلا الإسلام، حين رفع المؤمنون به تعاليمه في وجه الظلم الاجتماعي والسخرة والعبودية للعباد، التي كانت تطبق على البلاد والعباد من أفواج الغزاة.

ومهما يكن من ضجيج اللغط اليهودي، وصخبه في محاولة ايجاد دعوى

للجماعات اليهودية، يزيفون بها الحق والتاريخ حول علاقتهم ديناً وتاريخاً بالأرض العربية في فلسطين. فإن الذي لا جدال فيه عند جمهور الثقات من المؤرخين أنه منذ ضربة البابليين بقيادة «نبوخذ نصر» لليهود، ولمن تبقى من جماعات إسرائيل واليهود عام ٥٨٦ ق.م. وكل مراحل التاريخ التي مرت بالقوم، أنهم فئات من البشر قليلة وجماعات محدودة تذوب شخصياتهم الدينية المدعاة جيلاً بعد جيل وكانوا مع ذلك حريصين على أن يعملوا للاندماج بالقوة التي تسيطر عليهم وذلك حين تضيق بهم السبل في أكثر الأحوال.

فلما زحف الفرس من شرق الأمبراطورية البابلية على الأمبراطورية البابلية، وقضوا عليها وحكموا منطقة فلسطين باعتبارها مفترق الطرق التي تؤمن أمبراطوريتهم، لم يكن حال اليهود بغير الحال التقليدي البسيط الذي سمح لهم به في الأسر البابلي رغم محاولاتهم أن يستغلوا مراحل الغزو الفارسي حين كان في ابان الصراع، ولم يسمح لهم الفرس أكثر من أن يحيوا الحياة على الهامش، دون أن يتشبثوا بقديم أو معتقد يتعلقون به أو حتى يعدوا أنفسهم لجديد يطمعون فيه، وظلت جماعات يهود في ظل السيطرة الفارسية أقرب ما تكون إلى إنعدام الوجود السياسي والاجتماعي.

وظلوا إلى ما يقرب من قرنين من الزمان أو أكثر، وهم على حال من الذل في ظل سيطرة السيد الجديد المتمثل في أمبراطورية الفرس، التي مدت سلطانها على منطقة القوافل على أرض فلسطين، حتى كان ذلك الغازي «الاسكندر المقدوني» على رأس جيش ضخم من الاغريق قاده، وفي تخطيط أطماعه أن يفتح به كل البلاد المعروفة اليوم بالشرق الأوسط، ويمتد بالتوسع حتى بلاد فارس كلها، وبالقطع فإنه كان من بين أماني الأطماع اقليم فلسطين بين جملة الأهداف، بعد معارك شهيرة استولى خلالها على فلسطين حوالي عام ٣٣٠ ق.م.

ولما كان الاغريق بحكم ظروف تاريخية وجغرافية قد تطورت امكاناتهم المادية

والعقلية، فإن الأرض الجديدة التي سيطروا عليها قد شاهدت مهندسين معماريين ومثالين وعلماء رياضيين وشعراء وفلاسفة، وبالقطع، فإن من بين الفئات القليلة التي كانت قابعة في أرض «بابل» جماعات يهود الإسرائيلية الذين لم يكن بينهم بل ولم يشتهر عنهم أن وجد بينهم من يعرف فنون المعمار وهندسته أو علوم الرياضيات وقواعدها أو النظرة الفلسفية ومجالاتها بل قد تراكم الجدب العقلي الذي لازم القوم منذ قديم الزمان، منذ عصر سليمان نفسه، حين لم يكن بينهم من يساهم بالعلم والجهد في بناء (قصر الرب قصر سليمان) إلى الحد الذي لم يكن يمكن فيه العثور على فنان واحد من بني إسرائيل في عصر سليمان مثلاً، ليساهم في نقش القصر القديم الذي بناه سليمان وما ورد في سفر أخبار الأيام الثاني عن براعة الفنان الذي استعان به سليمان من «صور» من أرض الفينيقيين يدل على أن القوم من بني إسرائيل حين تم تشييد ـ حسب الدعوى المتصورة في عقيدتهم ـ قصر الرب كانوا «عيالا» في البناء على أعمال الفنانين الفينيقيين.

وهذا الجدب العقلي والخلو التام من كل مميزات الاستيطان المتحضر المستقر، والمجتمع المرتبط بتقاليد وعادات تنبع من سلوك فاضل متميز بظروف الأرض التي يحيا عليها، والمستقل بمقدراتها وخيرها كانت تجعل من جماعات إسرائيل في نظر الغازي الذي يمر بتاريخ هذه المنطقة فئة ذات أهمية لا تستطيع أن تؤثر في اتجاهات تجري على هذه الأرض فضلاً عن أن يتأثر بها الغازي الذي يحل بالأرض، فحين كانت السيطرة الاغريقية بقيادة الاسكندر قائمة لم يكن لليهود أدنى وجود سياسي أو إجتماعي، بل ليس هناك أدنى التفاتة تاريخية تمكن أن يقف عندها الباحث لينظر الوجود اليهودي في أبسط مظهر من حياة في عصر الاسكندر وخلفائه، اللهم إلا محاولات أن يعمل بعضهم بالرشوة والسمسرة، المهن التي يجيدونها دائماً وأبداً.

وفي المسار التاريخي الطويل تدور بنا عجلة الزمن دورة لتقف بنا من بداية السيطرة الإغريقية التي غمرت المنطقة الواسعة الممتدة من أعالي العراق حتى سواحل البحر الأبيض الشمالية والشرقية لمرحلة جديدة.

وكانت البداية للمرحلة الجديدة التي استوقفت التاريخ فترة طويلة هي تلك الفترة التي قامت من هناك من بعيد من عند الأرض الواقعة على شواطيء البحر الأبيض، والمؤسسة على ما يعرف اليوم بدولة «ايطاليا» حين هبت الأمبراطورية الرومانية عملاق ذلك العهد القديم تعمل بأدوات التدمير التي كانت لديها في اندفاعه عجيبة، تصدرت بها محاولة الإستيلاء على العالم الإنساني كله حينئذ، مطمعها في غزو العالم والسيطرة عليه.

وظلت هذه الانطلاقة الغازية المتوسعة تنطلق وتتمدد لتصنع الامبراطورية الرومانية الرهيبة[1] فلم يكد يأتي عام ٦٣ قبل ميلاد المسيح إلا وقد شهد العالم القائد العملاق جنرال «بومبي» الروماني الشهير وقد اكتسح من أمامه كل مظاهر حياة غير رومانية وألبس كل أرض غزاها آداب وتقاليد الأمبراطورية المتوثبة، وكانت المرحلة التاريخية هذه التي بدأت بسيطرة الرومان على جزء كبير من العالم المتحضر، بداية كبيرة وفي ظل ضغوط كبيرة أيضاً، لأن يتحلل اليهود من كل تعلق لهم بدين أو سلوك خاص يدعونه ويرتبون حياتهم على ضوئه، إلا أنه قبل عصر السيد المسيح بقليل أمكن لبعض من يهود أن يستغلوا انحراف بعض قادة الرومان ويعملوا في خدمتهم خدماً وشاة، ومنذ الفترة التي بدأت بسيطرة الاغريق بقيادة الاسكندر ٣٣٠ ق.م. حتى عام ٦٣ ق.م. بداية الاكتساح الروماني كانت قد ظهرت خلال انشغال الغزاة وعمليات الصراع والمطاردة، صور انحلال في القوى الغازية، خاصة بين القادة والساسة.

وكان من آثار الإنحلال الأخلاقي رغم قبضة الغزاة وسيطرتهم على شعوب المناطق المحتلة بعض فراغ نفسي وعاطفي عند جماعات من اليهود الذين يتعلقون بتصور ارتباطهم ببني إسرائيل. ومن الذين هيىء لهم أنهم رغم الاختلاط والتزاوج

---

(١) انظر (اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها) تأليف: «ادوارد جيبون» ترجمة «محمد علي أبو درة» الجزء الأول القاهرة.

بالغير والحل والترحال مع كل غاز، ورغم عمل الحروب وما تشيعه من نتائج التحلل والكساد أنهم من أجيال جماعات إسرائيل الذين هم من أبناء يعقوب بن اسحاق بن إبراهيم، فذهبوا يفسرون على حسب المصلحة والهوى ما يتردد بينهم وما يجترونه عبر التاريخ، مما صنعه وسجله المؤلف التوراتي ولم يستكمل بعضه البعض الآخر، ولهم في هذه المرحلة التي كان يسيطر فيها الرومان آيات تفاسير وتأويل للتوراة، وفي هذه الآيات ومنها كانت قد ظهرت فكرة المبشر والمصلح والمخلص من بعد مراحل الضياع والتشرد التي كانت قد أضاعت وأماتت فكرة المخلص عند بني إسرائيل، واقترن مع الارتباط والإيمان بهذه الانفعالات الدينية ما أشيع على يد الذين روجوا لهذه الدعوى من اقتراب هذا المخلص.

* * *

الفرق الدينية السياسية عصر الميلاد.

وكنتيجة لهذا الإستسلام الخانع فإن حال البقية المتبقية من جماعات إسرائيل، منذ ضياع المملكة المدعاة لسليمان إلى عصر انقسامها إلى قسمين: ثم إلى ضياعها في يد الأشوريين ثم البابليين ثم الفرس، لم تكن إلا لتثير عاطفة الشفقة لهذه الجماعات المضيعة في أن تتاح لهم فرص الحياة وعلى أي صورة كانت، وبالفعل فإن الدولة الجديدة لم تضن عليهم بهذا المطمح بعد جهود الوشاة منهم بأن تتيح لهم فرص حياة جديدة، واستغلت الجماعات الإسرائيلية واليهودية أن هيأ لهم الرومان قبيل عصر عيسى بن مريم بعض أمور الحياة العامة وابتدأوا يتجسسون حول أوهام الدعوى التقليدية وعليها، فقد سمحوا لهم بأن يعيشوا في ظل السيادة الرومانية ويمكثوا في فلسطين تحت السيطرة الرومانية دون أن يتمكنوا من تكوين شخصية اجتماعية أو سياسية.

وقبيل الميلاد مباشرة وعقب استقرار الأمبراطورية الجديدة وتوسعاتها، التي كانت قد بدأتها منذ العصر الملكي الذي كان في روما حوالي القرن الثامن قبل الميلاد، ثم العصر الجمهوري الذي يحدد كثير من المؤرخين بدايته في نهاية القرن السادس قبل

الميلاد، حتى بداية ظهور عصر الامبراطورية الذي استقر وقـام بعمليات التوسـع الكبرى في منطقة الشرق حوالي عام ٣٠ ق.م. حتى سقطت الدولة الرومانية الغربية عام ٤٧٦م وليس لبني إسرائيل أدنى تأثير حقيقي في الحياة العامة.

والجديد الذي طرأ على جماعات اليهود هو ظهور بعض مذاهب دينية وسياسية لم تكن تنظم في نفسها فكراً أو عقيدة، وكل ما فيها أنها كانت سلوكاً جديداً عملت فيه النبوءة والكهانة التي ابتدأت تظهر من جديد، عقب خمول وموت كاملين لدعوى العنصرية والامتياز التي كان يلوكها اليهود والجماعات الإسرائيلية في المراحل الأولى.

وإذا كان لنا أن نرى العلاقات اليهودية الرومانية قبيل عصر الميلاد، أي منـذ الغزو الروماني الذي سمـح لليهـود بأن يأتـوا إلى أورشـليم من جديد، فإنـه لمن الضروري أن تمتد نظرة على الروح التي كانت سمة للعالم اليهودي في فلسطين في العصر الذي ولد فيه السيد المسيح عليه السلام. حين كانت الدولة الرومانية سيدة ومسيطرة.

ذلك أن العالم اليهودي في العصر الذي ولد فيه السيد المسيح، قد استطاعت فيه الجماعات اليهودية أن تتحرك وأن تبدو وكأنها على شيء من التميز والحركة فقد كانت هناك طوائف دينية وسياسية كما قلنا مختلفة ولكل منها في أمور الدين كهانة وأسلوب حياة، ويعيش به على أوهام التاريخ المدعـي، ويكون به مذهبـاً في انتظـار مسيح مخلص موعود، وهذه الطوائف التي كانت تسيطر على الجماعات اليهودية قسراً وقهراً في ظل سيادة الرومان، وكانت عبارة عن فئـات من انعـدام التجـانس الاجتماعـي والثقافي، أشهرها خمس طوائف هي التي كانت في مكان الصدارة في توجيه أسلوب العمل اليهودي في ظل السيطرة الرومانية في عصر الميلاد. وهذه الطوائف هي عبارة عن جماعات الصدوقيين والفريسيين، والآسيين، والغـلاة، والسامـريين، ودراسة هذه الطوائف هي التي تضع أمامنا جهود الإحياء اليهودي للأفكار اليهودية. وبعد كل مراحل الضياع التي مرت بهم. فإن دراسة هذه الطوائف مهمة جداً لأنها تبين

لنا على أي المناهج يرى القوم تطور أفكارهم ومعتقداتهم. إذا أتيح لهم أن يعملوا من أجل أمانيهم وأطماعهم في تصور أنهم يعبرون عن دينهم وعقيدتهم.

فالصدوقيون هم في الأصل حسب دعواهم أتباع «صدوق» وأسرته الذين ادعى تاريخهم بأنهم كانوا منذ عصر داود وسليمان يتولون أمر الكهانة الدينية، وكانت هذه الوظيفة أو الانتماء إلى هذه الجماعة عملية مهمة لأنهم يروجون لدعوى أنهم يحافظون على دينهم ويستقرون على عقيدتهم، ويقول عنهم «التاريخ اليهودي العام[1]» أنهم كانوا متشددين في مقاومة السلوك غير اليهودي ومتشبثين بالقديم ويؤيدون سلطان الهيكل والكهانة الدينية على يد الكهان، ومع هذا الذي يؤثر فيهم فإن خلاصة آدابهم، أنهم حرفيون في مسائل الدين متوسعون في أساليب المتعة والمعيشة، ولا يرفضون التوسع في الحياة بمشاركة الأجانب والاندماج فيهم، ذلك أن أعمال الكهانة ومراكز الكهان كانت متصلة بمراكز القوى والذين يمثلون السيادة والسلطان.

والفريسيون أي «المتميزون» والدلالة اللغوية العبرية لكلمة «فريسي» تعني هذه السمة (المتميز) كانوا طوائف أقوى من الصدوقيين بكثرة العدد وشيوع المبادىء والآراء، وحسن السمعة بين جميع الجماعات اليهودية. غير أنهم رغم كثرة العدد وحسن السمعة لم يكن بينهم من وصل إلى مرتبة الرؤساء أو من كان كثير الاحتكاك بذوي السلطان، ولذا فملامحهم في التاريخ اليهودي هي الادعاء الديني وصوغ الدعاوي والتعالي في السلوك وظلوا محافظين على هذا السلوك الجديد المكتسب في أنانية واستعلاء حتى أصبحوا فيما بعد، حين جاء السيد المسيح، هدفاً له يندد بما هم عليه وينكر عليهم شعبيتهم القائمة على الزيف والنفاق.

ومن العجب في التاريخ اليهودي أن هذه الفترة التي كانت قد اتاحت لهم أن يحيوا الحياة الطبيعية في ظل السيطرة الرومانية، كانت بالضرورة لو كانت الفطرة عند

---

(١) «التاريخ اليهودي العام» كتاب من جزأين من تاليفنا مطبوع الطبعة الثانية عام ١٩٨٣ - بيروت.

القوم سليمة ـ تقضي عقب إتاحة الفرصة لهم كي يحيوا في ظل السيادة الرومانية أن يكون بينهم علاقات سلوكية من التجانس والتعاطف المذهبي على أقل تقدير، ولكنه الخلق اليهودي القائم على الصراع والوشاية حتى عند أولئك الذين يلبسون في زيف ثوب الآباء الأول، فإن التناقض بين الطوائف قد عمل عمله، وشاعت علاقات الوشاية والإستغلال.

«فالفريسيون» المتميزون المتعصبون لكثرتهم والمتحمسون ضد غيرهم، كانوا في سخط على السلوك القديم، فكراً أو ديناً كان في الكتب والمراجع! أم هيكلاً وشعائر وعبادة، وكانوا ينكرون على طائفة الصدوقيين استبدادهم بالشعائر والمراسم والتعلق بأسرار الكهانة والإيمان بها.

«والأساة» الطائفة الثالثة التي كانت واحدة من طوائف الجماعات اليهودية الخمس في عصر الميلاد كانت تعتبر نفسها أنها وحدها الجزء المبقي من الضياع من صميم الأمة الإسرائيلية، ومع أن هذه العقيدة استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وكل أسرار الدين والكهانة التي خلعوها على أنفسهم، إلا أنهم داخل الارتباط بالجماعات اليهودية كانوا يشكلون تناقضاً حاداً فيما بينهم وطائفة الأساة التي تشكل واحدة من الطوائف الخمس الشهيرة في عصر ميلاد السيد المسيح قد ظلت منطوية على نفسها، في سلوكها وعباداتها، إلى الحد الذي كان فيه جماعات الأساة رغم علاقاتهم بالجماعات اليهودية قلة قليلة بجانب المجموعات البشرية اليهودية التي تستغلها وتسوقها طوائف الصدوقيين والفريسيين.

وبلغ الاستغلال القائم على العزلة والانطواء بجماعات الأساة إلى الحد الذي لم تكن تجاري فيه شيئاً من عقيدة الطوائف الأخرى أو تندمج فيهم، ولولا أن الأساة لم يرفضوا فكرة تقديم القرابين «للهيكل» ما حسبت من طوائف اليهود، وفي منشأ تسمية طوائف الأساة بهذا الاسم «أساة» جمع «آس» اختلف الكثير من الباحثين حول دلالة الاسم ولكن الراجح الذي يميل إليه كثير من الباحثين، والذي يذهب إليه

أيضاً عباس محمود العقاد في كتابه «عبقرية المسيح» أن الاسم مأخوذ من كلمة «آسى» بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الآرامية أقرب اللغات السامية إليها[1].

ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب «المستقلون المتشددون في سلوكهم الديني» «بالآسين» لأنهم كانوا يتعاطون طب الروح، وهذا الذي ذهب إليه بعض الباحثين وعلى رأسهم الأستاذ عباس محمود العقاد، من أن مصادر الدلالة اللغوية والتاريخية لكلمة «آسى» تعني الطبيب أو النطاسي، تربط القوم الذين تسموا بهذا الاسم «أساة» بأنهم كانوا يتعاطون طب الروح، ولم نجد فيما وقع في أيدينا من مصادر يمكن أن ينهض دليلاً في تفصيل موضوعي حول هذا الذي ذهب إليه كثير من الباحثين، من أن جماعات «الأساة» كانوا يقومون بإبراء المرضى بالصلوات والأوراد، بنفس الدرجة التي بها كانوا يدعون العلم بخصائص المواد والعقاقير.

* * *

غير أنه على طريق التناقض الاجتماعي الذي كان في عصر الميلاد ومظاهر انعدام وحدة التجانس في السلوك العام الاجتماعي أو الديني للجمهور اليهودي، ومن يمثله في ظل المناخ الذي هيأته السيطرة الرومانية للجماعات اليهودية كانت واضحة وقوية إلى الحد الذي كادت توشك مرحلة جديدة أن تبرز بتناقضات الطبع الملتوي والخلق النهاز في جماعات إسرائيل أو الذين يلتصقون بهم في دعوى زيف أو ادعاء عنصري وتفقد الإنسان اليهودي كل هويته المزعومة.

والطائفة الرابعة «الغلاة» الذين يرجح كثير من الباحثين اعتبارهم جزءاً من «الأساة» وهم متطرفون ومبالغون في السلوك المتقشف والقناعة المفرطة الزائفة إلى حد الصنعة الدينية المبتذلة، وهم يسمون من واقع سلوكهم ونظرتهم إلى أمور العبادة والحياة «الغلاة» أو الجليليون أتباع «يهودا» الجليلي. ورغم عدم تفاقم شأنهم أو كثرة عددهم فإنهم قد نظموا حركة تمرد وقادوا عصابات من جماعات إسرائيل قبل ميلاد

---

(١) أنظر «دكتور حسن ظاظا» في كتابه (الفكر الديني الإسرائيلي أطواره ومذاهبه).

السيد المسيح ببضعة قرون، كرد رافض وساخط لأمر الإحصاء الذي أصدره «كرينياس» حاكم «سوريا» كي يصبح اليهود بموجبه عبيداً للقيصر الروماني، يدينون له بالسيادة، إلا أن هذه الثورة التي قادها «الغلاة» قد انتهت قبل أن يمتد تأثيرها حتى إلى المناخ الذي نبتت فيه، وذلك عندما تمكن «الوالي» الروماني «كرينياس» من قتل يهودا الجليلي قائد المجموعة المتمردة، وقتل معه أبناؤه والقوى المحيطة به. ولم يكن لهذه الطائفة أدنى أثر من توجيه ديني أو تأثير أخلاقي رغم المبالغة والتطرف.

والطائفة الخامسة من الطوائف التي كانت تمثل تناقضات المجتمع اليهودي قبل ميلاد السيد المسيح، والتي كانت في نفس الوقت نماذج من أطراف التعامل اليهودي الروماني قبل السيد المسيح مباشرة «السامرية» والطائفة السامرية في مكوناتها البشرية تمثل خليطاً من اليهود والأشوريين الذين كانوا يقيمون بالاختلاط والمعاشرة بين جماعات إسرائيل القدامى حين تم لأشور السيطرة على الجماعات الإسرائيلية اليهودية عام ٧١٣ م. فقد كان من الأشوريين مجموعات تسكن وتخالط بالمعاشرة وغيرها جماعات اليهود الإسرائيليين، وتأثر جزء من الأشوريين باليهود ولم يعد من المتيسر التمييز بين اليهودي القديم المدعي لعنصرية الدين وعصبية الجنس وبين الأشوري حين مارس شعائر اليهودي وسلوكه.

وكانت طائفة السامرية تمثل نموذجاً من انفتاح الجماعات اليهودية بتقاليدها وعاداتها على غيرها من الجماعات البشرية الأخرى المخالفة لها، إلى الحد الذي ذهب فيه بعض من غلاة اليهود ومتعصبيهم إلى الثورة على طائفة السامرية، حين أصبحت خليطاً من اليهود وغيرهم في سلوك واحد وعقيدة واحدة، مظاهرها التحلل من كل ارتباط بالدين اليهودي، وكانت بداية تكون هذه الجماعات المسماة «بالسامرية» منذ زمن قديم سابق على المرحلة التي كانت قبيل عصر السيد المسيح، كانت هذه البداية في تكوين هذه الجماعة منذ عودة بعض الجماعات اليهودية عقب سقوط دولة بابل

وسقوط السبى البابلي عنهم، ونشاط علاقاتهم بعد ذلك مع مجموعات أشورية، وكان من أثر ذلك أن أنكرت الطوائف اليهودية من «السامريين» هذا الانخراط في الجنسيات المخالفة لهم، إلا أن «طائفة السامرية» لم تبال برأي الغلاة والمتعصبين، وبنوا لهم هيكلاً خاصاً بهم ومارسوا فيه شعائر هيكل بيت المقدس.

وقد مرت فترة طويلة حوالي مائتين من السنين على الهيكل الذي بناه السامريون وهو يمثل خطراً دينياً وسلوكياً على هيكل بيت المقدس الخاص بجماعات الفرق المتعصبة وظل هذا الهيكل في «جرزيم» «السامرة» حتى هدمه أحد كهان بيت المقدس وجرد حملة قوية للتخلص من آثاره، إلا أن «السامريين» أعادوا بناؤه وظل مقاماً حتى الثورة الشهيرة التي قام بها (السامريون) من جماعات إسرائيل في القرن الخامس للميلاد، فهدم القائد الروماني «فسباسيان» المدينة وأقام على أنقاضها مدينة جديدة.

ومن عجب أنه لا تزال بقايا السامريين تحتفظ ببعض عاداتها في عدم الاعتراف بغير هيكلها الذي تهدم في جرزيم ـ مكان نابلس.

وهذا من غير جدال دليل تعصب وروح عدوان لازمت اليهود عبر التاريخ.

* * *

انتزاع النبوة والرسالة من بيت إسرائيل:

بعد أن كلف رسول الله ﷺ بدعوة الناس جميعاً، وبعد أن قال له ربه سبحانه:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾. (سورة الأعراف/١٥٨).

انضوى تحت لواء الإسلام عناصر من طراز: بلال الحبشي، وسلمان الفارسي، وصهيب الرومي، وهي نماذج تعبر عن الأشكال والأوضاع في بلادها. وفي الوقت الذي كانت فيه هذه العناصر تلقى تكريم الإسلام لإنسانيتهم كان الإسلام العظيم

يصنع معجزة التكامل الاجتماعي. حين كان يسوي في الحقوق والواجبات بين مثل هذه النماذج وبين الرجال العرب من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم.

وحين هب طواغيت الجاهلية يضيقون الخناق على المسلمين ويسدون عليهم المنافذ، تحملوا وصبروا.

وفي السنة العاشرة من البعثة المحمدية اشتدت المطاردة الكافرة من جانب قريش للمسلمين، وذهب رسول الله ﷺ بنفسه إلى منطقة الطائف يلتمس مخرجاً للمسلمين، لكن قوبل برفض ومعارضة ومقاومة شديدة وفي هذا الموقف العصيب، لم يهتز يقين المصطفى أبداً بعون الله له وكانت العبارات التي اهتزت لها السمٰوات قول المصطفى من بين ما قال يناجي ربه: ﴿ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبَالِيَ ﴾ وختمت هذه العبارة بقوله الشريف: ﴿ إِلَىٰ مَنْ تَكِّلُنِي ﴾، وجاءت عبارة ﴿ إِلَىٰ مَنْ تَكِّلُنِي ﴾ ليهتز لها عرش الرحمن الرحيم، فكان الرد ذلك المطاف الطويل العجيب في كون الله، بل ذلك القرب الذي دنا به المصطفى ﷺ، فتدلى من ربه فكان قاب قوسين أو أدنى، والذي بدأه بالسيادة الروحية والدينية على كل ما في الكون، تهيئة وتمهيداً لتلك السيادة الروحية والمادية على الأرض العربية والتي تبدأ بعد سنين حين يتم نصر الله لعباده المؤمنين.

وسجل القرآن الكريم ملامح هذه المرحلة، والتي تم فيها مبايعة جميع الأنبياء والمرسلين لسيد ولد آدم عليه السلام، والتي بمقتضى ما تم فيها لرسول الله ﷺ فإن الله سبحانه قد نزع ميراث النبوة والرسالة من بيت اسحق وذرية إسرائيل ليصبح في يد أبناء اسماعيل العرب من خلال الخاتم محمد ﷺ.

يقول رب العزة في سورة الإسراء:

﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ

ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِّنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ، وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدىً لِّبَنِيٓ إِسْرَاءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً، ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً، وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَاءِيلَ فِي ٱلْكِتَـٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوّاً كَبِيراً، فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَـٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَاداً لَّنَآ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَـٰلَ ٱلدِّيَارِ وَكَانَ وَعْداً مَّفْعُولاً، ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَـٰكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَـٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيراً إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَها فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْأَخِرَةِ لِيَسُئُواْ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُواْ مَا عَلَوْاْ تَتْبِيراً، عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَـٰفِرِينَ حَصِيراً، إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾.

وفي هذه الآيات الكريمة يقدم الله سبحانة لتكريم نبيه في إسرائه به من مكة في مسجدها الحرام إلى فلسطين في مسجدها الأقصى بهذا المدخل المنزه المعجز: (سبحان) وسبحان هذه لا تدخل في تعبيرات القرآن الكريم إلا على كل خطير وذي شأن، ويتصل بالله وحده سبحانه. وكأن الإسراء حسبما يمكن للمرء أن يستشفه من روح الآيات القرآنية لربطما بين مكة ومسجدها الحرام وفلسطين ومسجدها الأقصى ذلك أنه لا يوجد حول المسجد الأقصى من شيء مبارك يستحق أن يراه محمدﷺ وأن يكرم بالنظر إليه. ولكنه امتداد الأرض العربية المسلمة ان شاء الله من المسجد الحرام للمسجد الأقصى لكونها في مجاورة جغرافية لأرض واحدة للمسجد الحرام في مكة، وليس لأن المسجد الأقصى بجواره النخيل والثمار، أو قبور الصالحين من إسرائيل! وهذه الأرض هي التي أصبح أبناؤ ها أداة الإسلام في الدعوة إلى الله تعالى.

والأمر العظيم في القرآن الكريم أنه بعد هذا المدخل الفذ في سورة الإسراء يقص على رسول الله قصص هذه الأرض وما يتعلق بها.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾.

ودلالة السياق القرآني أنهم اتخذوا وكيلاً وألف وكيل.

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً ﴾.

أي يا ذرية من أكرمنا مع نوح ما يجدر بكم أن تتخذوا من دون الله وكيلاً.

ثم قص الله سبحانه على نبيه للإنسانية كلها إفساد بني إسرائيل مرة بعد الأخرى، ومع ذلك يناديهم رب العزة من فوق سبع سموات أنهم إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فلها، ومع ذلك لم يرعووا ولم يرتدعوا.

ويحسم القرآن الموقف كله حين يقرر أنه لم يعد من شيء يصلح أن يكون وسيلة للعمل الصالح، ولا أن يقيم به المرء علاقة مع خالقه ولا أن يهدي للتي هي أقوم، سوى الإسلام وأن كل ما في أيديكم أيها اليهود باطل ولغو:

﴿ إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴾.

ومنذ ليلة الإسراء التي بايع فيها الأنبياء والمرسلون أمامهم محمد ﷺ، وفي فلسطين بالذات وميراث النبوة قد انتقل إلى العرب بفضل محمد ﷺ، الذي ختم الله به النبوة، وجعله سيد العالمين، وذلك لينضوي تحت لواء دعوته الناس جميعاً، ومن

ثم ولد اسحق واسماعيل بغير عنصرية أو زيف عدوان، كما حاول المؤرخون اليهود أن يجعلوا هذه السمة ظاهرة تلازم كل تاريخهم الطويل.

* * *

العلاقة اليهودية المسيحية في نبأ القرآن

بعد أن ركبت القوى اليهودية المختلفة تيار المسيحية، إثر تخلصه من مراحل الضعف والإستسلام الذي كانت عليه المسيحية، إبان عصر الميلاد ما بين اضطهاد اليهود لها ومقاومتهم، ونفاق السلطة الرومانية ومراوغتهم كان شيئاً طبيعياً أن تحاول العناصر اليهودية أن تحرف التعاليم المسيحيةَ وأن تشوه روح الحب التي انطوت عليها هذه الديانة منذ أرسى قواعدها، عيسى بن مريم عليه السلام.

ومن هنا رأينا التأويلات والتفسيرات العديدة للمذاهب المختلفة التي أراد بها اليهود أن يطمسوا معالم المسيحية وجوهرها.

ولما كان التقدير اليهودي في انتظار المسيح المخلص أنه حين يجيء يجيء وفي يده سيف يقطع به رقاب غير اليهود، وأنه سيشرع تعاليم عدوان، ويقرر شريعة قهر، ويقود جموع ملك وسلطان، لكنه حين رفض نفاقهم وسخر من ريائهم، وضرب أساليبهم، لم يسلم عليه السلام من الأذى والمطاردة.

وسار التاريخ منذ عصر الميلاد حتى البعثة المحمدية، والعلاقة اليهودية المسيحية على مستوى الدين تتعرض لما يمر به أتباع الديانتين من ظروف السياسة وأوضاعها، فحين قوي سلطان المسيحية قاومت اليهودية وحاولت النيل منها، وعندما كان اليهود يلعبون بمجريات الحوادث وفي أيديهم مقاليد سلطان جماعة من الناس يستطيعون أن يسخروهم لخدمة أغراضهم، قاومت اليهودية المسيحية وشنت ضدها من ضروب التعذيب ما يقشعر لهوله البدن.

وظل الحال هكذا بين اليهودية والنصرانية يتسابق أتباع كل منهما في أن يهود أو

ينصر أكبر عدد من الناس لتقوى به جماعته، أو أن يعمل على إيذاء أتباع الديانـة الأخرى.

وكان لا بد للإسلام من خلال الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه أن يسجل لبعض مراحل هذا الصراع إن لم يكن له جميعاً، ليمكن الحكم الفصل بين مراحل الصراع الطويل وليضع له حداً ونهاية.

حول تكريم القرآن الكريم للسيد المسيح عيسى بن مريم تجيء هذه الآيات لتضعه بادىء ذي بدء في مكانته التي تليق به، حتى لا تخضع شخصيته لأهواء بني إسرائيل وميولهم. تقول الآية رقم ٨٧ من سورة البقرة:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِٱلرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ ﴾.

وتقول الآية رقم ٢٥٣ من سورة البقرة:

﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ وَلَـٰكِنِ ٱخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُواْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾.

هذا ويجيء القرآن أمام قضية شائكة ويحسمها تماماً، ولـم يكن فيهـا القـرآن الكريم ليعيد صياغة مواقف قديمة أو يفجر أحقاداً بالأمس كانت، وإنما كان الهدف والمبتغى إحقاق الحق وتحديد المسؤولية.

وأعني بهذه القضية تلك الجريمة النكراء التي يتباهى العدوان اليهودي باقترافها كدليل على روح الخطيئة فيه، وهي: زعمهم صلب السيد المسيح.

ورغم أن الذي يدعون قتله نبي رسول، وقد ثبت لهم من خلال معجزات فذة وخارقة لكل قوانين الطبيعة، رأوها بأعينهم، وصدمت حواسهم المتبلدة، ومع ذلك فلم يكفوا عن الجهر بهذه الروح العدائية والتي كان من ورائها البغي والحسد حين خططوا وأعدوا ودبروا مؤامرة قتل السيد المسيح، لولا أن تدخلت مشيئة الله لتحول دون ذلك.

يقول الله سبحانه في سورة النساء من الآيتين ١٥٨,١٥٧:

﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَىٰ ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَـٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً، بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾.

ومن عجب أن القرآن الكريم حين يلفت النظر إلى حقيقة الحكم في هذه القضية، لا يبريء اليهود من القصد الجنائي لقتل نبي، فإن جريمة القتل قد وقعت بالفعل، ولكن على شبيه بالسيد المسيح، ولولم تتدخل عناية الله ورحمته لكان القتل قد وقع على السيد المسيح نفسه، ومن هنا فإن العدوان والوزر والخطيئة التي اقترفوها في حق الأنبياء والسيد المسيح بينهم لا تزال تدينهم، وتدنس كل دعواهم في النبوة والرسالة، ولا يزال صدى قولهم الآثم الذي سجلته الأناجيل عليهم يوم خطيئتهم فيما تصوروه المسيح عيسى بن مريم قائماً حتى اليوم.

ويجيء الذكر الحكيم هنا ليقرر قضية تتميم وتكميل الرسالة اللاحقة للسابقة حين تجيء الرسالة الخاتمة، ويكشف القرآن أن هذا التتميم والتكميل لا يكون بالنقص والهدم والتخريب، لكن بالحب والتسامح وتقرير جوانب الحق والخير في

السابق ورفض ما علق به من أوشاب أو ما دنسه من أخطاء.

يقول رب العزة، وهو يكشف عن السماحة المسيحية في تعاملها مع اليهود حين كان السيد المسيح هو المقرر والموجه والمعلم:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّـٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَـٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ فَلَا تَخْشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَـٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ، وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ، وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. (سورة المائدة/ ٤٤ ـ ٤٦).

هل يمكن أن ترى الدنيا منذ خلقها الله إلى يوم الساعة كتاباً كهذا القرآن الكريم، حين يكون حكماً فيصلاً في أوثق قضايا العقيدة والإيمان؟

لا مجال هنا لما طرأ على العقيدة اليهودية من تشويه أو تدنيس يحاسب عليها أصحابها والمؤمنون بها حين كانت، لكن القرآن يتحدث عن الحقائق وعن المعاني المجردة من تأثيرات السياسة ولوثة الهوى والجحود.

فيقرر القرآن الكريم لأصحاب التوراة حين كان يخاطبهم السيد المسيح ويوجه إليهم دعوة الله: إنكم إن كنتم حقاً تعبدون الله وعلى عهده وميثاقه، فإن الله الذي أنزل التوراة، فيها هدى ونور، قد جعل بين يدي عيسى الانجيل فيه أيضاً هدى ونور.

ومن عجب أن القرآن يتحدث عن موقف كان في غاية السماحة، أخذه السيد المسيح مع اليهود، حين كان يقول لهم: إنه بما أتى بين يديه من الانجيل الذي فيه هدى ونور لا تناقض بينه وبين التوراة التي أنزلها الله بالهدى والنور.

﴿ وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَـٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾. (المائدة / ٤٦)

هذا ويجعل القرآن الكريم سلسلة الرسالات الإلهيّة على يد الأنبياء والمرسلين عناصر وحدة موضوعية واحدة، تستهدف غاية واحدة وهي الايمان بالله رب العالمين لكن بني إسرائيل كانوا يقاومون تحقيق هذا الهدف ويحولون دون تحقيقه، لأن الأرباب والآلهة التي اتخذوها، وفق هواهم وما يتفق وشهواتهم وأطماعهم، تحول دون أن يكون لهم رب واحد تتساوى عنده قيم الناس جميعاً، ولا يتفاضلون إلا بمقدار ما يقدمون من خير ومثوبة.

ويجيء القرآن الكريم في سورة الصف ومن الآيتين ٥و٦ ليحدثنا عن موقف موسى من بني إسرائيل ليدخل بنا إلى موقف مشابه للسيد المسيح عيسى بن مريم معهم.

وكان لا بد من طرح ثمار التجربة الدينية كلها في بيت ولد اسحق على لسان السيد المسيح، في شكل بشارة بالخاتم محمد ﷺ.

يقول الذكر الحكيم في الآيتين اللتين سبقت الاشارة الى رقمهما في المصحف:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ، وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَاءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُواْ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾.

هذه هي بعض ملامح الحكم القرآني في نوعية العلاقة التي كانت إبان عصر الميلاد بين اليهودية والمسيحية، وجاء القرآن ليصحح أموراً كثيرة وقضايا عديدة اختلط فيها الحق بالباطل، وتشوهت وحدة العقيدة الإلهية بزيف المذاهب السياسية التي سادت إبان عصر الميلاد.

وإذا كنا هنا قد حاولنا أن نرى العلاقة اليهودية على ضوء حكم القرآن، أفلا نرى بعض ملامحها أيضاً على ضوء ما سجل الواقع الاجتماعي والسياسي والديني لليهود في عصر الميلاد، هذا الواقع الذي كان كل محركات بواعثهم نحو تحديد موقفهم من النبوة والرسالة أو من غيرها، ذلك أنه عندما كانت طوائف الجماعات اليهودية في عصر الميلاد تحت ضغوط الرومان ومضايقاتهم، وعندما كان الشعب اليهودي بمختلف تناقضاته يعاني آلام مرحلة جديدة في ظل هذا السيد الجديد المتمكن من الأرض، المسيطر على من فيها، والمالك لكل ما فيها، كانت فئات من الذين يلوكون دعوى المذهبية والفئوية الدينية، ومن الذين يمثلون التناقض الاجتماعي القائم على علاقات الاستغلال والامتياز، مثل تلك الطوائف الدينية الاجتماعية التي كانت تتسمى باسم: الكتبة والفريسيين والصدوقيين، وغيرهم من الذين كان ينظر اليهم العامة من جمهور الشعب اليهودي المغلوب على أمره والمضيع رزقه، والمستهلك جهده، على أنهم يمثلون سيادة الدين والدنيا، تتعامل مع الرومان وتعمل أداة لهم، خدماً ووشاة ضد جماعاتهم وما تبقى من زيف دعوى دينهم الذي حرفوه وبدلوه وأضافوا إليه وحذفوا منه ما شاء لهم الهوى وأقتضته المصلحة التي كانوا يرونها.

وبينما الشعب اليهودي (الجمهور الفقير البائس الضائع) يتعرض للإرهاب والخوف والفزع، ويضيق بأسلوب الحياة المفروضة عليه في ظل السيادة الجديدة كان القادة، من الكتبة والفريسيين بجانب الرومان وفي قصورهم، خدماً ووشاة كما تفصح آيات العهد الجديد وتسجل عليهم.

وكان من نتيجة انصراف أصحاب السيادة الدينية وأهل الدنيا وقوى السيطرة

والسخرة من أهل اليهود، أن تعرضت الطوائف اليهودية كلها لمرحلة من الجدب والقحط النفسي، ساءت أحوال الفرد الإنسان اليهودي وانعدم فيه احساسه بأدنى ولاء لعقيدة أو لجماعة أو لسلوك ديني، وأصبح حالهم الاجتماعي والنفسي كما عبر السيد المسيح عليه السلام حين كشف القناع عن هزال الحال الاجتماعي بين الطوائف الإسرائيلية، عندما وجه إليهم أقوى نقده وكشف عن حالهم بأنهم كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميل وداخلها عظام نخرة.

وقبل أن يطول في ظل السيادة الرومانية على جماعات اليهود، الزمن بالشعب الذي مزقته طائفية رجال دينه ووثنية عقائدهم، يتدخل القدر في محاولة أخيرة لهذا الشعب الذي حطمته طائفية رجاله بالدين الجديد بزعامة السيد المسيح، وليكون بمثابة التعبير الرمزي عن ارادة العقل الباطن وتطلعه في طلب الشفاء من همس الوشاية وضجيج الصدام رافضاً ما حاوله التاريخ اليهودي من مسخ وتشويه لعقل الإنسان وتاريخه وحضارته[1] ولينبه كل طوائف الشعب إلى بشاعة ما هم مقبلون عليه وفي اتجاهه من حياة كلها جدب وقحط وكساد. وتعصل لعلم الروح وضوابط الضمير.

---

(1) بالرغم ما تفصح عنه آيات العهد القديم وكذلك معظم آيات العهد الجديد «الانجيل» التي تتعرض بالحديث والرواية عن اليهود فيما يتعلق بربهم ونوع العلاقة التي كانت بينهم وبينه، وتكشف في تناقض منها بأنهم كانوا وثنيين ومتجردين من كل معاني التنزيه والتطهير التي كانت تضفي بعد ذلك سلوكاً أخلاقياً فاضلاً، وبالرغم من الآيات الكثيرة التي وقفنا على بعضها من آيات العهد القديم التي تؤكد لنا في وضوح دون أعمال الصنعة الادعائية المتعصبة، الجدب العقلي والعاطفي الذي لم يؤثر في فن أو أدب أصيل وعميق في تاريخ القوم ورغم الوقوف في وضوح على الجفاف والعقم في كل معطيات القوم الدينية والتي لا تزال نصوصها مسجلة لليوم فيما هو بين أيدينا من آيات التوراة، فإن عمل الزيف والتضليل الذي برعت فيه الأجيال المرتبطة في دعوة تعصب اليهود والتاريخ اليهودي، قد مسخت صورة الحقيقة عند كثير من شعوب العالم، وبالتالي فقد امكن لها ان تضلل الكثير من المفكرين والمؤرخين، وها هو واحد من المحدثين الذين لعب الزيف اليهودي في عقولهم بالمصلحة واللهوى. فراحوا يكتبون عن الميراث الديني والفكري والحضاري المدعى، للجماعات الأولى من بني إسرائيل، والذين يطلق عليهم عند مثل هؤلاء المؤرخين «العبريون» تقدم و. ج. دي بورج في كتابه (تراث العالم القديم). فقد كتب في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي انتهى منه قبل وفاته عام ١٩٤٣، وعن العبريين كتب يقول:
=

وتنهــج المسيحية أسلوبــاً جديداً، لا تنقض فيه شرعــاً نقياً، ولا تقاوم سلطان ملك. وإنما تلجأ في محاولة لإحياء موات القلوب وتجعل من أدائها في الدعوة سلاماً على الحياة، وحباً للبشر وأمناً للخـائف، وتمجيداً للسـلام دون صخـب أو ضجيج مثلما كانت تلجأ دعوات وحركات فارغة ضائعة.

ويغتاظ عملاء الرومان الذين هم من الجماعات اليهودية من خطر الدعوة مثلما أدرك الرومان أنفسهم ما يمكن أن تفضحهم به الدعوة الجديدة.

= «إن الدين الذي تحمله مدنيتنا الحديثة للعبريين يقع بكليته تقريباً في مجال الدين. وشعرهم وهو أصدق نرشد الى أفكار ومشاعر الشعب، وهو في جوهره شعر ديني، وقيمته ليس في أسلوبه الأدبي أو البرهان النظري أكثر منها في بصر الوحي العميق الذي يعبر عنه، ولم يكن للسلالة العبرية الا شأن يسير في الحرب او السياسة، فيما عدا فترة قصيرة وجيزة في عهد الملك داود، وعلى هذا فان ما حققته من عمل دنيوي جليل يمكن ان يمر دون ان يسترعي النظر تقريباً في تاريخ العالم انها العبقرية الروحية لأنبياء مثل عاموس وهوشع في إسرائيل وأشعياء يهوذا في القرن الثامن قبل الميلاد هي التي كانت أول ما أحال عقيدة قبيلة مقصور إلى دين ذي معنى عام للعالم ولم يعد يظهر «يهود» بعد كإلّه قبلي عبور يقود شعبه إلى النـصر على آلهة اعدائهم القبليين الذين يقفون معه على قدم المساواة ولكن كحاكم إلّهي للكون - يوقع القصاص على العبريين، عن طريق أعدائهم - يقترفون من خطيئة، والذي كان يريد رحمة الله ذبيحة، ويدعو لعبادته ليس بالهّية الشخصية، ولكن بالمعاملة البارة بين الانسان وهذا التحول في الدين العبري عاون في الحق على تحطيم وحدة الدولة العبرية السياسية، ولكن البذرة التي بذرهـا الأنبياء الأوائل نضجت خلال التجربة المريرة من المذلة القومية والأسر إلى دين خالص النقاوة وهو الذي في الحين المناسب أنجب العقيدة التي هزت العالم المتمدن وكان العبرانيون اول شعب من الشعوب التي عرفها التاريخ وصل الى الإعتقاد بإلّه واحد ·الق وحاكم القوم وأبي البشر أجمعين ونستطيع أن نقول إنـه من بين لغة التعصب للعبريين وللتاريخ العبري كما هو واضح من منهج الكاتب والمؤرخ «دي يورج» فإننا نلمح أنه لم يستطيع أن يخفي الحقيقة التي يريد أن يزيفها فمن بين ما ورد مثلاً مما قرره نلمح أنه لم يستطيع أن يخفي الحقيقة التي يريد أن يزيفها فمن بين ما ورد مثلاً مما قرره نلمح:

(١) لم يكن للسلالة العبرية كبير أثر في الحرب والسياسة.

(٢) تقرير ظهور (يهوه) إلّه قبل غيور، ثم عدم ظهوره بعد ذلك بهذا المعنى وفي هذا تقرير للفـكرة الوثنية تجعل من الإلّه رغبة توائم كل ظرف وتتفق مع المصلحة.

(٣) تقرير المذلة والضياع منذ فترة الأسر.

ولكن التعصب الأعمى جعل من فترة الأسر تجارب لخلق إلّه (إسرائيل) خالق وحاكم الكون والبشر أجمعين وخاصة ببني إسرائيل.

ويدرك هؤلاء وأولئك من الذين هم عبارة عن خدم ووشاة ضد طوائف شعبهم اليهودي، وأصحاب السيادة الغزاة أنفسهم أن خطر الدعوة الجديدة أخـلاقياًودينياً سيكتسحهم، ولن يترك لهم أرض النفاق التي يلعبون عليها ولن يتمكنوا من أداء دور الوشاية ضد طوائف شعبهم في خدمة السادة الرومان.

ثم مع نمو تعاليم الدعوة وتصاعد نجاح المعلم، يتفاقم الخطـر على الجماعـات اليهودية أكثر فأكثر، فينظر عملاء الرومان إلى الدين الجديد بحذر وقلق، ثم يعمقون نفس الشعور في نفوس بني إسرائيل جميعاً وكل طوائف الشعـب اليهـودي إلى أن يصرفوا الشعب جميعه عن فرصة الاستماع والانصات إلى الداعي الجديد[1].

وتشيع الوشاية وتتحول إلى سيطرة على ـ حياة الناس، ويصبح الهمس ضجيجاً ضد السيد المسيح، إلى أن يصبح الحال جميعه بتأثير مما فعل الكهان وممثلي الطبقات الاجتماعية المتناقضة المتصارعة إلى تذمر جميع بني إسرائيل من الدين الجديد، ومن صاحب الدعوة إلى هذا الدين، وأوشك الحال الاجتماعي والسياسي أن يكون في ثورة رفض لكّل ما يبشر به السيد المسيح من عقيدة وما يدعو إليه من دين، يحمل بين تعاليمه قضية العدل الاجتماعي والتظهر في أمور الحياة والدين ومظاهر السلوك.

ومع أن الكهانة الدينية كانت تتوارث فكرة مسيح مخلص على يد من يقيم لهم مطالب المصلحة والهوى، ثم ضاقت بهذه الأفكار فتخلت عنها، فإن المنهج الذي ارتضاه السيد المسيح عليه السلام حين لم يكن مستعصياً على الناس ولا نافراً منهم، بل يعايش الصالحين والمذنبين ليطهرهم، ويشارك الجميع أفراحهم وولاءهم ويتقبل التحية حتى ولو لم تكن غير صالحة، كان كفيلاً بأن يثير همم الذين جمعوا من ثروة المال والكسل ليزيدوا من حال مجتمع العبيد تمزقاً مرهقاً وفاقة مضيعة، فقرروا ان

---

(١) انظر (مختصر دراسة للتاريخ) للمؤرخ العالمي: ارنولد توينبي، الجزء الثالث الذي ترجمه الأستاذ (فؤاد محمد شبل) الطبعة الأولى ـ ١٩٦٤ القاهرة.

يؤججوا مشاعر جميع الطبقات وأن يؤلبوها ضد الدعوة التي ابتدأ صاحبها يقـول: « . . . . جئت لألقي على الأرض ناراً فحبذا لو تضطرم! ».

والذي يقول: « أتحسبونني أتيت لأمنح الأرض سلاماً، كلا وإنما هو الصـدام والانقسام، خمسة في البيت ينقسم ثلاثة منهم على اثنين، واثنان على ثلاثة ينقسـم الأب على ابنه والإبن على أبيه، وتنقسم الأم على بنتها والبنت على أمها وتنقسم الحماة على الكنة والكنة على الحماة» . . وهكذا فإن الحال الاجتماعي في عصر السيد المسيح بمختلف فئاته وطبقاته التي كانت تتساوى عندها مظاهر الرياء والنفـاق، والجمـود والجحود قد وقفت من أمر الدعوة الجديدة التي تقود عملية تغيير جذري في سلوك المنافقين والمرائين، موقف حرب وعداء تعاونت فيه كل قوى التنـاقض الاجتماعـي اليهودي، ثم استعانت بالسيادة الرومانية بدعوى أن خطر الدعوة الجديدة أخلاقياً لن يدع الجمهور اليهودي الخاضع لمشيئة الدولة. مرتبطاً بولائه وخنوعـه لحـكام الدولـة وسادتها.

وسيعملون على التحرر النفسي والتخلص من الأسر الاجتماعي والسياسي بأداة الدعوة الجديدة حين يستجيبـون لهـا ويرتبطـون بهـا، وبالفعـل فإن خدام الدولـة الرومانية في عصر السيد المسيح من سادة الطوائف اليهودية، قد استطاعوا أن يوقعوا ساسة الدولة الرومانية بأن يعملوا معهم في مطاردة الدعوة الجديدة ورفضها، ومع أن الدعوة لم تتعرض للدولة سياسياً بهدم أو بناء، ولم تعرض لها فيما تدعو إليه وفيما تعقد له من مبادىء وقواعد بنقد أو هدم أو تجريح واضح صريح ومكشوف، فإن الدولة لم تترك الدعوة الدينية تعمل عملها في النفوس بل أصبحت السلطة الرومانية بالوشاية اليهودية في معركة مع الدعوة، ولم تشهر فيها السلاح علانية وإنما بالمؤامرة والخداع وتكتيل جهود القوى الثائرة ضد الدعوة من أبناء إسرائيل الأدعياء، الذي قد بلغ بهم الضلال والعمى المستوى الذي وصف فيه السيد المسيح حالهم حـين أراد إصلاح أحوالهم بأنهم « خراف ضالة».

ولما كان على المعلم الجديد أن يستأنس الخراف الضالة، وأن يهديها إلى الطريق السوي ثم يمسخ طبيعتها البهيمية، ليجعل منها النفس الخيرة والروح الحي والضمير النقي، جوبهت بالرفض والسخص والثورة والتنكر من أولئك الذي كشف طويتهم وخبر طبيعتهم وفضح قلوبهم بأنهم «الحيات أولاد الأفاعي».

وبالفعل فإن «الحيات» من بني إسرائيل قد نفثت سمومها في طريق الدعوة الجديدة، وأعلنت الموت لصاحب الدعوة ومن سار على نفس الطريق، وأمكن للقوى الشريرة أن تسيطر على الجماعات الإسرائيلية، وأن تعبىء ضد المسيح عليه السلام حرباً قوية وأن تشهر في وجهه كل سلاح، حتى ضللت الجمهور اليهودي وأدخلته الحرب ضد المسيح في حالة رفض له ولتعاليمه.

الرفض الديني اليهودي للسيد المسيح:

المناخ الإجتماعي الذي كان في عصر السيد المسيح قبيل الدعوة وفي أثنائها يدل على أن التركيبة الاجتماعية فيه قائمة على حال من الخلخلة في البناء الاجتماعي وعلى التناقض الفئوي وعلى الصراع الطبقي أيضاً. وكل الطوائف التي تمثل الشعب اليهودي كان سادتها جميعاً خدماً ووشاة عند الرومان ضد الشعب الذي يمثلون سيادته، فلما كانت الدعوة الدينية على يد السيد المسيح وقفوا منها موقف رفض وسخط وثورة عليها، واستعدوا السيادة الرومانية وأوقعوها في العداء ضد الدعوة الجديدة وضد صاحبها.

وما أن أدركت قوى التناقض اليهودي التي تمثل الإمتياز والسيطرة على جمهور اليهود أن الدعوة الجديدة على يد السيد المسيح ابتدأت تطهر روح المضيعين وتنقي قلوبهم وتشفي أمراضهم، وتستجمعهم ثم تلم شملهم بالروح وتضع السكينة عليهم بالهداية والتوجيه، وتبعث الأمل لليوم وللغد، إلا وقد ملأهم الخوف والفزع من أسلوب المعلم ومن إمكان تأثيره في قلوب الجماهير المحرومة والمكافحة،

والمضيع جهدها ما بين تضليل السادة من قومهم، واستنزاف الدولة السيدة والمسيطرة، واستغلال الوسطاء والمرابين والعشاريين، حين كان المعلم يقول لهم:

« . . . طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات! طوبى للحزانى لأنهم يتعزون، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض، طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يشبعون، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون، طوبى لأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله، طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر، لأن لهم ملكوت السموات، طوبى لكم إذا عيروكم وطردوكم، وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلي كاذبين افرحوا وتهللوا، لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم!».

وليس من العجب أن هذه الآيات كانت عمليات تعميق روحي وتعبئة نفسية في أن يلتقي المؤسنون المستجيبون للدين الجديد بعضهم والبعض الآخر، يرون في الإيمان بهذه الآيات والتعلق بها أداة لهم في إمكان الخلاص النفسي والروحي من ظروف القهر والاستبداد التي تفرض حواليهم، وكما كانت مثل هذه الآيات متنفساً للمظلومين والحزانى والجياع حين كانوا يتعلقون ببشرى: « إن لهم ميراث الأرض وملكوت السموات» فإن القوى التي كانت ترى في آيات الدعوة الجديدة، حين تعمل على تخفيف الآلام النفسية عن جمهور الشعب ثم تعبئته، خطراً عليها كانت تدرك أن الخطر الديني يقترب منها أولاً بأول، فابتدأت تترصد الدعوة وصاحبها وخاصة عندما ابتدأت الآيات التعليمية التي كان يلقنها المعلم للمؤمنين به تتعرض لزيف ما عليه القوم وما ألفوا:

« . . . احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكي ينظروكم، وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذي في السموات فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراؤون في المجامع وفي الأزقة لكي يمجدوا من الناس، الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف

شمالك ما تفعل يمينك لكي تكون صدقتك في الخفاء، فأبوك الذي يرى في الخفاء، هو يجازيك علانية[1].

وكانت هذه الدعوة دفعة قوية في أن يحترز المؤمنون بالدين الجديد ويبتعدوا عن مظاهر النفاق الاجتماعي، وكانت أيضاً توجيهاً إلى محاولة جعل الترابط الاجتماعي بالعون والمعونة، وبالأسلوب الأخلاقي الذي لا يعرف المنة ولا الاستعلاء إلى الحد الذي لا تعرف فيه الشمال ما قدمت اليمين من جهة أو خير وكان هذا المنهج يعبر عن تشكيل أخلاقي جدير برفض زيف ما عليه مجتمع اليهود حين كانوا يمثلون كل مظاهر الفراغ والزيف والأنانية والاستعلاء والسلبية، الصفات التي عابها السيد المسيح ورفضها في تأب، وفي صراحة وحزم، ووضوح عمل الضمير.

«. . . ومتى صليت فلا تكن كالمرائين، فإنهم يحبون أن يصلوا قائمين في المجامع وفي زوايا الشوارع لكي يظهروا للناس، الحق أقول لكم أنهم قد استوفوا أجرهم، وأما أنت فمتى صليت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك، وصل إلى أبيك الذي في الخفاء فأبوك الذي يرى في الخفاء يجازيك علانية، وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم، فإنهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم فلا تتشبهوا بهم لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه»[2].

وكانت مثل هذه الآيات أيضاً موقفاً جديداً يميز جماعات الذين يستجيبون للدين الجديد في رفضهم لمظاهر الكهانة اليهودية، والمبالغة والغلو في اتخاذ المحاريب والهياكل وتقديس المقتنيات والارتباط بها، على أنها وحدها وسيلة الدين ومضمونه وفي اطارها ومن أجلها تقوم الوظائف ويتميز القائمون بآيات الهداية والتوجيه، لا يعرفون ولا يقرون الارتباط بمظاهر الكهانة والوثنية بكل صورها، وهم في رفض لكل ما يمكن أن يشد عواطفهم لغير الله الحق، وهم في إيمانهم وتعلقهم بالإله الحق يرفضون كل ما سواه بل ومن أجله هم لا يعرفون شيئاً آخر من مال أو جاه

(١) انجيل متى: الاصحاح السادس: ١-٤

(٢) انجيل متى: الاصحاح السادس: ٥ - ٨.

إنهم في كل حال يتجردون من كل مظاهر المال والجاه. ومن كل الطرق المؤدية إليها:

«لا يقدر أحد أن يخدم سيدين، لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر، لا تقدرون أن تخدموا الله والمال، لذلك وأقول لكم لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولا لأجسادكم بما تلبسون»[1].

وكانت هذه الآيات للمؤمنين بها تعتبر تشكيلاً اجتماعياً وأخلاقياً آخر، ضد الذين يحبون المتكآت الأولى والمجالس الأولى والمحافل الأولى، وأن يقول الناس لهم سيدي سيدي، ولم يقف الأمر بآيات الدعوة عند حدود الآيات التي ترسم قواعد الأخلاق وآداب السلوك وتنقي الروح وتطهر الجسد، بل أصبحت تعاليم الآيات تشكل خطراً محققاً على كثير من طوائف المجتمع اليهودي الفئوي المتفتت المتميع، كما أدرك تلاميذ المعلم أن آيات معلمهم تتناول بعض طوائف المجتمع اليهودي، حين دعا الجميع وقال لهم:

«اسمعوا وافهموا، ليس ما يدخل الفم ينجس الإنسان، بل ما يخرج من الفم ينجس هذا الإنسان، حينئذ تقدم تلاميذه، وقالوا له: أتعلم أن الفريسيين ـ طائفة من المجتمع اليهودي الطبقي في عصر الميلاد ـ لما سمعوا القول نفروا؟ فأجاب وقال: كل غرس لم يغرسه أبي السموي يقلع، أتركوهم، هم عميان قادة عميان وإن كل أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما في حفرة»[2].

وكان الموقف يتمثل في أنه:

«ذهب يسوع في السبت بين الزروع، فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون، فالفريسيون، لما نظروا قالوا له هوذا تلاميذك، يفعلون ما لا يحل فعله في السبت، فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله، وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط، أو ما

(١) انجيل متى الاصحاح السادس: ٢٤ ـ ٢٦.
(٢) انجيل متى: الاصحاح الخامس عشر: ١٠ ـ ١٥.

قرأتم في التوراة أن الكهنة في السبت في الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء ولكن أقول لكم إن ها هنا أعظم من الهيكل فلو علمتم ما هو أني أريد رحمة لا ذبيحة، لما حكمتم على الأبرياء فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضاً، ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم وإذا إنسان يده يابسة فسألوه قائلين هل يحل الإبراء في السبوت لكي يشتكوا عليه. فقال لهم: أي إنسان منكم يكون له خروف واحد، فإن سقط هذا في السبت في حفرة أفما يمسكه ويقيمه فالإنسان كم هو أفضل من الخروف: إذا يحل فعل الخير في السبوت ثم قال للإنسان مد يدك. فمدها فعادت صحيحة كالأخرى»[1].

وعلى هذا الطريق المغاير تماماً لكل ما ألف القوم فيه وتفننوا من خداع العمل الديني القائم على المصلحة والهوى كان نبي الله عيسى بن مريم يقضي الشوط الكريم يقرر فيه البديل لقضايا الدين الذي زيفه الإسرائيليون وحرفوه وبدلوه، منذ تلقوه من يد الأنبياء، والمرسلين مؤملاً أن يصنع جيلاً أو جماعة تحمل على عاتقها مهمة الدعوة للإيمان بقضايا الحب والخير والسلام، وكم كانت نفس النبي تواقة لأن يرى تباشير الدعوة يستجاب لها أو أن أثرها قد علق في نفوس بعض القوم وارتبط بقلوبهم وعقولهم، والحكيم بذل نفسه وروحه وودّ لو يرتبط به الذين يسمعون له ويستجيبون له ارتباطاً قوياً. كي تطمئن قلوبهم له وتستقر نفوسهم نحو هذه القيم الجديدة التي ارتجى أن تكون سبيلهم وأداتهم في الحياة.

وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وأخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلموه فقال له واحد: هوذا أمك وأخوتك واقفون خارجاً طالبين أن يكلموك، فأجاب وقال للقائل: من هي أمي؟ ومن هم أخوتي؟ ومد يده نحو تلاميذه وقال: ها هي أمي وأخوتي، لأن من يصنع مشيئة أبي الذي في السموات هو أخي وأختي وأمي[2].

ومن أشق ما يتصور هو معرفة كيف استطاع عيسى بن مريم عليه السلام، أن

(١) انجيل متى: الاصحاح الثاني عشر: ١ - ١٣.
(٢) انجيل متى: الاصحاح الثاني عشر: ٤٦ - ٤٨.

ينتزع من بين ضياع جمهور الشعب اليهودي المثقل بكل الآلام والمحن، والمضيع بين قوى الإستغلال الظالم أفراداً يصنع منهم تلاميذ له ومريدين، والجميع لما يزل حتى الأمس الذي كان فيه المعلم ينتزع فيه تلاميذه ويعلمهم ويربيهم، غلاظ القلوب قساة النفس موتى الروح، لا تربطهم بالقيم الأخلاقية أو الإجتماعية أدنى علاقة، بل هم الذين لا يعرفون حتى القيمة الإنسانية في علاقة الرجل بامرأته، ويتصورون أنه من الحق أن يتخلص الرجل من امرأته لسبب، أدنى سبب!!

ولقد جاء إليه الفريسيون ليجربوه قائلين له: «هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب فأجاب وقال: أما قرأتم إن الذي خلق من البدء خلقهما ذكراً وأنثى وقال[1]: من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً، إذ ليسا بعد اثنين بل جسد واحداً فالذي جمعه الله لا يفرقه إنسان، قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتاب طلاق فنطلق، قال لهم: إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم، ولكن من البدء لم يكن هذا، وأقول لكم أن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزني، والذي يتزوج بمطلقة يزني».

* * *

ولقد كان المسيح عليه السلام بالمرصاد لكل مضايقات جماعات الكهانة الدينية وقوى الطبقات الاجتماعية، «.. جاؤوا ليجربوه هل يحق للرجل أن يطلق امرأته» فأدرك على الفور مدى خداعهم وتضليلاتهم فكشف عوراتهم وفضح شهواتهم وتعلقهم بالحس والخطيئة بقسوة قلب وبهيمية طبع»، «.. إن موسى من أجل قساوة قلوبكم اذن لكم أن تطلقوا نساءكم». ثم ساق تعاليمه التي وجهها إليهم حينئذ كي يضيق المجال أمام اندفاع غرائز الطبع الملتوي والخلق النهاز» «.. إن من طلق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى فإنه يزني»

---

(١) انجيل متى: الاصحاح التاسع عشر: ٣ - ٩.

وهكذا ظل الاسرائيليون جميعاً بمختلف اتجاهاتهم وطبقاتهم في موقف الخائف القلق، من خطر قوى تنمو أمامه تهدد امتيازاته وقواه بما يعتمد عليه المعلم من أسباب العون المعجز، الذي يحيط به حين يعمل على إبراز قيم وقضايا جديدة ستكون الأداة في أن يندفع المؤمنون بها والمتعلقون بخيرها يرفعون من أمامهم كل ما يعوق تحقيق مبادئهم وقيمهم. ولقد ذهب مجموعة من الكهنة والسادة المستغلين والمسيطرين إلى السيد المسيح عيسى بن مريم حيث هو يعلم اتباعه وأرادوا بالإحراج والمضايقة قبل أن يقوموا بالمطاردة أن يضعوا حداً لأسلوبه ودعوته التي ابتدأت تستقطب جماهير الكادحين والمحرومين، فذهبوا إليه في الهيكل وكانت مؤامرة ضده رهيبة عليه السلام.

«ولما جاء الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يعلم قائلين: بأي سلطان تفعل هذا، ومن أعطاك هذا السلطان؟[1] فأجاب يسوع وقال لهم: وأنا أيضاً أسألكم كلمة واحدة، فإن قلتم لي عنها أقول لكم أنا أيضاً بأي سلطان أفعل هذا، معمودية يوحنا من أين كانت؟ من السماء أم من الناس ففكروا في أنفسهم قائلين، إن قلنا من السماء يقول لنا فلماذا لم تؤمنوا به، وإن قلنا من الناس نخاف من الشعب لأن يوحنا عند الجميع مثل نبي، فأجابوا يسوع وقالوا: لانعلم، فقال لهم هو أيضاً، ولا أنا أقول لكم بأي سلطان أفعل هذا[2] ثم دخل معهم بعد ذلك في مواقف هجوم كشف بها زيف وجمود ونفاق ما يلوكونه، وما يدعونه من أساليب عبادة ومراسيم دين حين قال لهم: ويل لكم أيها الكتبة الفريسيون المراؤون لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس، فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون! ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون تأكلون بيوت الأرامل، ولعلة تطيلون صلواتكم، لذلك تأخذون دينونة أعظم! ويل لكم أيها

---

(١) انجيل متى: الاصحاح الحادي والعشرون: ٢٣ ـ ٢٧.
(٢) انجيل متى: الاصحاح الثالث والعشرون: ١٣ ـ ٢٧.

الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلاً واحداً، ومتى حصل تضعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفاً! ويل لكم أيها القادة العميان القائلون من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم، أيها الجهال والعميان أيما أعظم الذهب أم الهيكل الذي يقدس الذهب، ومن حلف بالمذبح فليس شيء، ولكن من حلف بالقربان الذي عليه يلتزم. أيها الجهال والعميان أيما أعظم القربان أم المذبح الذي يقدس القربان، فإن من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ما عليه، ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرض الله وبالجالس عليه، ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون، وتركتم أثقل الناموس: الحق والرحمة والإيمان كان ينبغي أن تعملوا هذه ولا تبرحوا تلك، أيها القادة العميان الذين يصفون عن البعوضة ويبلغون الجمل. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون! لأنكم تنقون خارج الكأس والصفحة وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة. أيها الفريسي الأعمى نق أولاً داخل الكأس والصفحة لكي يكون خارجهما أيضاً نقياً. ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبوراً مبيضة تظهر من خارج جميلة، وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة، وهذا انتم أيضاً من خارج تظهرون للناس أبراراً ولكنكم من داخل مشحونون رياء وإثماً».

ومن وسط السياق العام لكلمات الأناجيل والترابط الموضوعي الذي يمكن أن يخرج به الباحث من كلمات «متى» في جملة اصحاحاته، يتضح أن السيد المسيح قد قرر أن يهاجم في وضوح طبيعة التركيبة الإجتماعية والنفسية لجماعات اليهود من الكتبة والفريسيين وشيوخ الشعب المرائين. وأن لا يتركهم على ما هم عليه من محاولة استمرار عمل الكهانة ودعوى ممارستها وأسرارها، وأن يتضح الموقف على حقيقته:

«... لأنكم تغلقون ملكوت السموات قدام الناس فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الصالحين يدخلون».

ثم رفض في قوة، أداتها السلم والحلم أن يستمر القوم «المراؤون» فيما هم عليه من استغلال حق اليتامى والأرامل والمقعدين:

«. . . ويل لكم لأنكم تأكلون بيوت الأرامل. . . ولعلة تطيلون صلواتكم».

وعند دعوى الدين والتعلق بالميراث المدعي من «هيكل» وأسلوب عبادة يكشف المسيح عليه السلام طبيعة النفاق الديني وعمل الكهانة الفارغة التي لا ترتبطبولاء أو إيمان لشيء بعينه أو لقداسة بذاتها، وإنما حسب المصلحة والهوى:

«أيها القادة العميان، القائلـون، من حلف بالهيكل فليس بشيء، ولـكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم».

ثم ساق المسيح تعاليمه التي تملأ النفس ثقة وأماناً ونقـاء وسط مناخ لا يعرف الصراع ولا الخلخلة الإجتماعية تناقضاً وتفاوتاً وامتيازاً، وإنما بمنهج يجعل من الصورة الإجتماعية للشكل العام للمجتمع من بعيد، ومن الخارج معقولاً ومقبولاً ومتقارباً ومتساوياً في الملامح والتـركيب، على أن لا تكون الحقيقـة الإجتماعية عنـد العامـة والجماهير هي الضياع والخراب والموت.

وبالمنهج الذي ارتضاه المعلم وجعله أداة للدعـوة وسـط مختلف أنـواع الصراع والتناقض، فإنه راح يضرب المثل ويتخذ من قوى التنـاقض أمامـه في الفـريسيين والكتبة، والذين يمثلون مظهرية الفراغ الإجتماعي بالأسلوب الـذي فرض الجـدب والقحط النفسي الذي ضيع الجماهير وأرهقها، وكانوا هم وراء هذا الضياع قال لهم:

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراؤون لأنكم تشبهون قبـوراً مبيضـة تظهر

من خارج جميلة وهي من داخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة»[1]، [2].

وبعد أن تأكد للسيد المسيح رغم نجاحه في استقطاب جموع المضيعين والمحرومين والمرضى والحزانى، أنه قد أصبح بالفعل أملهم وموئلهم، ينشدون الخلاص على يديه، ويطلبون الهداية من تعاليمه وآياته، قد قام ليسوق موقفاً عظيماً من مواقف تعاليمه وأفصح به عن الحقيقة التي قد جاء من أجلها حين كان السيد المسيح سلام الله عليه آخر مرحلة يمد فيها الرب هدايته في محاولة أخيرة للذين أفسدوا وكذبوا وطاردوا وقتلوا، كل دعوة للحق وللحياة من بني إسرائيل فكذبوه هو الآخر وطاردوه وقاوموه ورفضوه، فما كان منه عليه السلام إلا أن أعلن عن حقيقة نهاية النبوة والرسالة لجماعات اليهود ولبني إسرائيل، وفي بني إسرائيل حين قال فيما يرويه انجيل «متى» عندما ضرب لهم السيد المسيح مثالا لحالهم وتاريخهم المتمثل في رفضهم الهداية والتوجيه على يد رسل الله وأنبيائه، عندما كانوا يرفضونهم ويقاومونهم ويقتلونهم بحال رب بيت غرس كرماً، وأقام عليه مجموعة من العاملين، فاستغلوا الثمر والغرس وقتلوا وسرقوا ونهبوا ما ائتمنهم عليه صاحب الغرس، وكان كلما أرسل عماله الآخرين كي يأتوا إليه بريع الأرض والثمر، كانوا يطردون ويقتلون، فاضطر آخر الأمر أن يخرج العمال المخربين المناكفين السارقين القاتلين من الأرض ومن الغرس، كي يأتي بعمال آخرين يقدمون له ريع الأرض وثمر الغرس.

ويضرب السيد المسيح المثل فيقول:

«. . . كان إنسان رب بيت غرس كرماً، وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجاً، وسلمه إلى كرامين وسافر. ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين

(١) انجيل «متى» الاصحاح الثالث والعشرون: ٢٧.

(٢) انظر أيضاً (كتاب قطمارس الأناجيل). وهو كتاب يتضمن الفصول المقتطفة من الأناجيل المقدسة التي تيسر البحث العلمي في هذه القضية ـ قابله وحرره المونسنيور فرنسيس والقس باخوم حنا ـ طبع سنة ١٩٣٠م.

ليأخذوا أثمار ه، فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضاً، وقتلوا بعضاً ورجموا بعضاً، ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين، أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني، وأما الكرامون فلما رأوا الإبن قالوا فيا بينهم: هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه! فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه، فمتى جاء صاحب الكرم، ماذا يفعل بأولئك الكرامين، قالوا له: أولئك أردياء يهلكهم هلاكاً ردياً، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها، قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البناؤون هو قد صار رأس الزاوية من قبل الرب، كان هذا وهو عجيب في أعيننا لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره. ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه»(١).

وبهذا التصور العظيم الذي ساقه السيد المسيح وهو يقدم لقوى التناقض الإجتماعي اليهودية نهايتها التي كانت خاتمة لمرحلة طويلة لم يستطع فيها الإنسان الإسرائيلي أن يتجرد أو يتخلص من طرح الأنانية والجحود والكفران، ولم يتقبل فيها دعوة من دعوات الحق والعدل، بل كان أسلوب الوشاية والاستغلال والسيطرة والإستعلاء، هو أداة الذين يقدرون وأمل ومطمع الذين لا يقدرون، حتى إذا ما أتيح لهم أن يتمكنوا أو يقدروا كانوا كما ضرب لهم السيد المسيح المثل الذي كان فيه صاحب الكرم قد ائتمن مجموعة من الكرامين، فأكلوا الثمر وقتلوا الوارث، وأصبحت الضرورة بتغييرهم وإهلاكهم هي المخرج والخلاص.

وفي قول السيد المسيح: «إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطي لأمة تعمل أثماره» أكبر تأكيد بأن الميراث المدعى لبني إسرائيل في النبوة والهداية قد انتهى تماماً حين رفضت دعوة السيد المسيح وطوردت، ومن عند هذا الموقف العظيم الذي أعلن فيه السيد المسيح تجريد بني إسرائيل من كل ما يمكن أن يدعوه في مجال الدين أو التاريخ

---

(١) «انجيل متى»: الاصحاح الحادي والعشرون: ٢٣ ـ ٤٤.

قطعت الروابط الدينية لبني اسرائيل بالوحي الإلهي تماماً. وإن الأمة التي تعطي ملكوت الله لتعمل أثماره هي من غير جدال الأمة الإسلامية التي أنشأها الخاتم محمد ﷺ، والتي منَّ الله بها على الإنسانية من خلال هذا القرآن العظيم، الذي جاء تبياناً لكل شيء وهدى وموعظة للمتقين.

القرآن يحمي السيد المسيح من تهمة التاريخ اليهودي:

بعد أن قاوم اليهود السيد المسيح ورفضوا دعوته وطاردوه، وتآمروا مع السلطات الرومانية ضده، جهروا بالنهاية الأثيمة التي تباهوا بها وظنوها قد وقعت على نبي الله الذي كرمه الله سبحانه بعدم الوقوع في يد أعدائه وأعلنوا أنهم في انتظار المسيح الحقيقي الذي يقيم لهم الملك والسلطان، ولو بأسلوب القهر والعدوان.

وفي مراحل الدعوة المسيحية والسيد المسيح يقود جهادها بعد نجاحات معقولة، أدرك أن تياراً خفياً يعمل ضد ما يقرره السيد المسيح ويريد أن يقيم ملكوته على هديه، وحين تأكد من كفر هذا التيار احتمى بعناصر المؤمنين ليرفض بهم الكافرين، ولما ترتب على هذه المقدمات من نتائج قد تهز من إيمان المؤمنين بعيسى بن مريم إبان عصر الميلاد، صمد لها المؤمنون واحتملوا المشاق جاء القرآن الكريم وكشف القناع عن طبيعة المرحلة وبارك إيمان المؤمنين.

يقول رب العزة في سورة آل عمران الآيات ٥٢ ـ ٥٦:

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ، رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ، وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ، إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ ثُمَّ إِلَيَّ

مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

فالقرآن الكريم هنا يقرر نجاحات للسيد المسيح ووجود عناصر مؤمنة له من الذين فقدوا آدميتهم، وكانوا خرافاً ضالة فاستأنسهم السيد المسيح وأعاد إليهم آدميتهم.

والقرآن هنا يقرر أن اليهود قد أخذوا من السيد المسيح موقف مكر:

﴿ وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾.

والقرآن هنا يقرر ان السيد المسيح لم يقع في أيدي اعدائه، ولم يمثلوا به ولم تشف نهايته مر كيدهم وحقيقة عدوانهم، لأن قرائن كثيرة من المعجزات وحقائق الموقف كانت تشير إلى عدم النهاية المدعاة، فضلاً عما قرره القرآن الكريم في عصر البعثة المحمدية، حين تنزل على قلب محمد ﷺ لينفي عن السيد المسيح إثم هذه النهاية:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾.

والقرآن هنا يقرر عقاب الله سبحانه لهؤلاء الكافرين، الذين كفروا بدعوة السيد المسيح وتآمروا على دعوته:

﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَاباً شَدِيداً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾.

وكان ضرورياً وقد تعرض اليهود لأم السيد المسيح بالأذى والإتهام الفاحش بينما هي الطاهرة المصطفاة، والمختارة المنتقاة أن يقص القرآن أخبار الإتهام ليدحضه،

ويقيم الدليل ضده لتعود في العالمين سيرة البتول أم النبي طاهرة عفة نقية مثلما كانت. بل إن القرآن الكريم ليضع السيدة مريم في مقام من الطهر عظيم للغاية، بحيث لا يجرؤ فكر جاحد ولا زيف معتقد أن يقترب من هذا النقاء ليلوثه.

يقص الله سبحانه الدروس ويستنطق له الماضي المجهول ليكون خبر القرآن هو الحكم النهائي والفيصل القاطع في قضايا كتلك، فيقول لنبيه محمدﷺ عن مثل هذه المراحل وقضاياها المعقدة والغامضة:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾. (يوسف/١٠٢).

ثم تكشف آيات آل عمران حقيقة الحال الذي كانت عليه السيدة البتول قبيل ميلاد السيد المسيح وبعده فتقول الآيات ٤٥ ـ ٥١:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ، وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ، قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ، وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَاةَ وَٱلْإِنْجِيلَ، وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَاءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِئَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّيٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرَاۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحيي ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، وَمُصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ

لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونَ، إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾.

وفي هذه الآية تتقرر حقائق عقيدة إيمان كبرى قوامها: إن طبيعة وجود السيد المسيح بشارة من الله، وأنه وجيه في الدنيا والآخرة، وأنه يعلم الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، ورسولاً من الله إلى بني إسرائيل، وأنه يبرّىء الأكمة والأبرص ويحي الموتى يخلق من الطين على هيئة الطير فتكون طيراً، وكل ذلك يتم بإذن الله وتقرر هذه الآيات الكريمة أن السيد المسيح وكل ما يمثله كلمة من الله سبحانه ألقاها إلى مريم، ومن ثم فإن القرآن الكريم بمقتضى هذه المعاني الكريمة، والتي صدرها بقول الله تعالى لنبيه الخاتم:

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ ﴾.

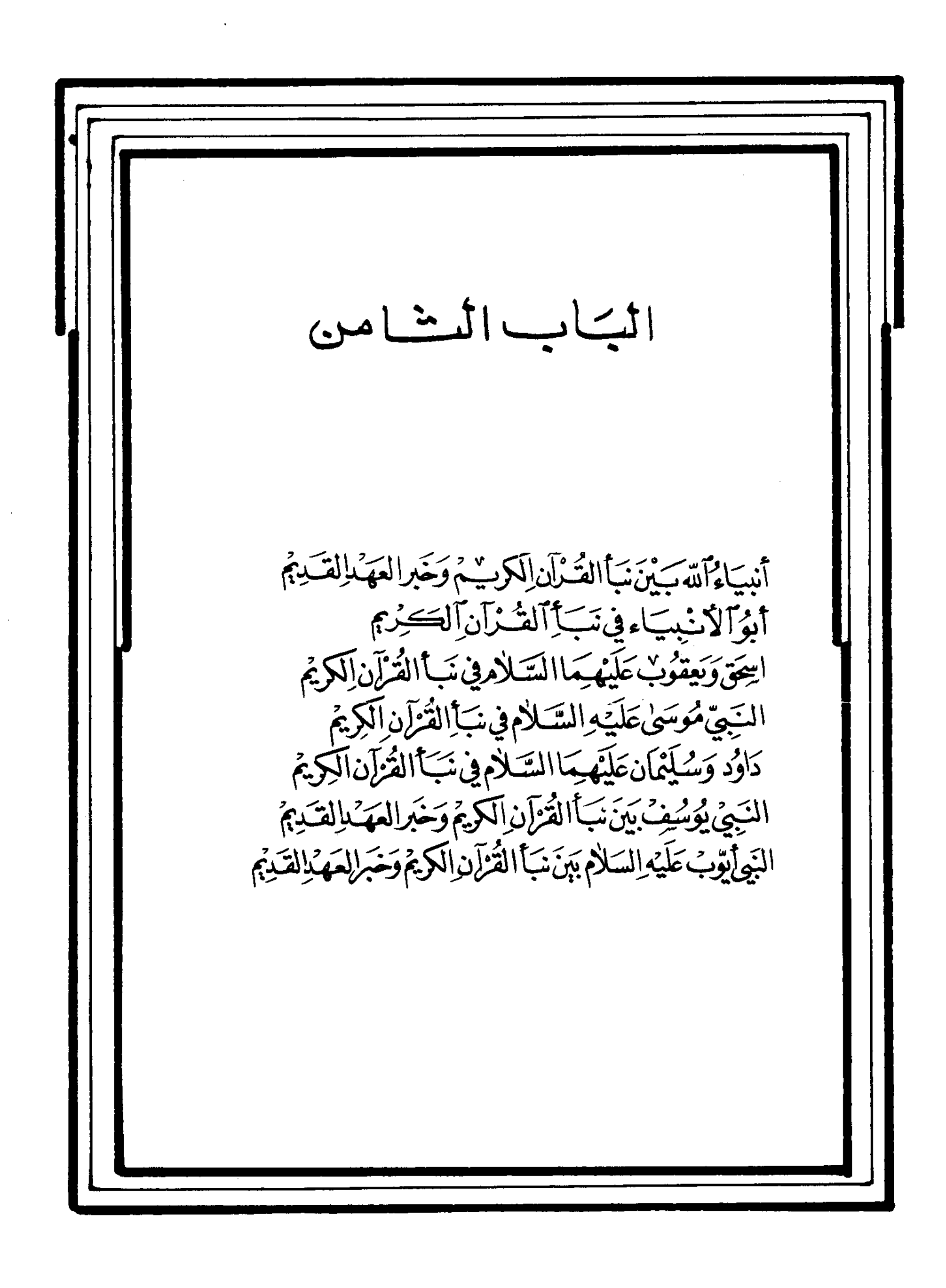
قد طهر السيدة مريم من كل ما شاب سيرتها في التاريخ اليهودي وحماها من الإثم الذي حاولت المذاهب اليهودية القديمة والحديثة أن تلحقه بها وفي تقرير قيمتها الحقيقية تجيء هذه الآيات الخالدة إلى ما شاء الله وتتحدث عن أنعم الله على والدة السيد المسيح عيسى بن مريم، تقول الآية رقم ٤٢ من سورة آل عمران:

﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

والمعنى المباشر الذي توحيه الآية الكريمة أن السيدة مريم في علم الله ومشيئته أصلاً مصطفاة، ثم طهرها الله من كل ما أعد اليهود وخططوا ضدها ثم اصطفاها على نساء العالمين.

وبهذا فإن القرآن الكريم يكون قد حسم قضية حمايته للسيد المسيح وأمه عليهما السلام، فضلاً عن تقديسهما وتكريمهما والثناء عليهما، ورفض كل تهـم التـاريخ اليهودي الموجهة إليهما.

* * *



الباب الثامن

أنبياء الله بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم
أبو الأنبياء في نبأ القرآن الكريم
إسحق ويعقوب عليهما السلام في نبأ القرآن الكريم
النبي موسى عليه السلام في نبأ القرآن الكريم
داود وسليمان عليهما السلام في نبأ القرآن الكريم
النبي يوسف بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم
النبي أيوب عليه السلام بين نبأ القرآن الكريم وخبر العهد القديم

النبيّ إبراهيم عليه السّلام في نبأ القرآن الكريم

قبل أن يذكر القرآن الكريم نداء الله تعالى لبني إسرائيل أن يذكروا أنعم الله عليهم، وأن يتقوا ويخشوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً في قوله تعالى:

﴿ يَـٰبَنِيٓ إِسْرَاءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ، وَٱتَّقُواْ يَوْماً لَّا تَجْزِي نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئاً وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَـٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ كان الذكر الحكيم قد قص من سيرة أبي الأنبياء عليه السلام أن الله سبحانه ابتلاه أي كلفه بأمور كان فيها ابراهيم عليه السلام نعم العبد الذي أوفى لربه ما ابتلاه به أو وكله إليه يقول عنه رب العزة ﴿ وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ ﴾ بعد أن ذكر سبحانه أنه ابتلاه بكلمات فقال تعالى في شأنها: ﴿ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1]. وفي هذه الآية كما يقول الإمام البيضاوي في كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) إجابة إلى ملتمس إبراهيم ونبيه على أنه قد يكون من ذريته ظلمة وانهم لا ينالون الإمامة لأنها أمانة من الله تعالى وعهد، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة الأتقياء منهم. وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبائر قبل البعثة وأن الفاسق لا يصلح للأمانة..)[2].

(١: سورة البقرة: الآية ١٢٤.

(٢) «أنوار التنزيل وأسرار التأويل»: ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي. دار الجيل بيروت المجلد الأول ص ١٨٧.

وعند هذه البداية القرآنية المتعلقة بأبي الأنبياء عليه السلام يشير القرآن الكريم بعد ذلك إلى رحلة الحجاز التي قام بها ورفع القواعد من بيت الله الحرام أثناءها هذه الرحلة المهمة جداً في حياة أبي الأنبياء لأنها متعلقة ببناء بيت تقوم العقيدة فيه على التوحيد لله رب العالمين ،قد أهملها كما رأينا كتّاب العهد القديم ولم يذكروها مع أنهم قد تناولوا أموراً كثيرة مفتراة على أبي الأنبياء بشيء من التفصيل، ورب العزة يقول هنا في محكم التنزيل:

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْناً وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ وعند قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ فيه دلالة مباشرة وصريحة على الأثر الديني الذي تركه إبراهيم حول بيت الله الحرام والخطاب في قوله تعالى ﴿ وَٱتَّخِذُواْ ﴾ لأمة محمد ﷺ وهو أمر استحباب ومقام ابراهيم هو الحجر الذي فيه أثر قدمه أو الموضع الذي كان فيه الحجر حين قام عليه ودعا الناس إلى الحج أو رفع بناء الحج بالحجر وهو موضعه اليوم. وفي هذا روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر رضي الله عنه وقال هذا مقام إبراهيم ولما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى ركعتين خلفه وقرأ قوله تعالى: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾.

هذا.. ويؤكد القرآن الكريم صلة أبي الأنبياء عليه السلام بأرض الحجاز في جزيرة العرب ومن قلب مكة حين ابتنى بيتا لله ودعا ربه فيما قال عنه ربه في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَداً ءَامِناً وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلأَخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾[2]. ثم يؤكد القرآن الكريم خبر رحلة الحجاز التي توجه فيها إبراهيم إلى مكة وقيامه ببناء بيت الله الحرام ورفعه القواعد من البيت يعاونه في ذلك ابنه إسماعيل الذي أغفل العهد القديم سيرته وسيرة أبنائه ولم يشر إلى رحلته مع أبيه إلى مكة وذلك في

(١) سوره البقره: الآيه ١٢٤.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٢٦.

قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[1] ويحسم القرآن الكريم قضية حقيقية انتماء إبراهيم. وأنه في مجال النبوة ووظيفة الرسالة الدينية من قبل الله بين الناس، كان مسلماً ولم يكن من المشركين وفي مجال رده على مفتريات التوراة والإنجيل بعد تحريفهما وإلباس الحق بالباطل فيهما، كما هو الحال في سيرته عليه السلام بين أسفار التراث الإسرائيلي في العهد القديم يدحضّ القرآن الكريم هذه المفتريات وفي أدب بليغ يتفق وعصمة الوحي الإلّهي في كتاب الله حتى مع خصوم الحق يقول رب العزة في سورة آل عمران: ﴿ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبْرَاهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَاةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ، هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ، مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[2].

ثم يتابع القرآن الكريم هذا القول الفصل في حقيقة انتماء ابراهيم إلى دين الله الحق وأنه بهذا الدين الحق لا تصبح دعوته ميراثاً عنصرياً يتداوله الأبناء عن الأباء[3] حتى ولو تجاوزا في ذلك كل ضوابط الإيمان التي تحدد صلة العبد بربه، في منهج يقوم على الحق والخير والأمن بل يقرر القرآن أن الجدير بالميراث وبدعوى علاقته بإبراهيم هم الذين آمنوا بما كان عليه إبراهيم من دين الحق وذلك من خلال الإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام. يقول رب العزة في سورة (آل عمران) بعد أن زفض محاجة اليهود في إبراهيم ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (سورة آل عمران الآية/٦٨).

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٢٧.

(٢) سورة آل عمران: الآيات ٦٥ ـ ٦٧.

(٣) « الدكتور محمد سيد طنطاوي في كتابه (بنو اسرائيل في القرآن والسنة، الجزء الأول الطبعة الأولى عام ١٩٦٨ ص ٢٠٣).

هذا . . ويقرر القرآن الكريم أن دين إبراهيم عليه السلام يقوم على الإسلام والإحسان بالله ، وهو دين بلغ فيه إبراهيم في علاقته بالله أن جعله الله سبحانه وتعالى في مقام التكريم له والنعمة عليه خليلاً له وساق ذلك في عبارة للناس دونها كل أساليب التكريم والنعم التي أسبغها الله على عباده. يقول تعالى في سورة النساء ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً ﴾ .

واتخذ الله ابراهيم خليلاً فهو هنا مسلم وجهه لله ومحسن وخليل لله، وليس كما صورته سفر العهد القديم بالصورة التي أنهاها إلينا كتّاب التراث الإسرائيلي والتي تتمثل في رجل يخاف الموت في رحلاته ويخشى مغبة مواقف الرجال، ويترك زوجته لرجل هنا ورجل هناك ولكنه هنا نبي أنبأه الله وشرفه بمسؤ ولية النبوة يملك القدرة التي بها يستطيع أن يحاج خصومه من خلال عصمة النبوة التي منحها الله له، وفي مقام تناول الذكر الحكيم لسيرة أبي الأنبياء يرينا إياه في أمسه ويومه وغده. فبالأمس القريب الذي كان في حياة أبي الأنبياء حين ابتدأت الدعوة الى الله بين قومه وحين رفضوا الهداية حاجهم ببراهين الله وآياته ودلالته في الكون، وسجلها الله تعالى لإبراهيم معياراً في التعرف عليه وبأنه عليه السلام كان يملك الحجة ويجابه المواقف ولا يهرب في وجهه الصعاب. يقول تعالى في سورة الأنعام ٨٣:

﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ .

ولما لم يكن كما أخبر القرآن الكريم والد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وفياً مع ابنه، كان إبراهيم في دين الله شجاعاً تبرأ من أبيه، ولم يعرف في ذلك ضعفاً أو خوراً، يقول رب العزة في سورة التوبة : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ .

وقد فعل إبراهيم عليه السلام ما فعله مع أبيه لأنه كان صديقاً نبياً، لا يعرف الكذب ولا المراوغة أياً كانت المواقف التي تقتضي ذلك كما حاول كاتب العهد

القديم أن يزيفها على أبي الأنبياء ولذا يسجل رب العزة في كتابه الكريم عن إبراهيم عليه السلام هذه الصفة الكريمة التي تتفق وجلال النبوة، وكأنه سبحانه يرد بها من نسبوا إليه ﷺ غير ذلك من المفتريات حيث يقول رب العزة في سورة النجم: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰ﴾ وحيث يقول سبحانه في سورة مريم: ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَّبِيًّا ﴾ ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً﴾. (الآيات/ ٤١ ـ ٤٢).

ولقد كان نبي الله عليه السلام مع قومه ومع آبيه في غاية الحسم بلغ رسالة ربه رافضاً كل دروب العبادة الوثنية التي كانت سائدة في عصره وتحدى أمة في عقيدتها التي كانت عليها بعيدة عن رب العالمين. ولم يخش في الله لومة لائم بل كان نبياً شجاعاً جابه كل المحن والصعوبات التي اعترضت طريقه وهو رابط الجأش قوي العزيمة ولم يكن كما حاول كاتب سفر التكوين الذي لم ير نبي الله إلا في مواقف متخاذلة غير صادقة يستحيل على نبي يبلغ عن ربه أن يقفها مع خصومه أو أن يقع فيها، يكشف رب العزة في سورة الأنعام وهو يبرز شجاعة وصدق ذلك النبي العظيم ليرد بهذه القوة على كل جوانب الخطيئة والإثم والمعصية التي لم ير كاتب العهد القديم إلا أن يلصقها بأبي الأنبياء:

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً ءَالِهَـةً إِنِّيٓ أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾.

وحين حاجه قومه قال لهم كما عبر رب العزة عنه مؤكداً شجاعته وجرأته في سبيل دعوة الله المعاني المفتقدة تماماً بين سياق أخبار العهد القديم وهو يتناول سيرة أبي الأنبياء يقول عنه رب العالمين في سورة الأنعام ﴿ وَحَآجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي

---

(١) سورة الأنعام: الاية ٧٤.

﴿كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[1]. وهذا الموقف الشجاع الأبي يقتضي أن يكون إبراهيم عليه السلام قد منح من ربه كل الصلاحيات وزود بالإستعدادات التي يجابه بها عقلاً وروحاً وديناً كل ما يمكن من ردود الأفعال ضده، ولذا فرب العالمين يقول عنه في سورة الأنبياء:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ وَكُنَّا بِهِ عَـٰلِمِينَ، إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَـٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَـٰكِفُونَ، قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَـٰبِدِينَ، قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِي ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

هذا ويذكر القرآن الكريم أن نبي الله بعد أن دخل في تلك المحاجة مع قومه تهددهم وتوعدهم وقال لهم كما قال رب العزة في سورة الأنبياء: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُمْ بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ، فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً إِلَّا كَبِيراً لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[3]. هذا هو نبي الله في بعض ملامحه المشرقة والمضيئة التي أنراها الإسلام بعد أن كانت سيرة نبي الله قد علاها تراكم الإثم الذي حمله كتاب العهد القديم على أكتافهم وخلعوه على نبي الله عليه السلام.

هذا... وأمر أنبياء الله في القرآن هو بذلك المعيار الكريم الذي تناول به سيرة أبي الأنبياء عليه السلام.

كذلك أمر أبناء إبراهيم في القرآن الكريم هو مثل أمره عليه السلام، فبعد أن دنس سيرتهم كاتب العهد القديم حين تناول سيرتهم بكل صور الإثم والمفاسد التي

---

(١) سورة الانعام: الآية ٨٠.

(٢) سورة الأنبياء: الآيات ٥١ ـ ٥٤.

(٣) سورة الأنبياء: الآية ٥٨.

وقع فيها الشعب الإسرائيلي في مراحل سبيه وأسره، ثم راح الكتاب والقصاص الذين دونوا أسفار العهد القديم يخلعون هذه المآثم والمفاسد على انبياء الله على أمل منهم أن يجد الشعب الذي قطع بالخطيئة كل صلة له بربه في نماذج الخطيئة التي أمامه والمنسوبة إلى أنبياء الله في العهد القديم، أملاً له ومنفذاً بعد أن ملأه اليأس بسبب الموبقات والمخازي التي قطعوا بسببها كل صلة لهم بربهم.

رب العزة في القرآن الكريم ينكر عليهم بعد أن وقعوا فيما وقعوا فيه وبعد أن فقدوا كل صلة لهم بربهم أن يدعوا أنهم على علاقة بدين إبراهيم وأبنائه، أو أنهم بمثابة أهلهم وأبنائهم أصحاب ميراثهم فيما يقولونه وفيما يدعونه عن هذا من ظلم وأثم وعدوان وخطيئة سجلوها على أنفسهم في تراث دينهم وتاريخهم في كتب العهد القديم.

يقول رب العزة في سورة البقرة[1]:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾.

هذا ويطالبهم القرآن الكريم بأن يؤمنوا بما أنزل على إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط فيقول تعالى في سورة البقرة: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[2]. فهؤلاء الكرام على الله وعلى الناس اصطفى الله سبحانه لهم دينه،

---

(١) سورة البقرة: الآية ١٤٠.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

فكانوا على هدى ونور وخير وبر ورحمة كما قال في شأنهم رب العزة في سورة البقرة:
﴿ **وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾[1]. وحين كانوا يغالطون ويراوغون في حقيقة ما يجب أن يكونوا عليه اتباعاً وانتماءاً لهؤلاء الأنبياء الكرام ويريدون أن يكونوا يهوداً أو نصارى على ضوء ما انتهوا إليه من يهودية اليهود ونصرانية النصارى المتمثلة في ما يسمى بالكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد رب العزة يخبر الناس جميعاً في محكم آياته أن منحاهم هذا ومنهجهم المدعي لم يكن فيما زعموه خالصاً لله رب العالمين ولم يستهدف به إيماناً أو حقاً أو عدلاً. يقول رب العزة في سورة البقرة/ ١٣٥:

﴿ **وَقَالُواْ كُونُواْ هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُواْ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾. ويبرهن القرآن الكريم على أن من أسباب انحرافهم عن ملة ابراهيم هو أنهم لم يكونوا على دين إبراهيم بل أرادوا ظلماً وبغياً أن يجعلوا من إبراهيم يهودياً أو نصرانياً بالمفاهيم والمعايير التي انتهوا إليهاوما كان عليه السلام يهودياً ولا نصرانياً بالرؤية التي رأوها ولا بالعقيدة التي انتهوا إليها، يقول تعالى في سورة آل عمران عن ملة إبراهيم بأنه:

﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾. (سورة آل عمران الآية/٦٧).

هذا وقد رأينا في سيرة أبي الأنبياء في العهد القديم ما يتنافى وحقيقة النبوة الإلهية التي يخلعها الله على عبد من خلقه ليكون على بينة من أمره على وفق ما يوجهه ربه إليه من أجل تنظيم علاقة الناس وتحقيق معاني الخير والأمن في ظل عقيدة الايمان بالله رب العالمين. رأينا في سيرة أبي الأنبياء على ضوء نهج كتاب العهد القديم ذلك الإثم المفتري والذي تمثل في الفكر الوثني الذي ساقوه عن الملكين الذين حضرا إليه وأكلا طعامه واغتسلا واستراحا وكان ثالثهم رب إسرائيل فيما قص

(١) سورة البقرة: الآية ١٣٢.

سفر التكوين مما تعرضنا به بالدراسة والنقد[1] ونستغفر الله مما قصه سفر التكوين، لكننا نحب أن نشير هنا إلى ما أخبر به رب العزة عن رسل الله من الملائكة الذين جاؤوا إلى عبده إبراهيم ببشارة من الله وتكليف منه لعبده النبي ورب العزة سبحانه يذكر في سورة هود ومن الآيات رقم ٦٩ - ٧٦ هذه الواقعة التي تغاير تماماً وتتناقض مع الخبر المفتري في سفر العهد القديم عن الملكين ورب إسرائيل وليست كما حاول كتّاب وشراح العهد القديم أن يصوروها استطراداً لما جاء سابقاً في أسفار العهد القديم. ومن هنا فيجدر بنا أن نشير إلى هذه الواقعة بعد أن نتناول نص القرآن الكريم لها فيقول رب العزة في سورة هود.

﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُواْ سَلَٰماً قَالَ سَلَٰمٌ فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ، فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ، وَٱمْرَأَتُهُ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ، قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ، قَالُوٓاْ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ، فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ، يَٰٓإِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴾[2].

يقول بعض علماء الإسلام عند تفسير هذه الآية وعلى غير ما يفعل علماء اللاهوت حين يتأولون النصوص ويفسدون المعاني ويأتون بمفاهيم ودلالات لا علاقة أو قرينة بينها وبين النصوص التي هم بصددها عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَتْ

(١) في كتابنا التراث الإسرائيلي في العهد القديم وموقف القرآن الكريم منه.

(٢) سورة هود: الآيات ٦٩ - ٧٦.

رُسُلُنَآ إِبْرَاهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ. . . ﴾ الآيات[1]. رسلنا هم الملائكة الذين يرسلهم الله في هيئات وصور مختلفة لأنبيائه، وقد جاؤوا ليبشروا ابراهيم باسحق، أو باهلاك قوم لوط وإن كان احتمال البشارة باسحق أقوى. ويستشهدون بذلك بقوله تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَـٰدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴾.

فتعجل النبي إبراهيم عليه السلام وأسرع باحضار عجل حنيذ، وهو فتى البقر شوى على الحجارة المحماة وهذا ما روى عن ابن عباس وقتادة ﴿ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ فقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ ولما لم يأكلوا! ﴿ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ﴾ وذلك لأن الملائكة رسل الله إلى أنبيائه في لغة القرآن وبيانه ليس عندهم أزمة طعام ولا يحتاجون إلى أكل وشرب وغسل أيد وأرجل كما تخيل كاتب سفر التكوين حين أطعم ضيوف إبراهيم غافلاً عن زعمه الوثني أن بينهما الرب: رب إسرائيل في العهد القديم الذي يتحدث عنه كاتب السفر. . . أما هنا في محكم الذكر فإن ملائكة الله لم يأكلوا ولذا فقد أوجس إبراهيم منهم خيفة لكنه هناك يرينا كاتب سفر التكوين سارة زوجة إبراهيم وقد ضحكت في نفسها من أمر هؤلاء الذين قامت هي وزوجها على خدمتهم ومع ذلك فإن لغة القرآن الكريم تختلف تماماً عما ساقه كاتب سفر التكوين وقصه، ولقد أوجس إبراهيم عليه السلام منهم خيفة بينما ضحكت سارة مستغربة بسبب عدم إقبالهم على الأكل أو لأنهم لم يأكلوا أو لأن الله بشرها على يد زوجها النبي إبراهيم عليه السلام بأنها ستلد ابنا ويدعى اسحق[2] وتفترق لغة القرآن الكريم تماماً وتختلف عن منهج كاتب سفر التكوين في هذه الواقعة فقد صور كاتب العهد القديم امرأة إبراهيم وهي تقف وراء الخيمة تنصت وتتسمع الملائكة الذين معهم رب إسرائيل في حديثهم مع إبراهيم كما زعم كاتب السفر الوثني.

---

(١) «الامام الجليل الحافظ عماد الدين أبي الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤. في كتابه (تفسير القرآن العظيم) الجزء الثالث صفحة ٥٦٣ طبعة دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت الطبعة الثانية عام ١٩٧٠».

(٢) المصدر السابق ـ جزء ٣ صفحة ٥٦٣.

أما هنا فإن القرآن الكريم يستحضر الواقعة في معانيها الرفيعة المتآبية على الأشكال والرموز والبعيدة عن كل ما هو متصل بالفكر الوثني أو يرمز إليه، يرفع القرآن الكريم هنا معاني النبوة والرسالة والرسل إلى المستوى اللائق بمعطيات الوحي الإلهي في تنزهه عن العبادات الوثنية وطقوس الشعائر والقرابين القائمة على التجسيد والوثن والصنم.

إن سورة الذاريات حين تعرض بعض آياتها الكريمة لواقعة الرسل من الملائكة الذين قدموا إلى إبراهيم عليه السلام على هيئة ضيوف تحس وأنت أمام الآيات الكريمة بوقع المشهد محدد المعالم محسوب البداية والنهاية وذلك حين يخاطب الله تعالى نبيه الحبيب الخاتم ويقول له: ﴿ هَلْ أَتَـٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ، إِذْ دَخَلُواْ عَلَيْهِ فَقَالُواْ سَلَـٰماً قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ، فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ، فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ، فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُواْ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴾. وأمام هذا الحسم القرآني في الحفاظ على كل فعل يصدر عن نبي الله ابراهيم، فانه كان من بين دلائل النبوة على يديه ومن بين مظاهر وبصيرة الإيمان في قلبه أنه أدرك انه امام رسل من الله فقد جاءت تتمة الآيات الكريمة بالنهج الذي عرضه القرآن وبلغته وعطائه في هذه الواقعة أن قال النبي ابراهيم كما عبر عنه ربه في نفس السورة وبين وحدة السياق الذي يقصه رب العزة: ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ، قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴾.

ونحب هنا أن نشير إلى موقف تناوله القرآن الكريم في معرض هاتين الآيتين الكريمتين اللتين أفصحتا عن أحد دلائل ومظاهر النبوة على يد أبي الأنبياء وهذا الموقف هو مواجهة النبي لوط عليه السلام لقومه، فقد سبق لكتاب التراث

---

(١) سورة الذرايات ـ الآيات ٢٤ ـ ٢٨.

(٢) سورة الذرايات: الآيات ٣١ ـ ٣٢.

الاسرائيلي وهم يشرحون الظروف التي كانت قبيل هدم قرية (سدوم) التي كفر أهلها وعصوا الله ولم يتبعوا نبيهم ولذا فقد حق على أهلها عقاب الله أنهم دونوا على نبي الله لوطا عليه السلام إثماً وظلماً أنه عرض عليهم ابنتيه ليفعلوا بهما ما يشاؤون، ونحن نرفض سيرة النبي لوط عليه السلام في التراث الإسرائيلي في ضوء معطيات أسفار العهد القديم اعتماداً على ضوء معايير وضوابط النبوة الإلهية كما نرفض موقف الكفر الذي نسبه كاتب الأسفار في التكوين إلى نبي الله لوط مع إبنتيه ونحب هنا في معرض الرد على مفتريات كتاب العهد القديم أن نشير إلى ما تناوله أحد علماء الإسلام عند فهمهم وشرحهم للآيات الكريمة التي جاءت في سورة هود ٧٧ ـ ٧٩ والتي يقول رب العالمين:

﴿ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطاً سِيٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ وَجَآءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ، قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾[1].

يقول الإمام ابن كثير في تفسيره يخبر الله تعالى عن قدوم رسله من الملائكة بعدما أعلموا إبراهيم باهلاكهم وفارقوه وأخبروه بإهلاك الله قوم لوط هذه الليلة فانطلقوا من عنده فآتوا لوطاً عليه السلام وهو على ما قيل في أرض له، وقيل في منزله، وردوا عليه في أجمل صورة تكون على هيئة شبان حسان الوجوه ابتلاء من الله، وله الحكمة والحجة البالغة فساءه شأنهم وضاقت نفسه بسببهم وخشي أن لم يضيفهم أحد من قومه فينالهم سوء وقال (هذا يوم عصيب) قال ابن عباس وغير واحد شديد

---

(١) سورة هود: الآيات ٧٧ ـ ٧٩.

بلاؤه وذلك أنه علم أنه سيدافع عنهم، ويشق عليهم ذلك وذكر قتادة أنهم أتوه وهو في أرض له فتضيفوه فاستحيا منهم. فانطلق أمامهم وقال لهم في أثناء الطريق كالمعرض لهم بأن ينصرفوا عنه: إنه والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء ثم مشى قليلاً ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات قال قتادة وقد كانوا أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد نبيهم عليهم بذلك.

وقال السدي خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قرية لوط فبلغوا نهر سدوم نصف النهار، ولقوا بنت لوط تستقي فقالوا يا جارية هل من منزل فقالت مكانكم حتى آتيكم وفرقت عليهم قومها فأتت أباها فقالت يا أبتاه أدرك فتيانا على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم أحسن منهم، لا يأخذهم قومك، وكان قومك نهوه أن يضيف رجلاً فقالوا خل عنا فلنضيف الرجال، فجاء بهم فلم يعلم بهم أحد إلا أهل بيته، فخرجت امرأته فأخبرت قومها فجاؤوا يهرعون إليه وقوله ﴿ **يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ** ﴾ أي يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك وقوله: ﴿ **وَمِن قَبْلُ كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّئَاتِ** ﴾ أي لم يزل هذا من سجيتهم حتى أخذوا وهم على ذلك الحال، بقوله ﴿ **قَالَ يَـٰقَوْمِ هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾ يرشدهم إلى نسائهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم الى ما هو أنفع لهم في الدنيا والآخرة كما قال لهم فى الآية الأخرى ﴿ **أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ** ﴾ وقوله في الآية الأخرى: ﴿ **قَالُواْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ** ﴾ لأي ألم ننهك عن ضيافة الرجال، قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون وقال في هذه الآية ﴿ **هَـٰؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ** ﴾ قال مجاهد لم يكن بناته ولكن كن من أمته، وكل نبي أبو أمته وكذا روى عن قتادة وغير واحد وقال ابن جريج أمرهم أن يتزوجوا النساء لم يعرض سفاحاً، وقال سعيد بن جبير: يعني نساؤهم هن بناته وهو أب لهن، ويقال في بعض القراءات النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم، وكذا روى عن الربيع بن أنس وقتادة والسدى ومحمد ابن إسحٰق وغيرهم قوله: ﴿ **فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا**

تُخْزُونِ فِي ضَيْفِيٓ ﴾ أي أقبلوا ما أمركم به من الإقتصار على نسائكم ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ أي فيه خير يقبل ما أمره ويترك وما أنهاه عنه: ﴿ قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَالَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ ﴾ أي إنك لتعلم أن نساءك لا أرب لنا فيهن ولا نشتهيهن ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أي ليس لنا غرض إلّا في الذكور وأنت تعلم ذلك، فأي حاجة في تكرار القول علينا في ذلك قال السدى ﴿ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ أي نريد الرجال. انتهى.

وأمام هذه المحنة الشديدة التي اختبر فيها نبي كريم على الله كلوط عليه السلام تصرف كما عبر عنه رب العزة في القرآن الكريم، لا كما نسخ الآثمون من كتاب وقصّاص **ونساخ أسفار العهد القديم حين قبحوا فعال الرجل وجعلوه يعرض بناته سفاحا، ولما لم يستجب الشعب المنحرف من أهل سدوم لدعوة الله على لسان لوط كان عون الله بأن دمر له** القرية **ثم وقف لوط عليه السلام شاكراً لله على نعمه وليس كما حاول الكاتب الآثم أن يستبدل موقف الشكر والعرفان من النبي لربه بعد برهانه في اهلاك القرية الكافرة بذلك الموقف** الآثم **الذي يدعي فيه الكاتب بأن الرجل تم** إسكاره **بواسطة ابنتيه ثم اضطجعت الواحدة بعد الأخرى من أبيها وحملت منه سفاحاً. إن لغة القرآن الطاهرة النقية النظيفة لا تعرف شيئاً من هذا القبح ولا تقر هذه الخطيئة وأمثالها بحكم أن أنبياء الله بعصمة النبوة لهم لا يقعون في الكبائر لا قبل النبوة أو بعدها، ولذا فإن الزيف الذي نسبه كاتب الأسفار في هذه الواقعة بالذات نظراً لامتهانه الشهيد، لم يعرض له القرآن أصلاً ولم يتناوله بحكم استحالة أن يقع** نبي الله في مثل هذه المآثم والموبقات، وإنما يعرض القرآن الكريم في جملة ما يعرضه في د-وس التاريخ أو سير الأنبياء لما يربي النفوس ويهذب السلوك ويعطي القدوة، والنبي لوط عليه السلام في هذه المحنة التي ابتلاه الله بها يصمد بإباء النبوة وطهرها في واجهة الشدة التي وضعه قومه فيها حتى يجيء عون الله ومدده، فيقول كما عبر عنه رب العزة في سورة هود وهو يقص على خلقه عبره وعظة، باقي صور المشهد الذي

كان فيه نبي الله لوطا نعم النبي.

﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ، قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾.

يقول الإمام ابن كثير عند شرحه لهذه الآيات: يقول تعالى معبراً عن نبيه لوط عليه السلام أن لوطاً توعدهم بقوله ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ الآية أي لكنت نكلت بكم وفعلت بكم الأفاعيل بنفسي وعشيرتي، ولهذا ورد في الحديث عن طريق محمد بن عمرو ابن علقمة عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال رحمة الله على لوط لقد كان يأوي إلى ركن شديد يعني الله عز وجل، فما بعث الله بعده من نبي إلا في ثروة من قومه، فعند ذلك أخبرته الملائكة أنهم رسل الله إليه وأنه لا وصول لهم إليه ﴿ قَالُواْ يَـٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ ﴾ وأمروه أن يسري بأهله من آخر الليل وأن يتبع أدبارهم، أي يكون ساقه لأهله ﴿ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ أي إذا سمعت ما نزل بهم لا تهولنكم تلك الأصوات المزعجة ولكن استمروا ذاهبين ﴿ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ﴾ فإنه مصيبها ما أصابهم. . وأمام هذا العطاء الكريم في سياق النصوص القرآنية ودلالتها في الآيات التي روت وقائع النبي لوط وقومه وأهله وعشيرته عليه السلام، هل يستطيع عقل مهما بلغت قدرته على التأويل أو مهما اشتد بإنسان الهوى الجامح أن يجد ثغرة هنا أي ثغرة تجرح قواعد النبوة أو تخرج بها عن ضوابطها وقواعدها أو تسيء إليها حتى في منهج العلماء المسلمين الذين تناولوا النص بالشرح والتأويل، يبرز من بين حديثهم مناخ الطهر والقداسة التي تحيط وتشع من النص الكريم، نعتقد وباليقين أنه أمام نص القرآن الكريم لا يستطيع عقل أن يتأول حتى يخرج من هذه الوقائع بأدنى أثر من خطيئة أو معصية تنسب إلى واحد من أنبياء الله كما حاول كتّاب العهد القديم أن يفعلوه ويشوهوا صورة نبي الله لوط كما فعلوا مع إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

هذا . . ونحب أن نعود مرة ثانية بعد أن دفعنا الحديث الذي جاء عن لوط عليه السلام ونحن بصدد الحديث عن عمه صلوات الله وسلامه عليه إلى ما كنا فيه نتعرف على منهج البيان القرآني في عطائه ولغته عن أنبياء الله وعن أبيهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً. نعود إلى إسحق ويعقوب عليهما السلام.

* * *

اسحق ويعقوب عليهما السلام:

اسحق ويعقوب عليهما السلام في لغة القرآن الكريم وعطائه من أنبياء الله يحمل كل منهما مهمة أناطه الله بها وكلفه إياها، والوحي الإلّهي فيها عونهم ومددهم من الله في كل ما يتعلق بهداية البشر وتوجيه رسالة الله إليهم فضلاً عن عصمته لهم من الوقوع في الخطيئة أو الكبائر بحكم أن الأصل في أنبياء الله ورسله أنهم نماذج هداية يصطفيهم الله سبحانه من بين خلقه ليبلغوا عن الله بالوحي الإلّهي ما يسعد البشر وما يأخذ بأيديهم، ومن هنا فإن الله سبحانه يعصمهم عن الوقوع في الكبائر ويرفعهم عن أن يقعوا في خطيئة أو أن يمارسوها فساداً.

وبهذا الأساس فإن حديث القرآن الكريم عن هؤلاء الكرام يختلف تماماً ويغاير قصص العهد القديم، ذلك أن القرآن كما سبق القول انتهى إلينا بالهيئة التي هو عليها الآن منذ نزل من الله تعالى على قلب الخاتم محمدﷺ لم يمسسه بشر ولم تعمل فيه أهواء المؤمنين به أو المنكرين له، فخبره هو الخبر وحديثه وحده هو الحق الخالص الذي لم يختلط به شيء آخر من فكر البشر أو عمل الناس، أما العهد القديم فهو كما أوضحنا سجل مأثورات ومرويات وذكريات لأجيال عديدة ومراحل مختلفة من عمر الكتّاب والمدونين، الذين قاموا على أمره، ولذا فمن الطبيعي والمنطقي أن تختلف لغة القرآن الكريم في مجمل عطائه وتفصيله عن معظم ما انتهى إلينا من تراث في العهد القديم عن النبوة والرسالة الإلّهية فضلاً عن عقيدة الإيمان في الله رب العالمين وعلى

ذلك فالنبي يعقوب الذي لا تلمح أثراً للنبوة أو الرسالة الإلهية تحقق على يديه في لغة الأسفار العهد القديم، يطالعنا القرآن الكريم عنه بشيء يتغاير تماماً ويختلف مع مرويات العهد القديم ويتفق تماماً مع جلال النبوة ووظيفة الرسالة الإلهَية التي اصطفى الله من أجلها بعض خلقه.

إن يعقوب مع أخيه إسحق منذ الصبا المبكر، وحتى قرب النهاية من عمرهما في الحياة لم يعرفا ما اتهمهما به كاتب أسفار العهد القديم من صراع ومؤامرات وتلصص وسرقة وإنما هما على دين الله الحق الذي لا تتغير كلمته ولا تتبدل لأن كلمة الله للناس لا تتغير ولا تتبدل وفي البداية وكما يقول رب العزة عنهما في سورة البقرة حمل الرجلان من أبيهما إبراهيم عليه السلام تلك الحقيقة التي ما خلا منها قلب نبي وما تجرد عنها بسلوكه وما فترت في عواطفه أبداً: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ، أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِي قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[1].

فهاتان الآيتان الكريمتان تؤكدان ان نبي الله يعقوب أوصى بنيه بعبادة الله تعالى وحده لا شريك له والإسلام له سبحانه، أي الإنقياد له والخضوع لجلاله ذلك لأن الإسلام بهذا المعنى هو ملة الأنبياء جميعاً وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم[2]. ولذا رب العزة يقول في سورة البقرة: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾[3]. فهو سبحانه وتعالى في هذه الآية كما يقول الإمام ابن كثير أرشد

---

(١) سورة البقرة: آيتا ١٣٢ ـ ١٣٣.

(٢) ابن كثير الجزء الأول صفحة ٣٢٧.

(٣) سورة البقرة: الآية ١٣٦.

المؤمنين إلى الايمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمدﷺ مفصلاً وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملاً، ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم، ولا يكونوا كمن قال الله فيهم:
﴿ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً، أُوْلَـٰئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ حَقًّا. . ﴾. (النساء/ ١٥٠).

هذا. . وينفي القرآن الكريم عن أنبياء الله في العهد القديم كل ما لحق بهم من عدوان وما تعرضوا له من أذى مقرراً ما كانوا عليه من إيمان بالله مبرزاً عميق صلتهم بالله كاشفاً عن أسلوبهم في الدعوة إلى الله هذا الأسلوب الذي انتهى إليه مع الزمن في بيت إسرائيل بما سمي باليهودية والنصرانية التي قدمها ما سمي بالكتاب المقدس في صور ونماذج من المسخ والتشويه لكل قيم النبوة وطهارتها في ظل التسمية باليهودية والنصرانية التي تبرز سياق ولغة الكتاب المقدس. ومن هنا فرب العزة في بيان محكم ولغة مشرقة مضيئة يضرب هذا الافتراء ليرفضه منطق الإسلام وليعرف الناس أن ما انتهى إلى العالم من تراث أو مأثورات عن اليهودية والنصرانية في أسفار اليهود والنصارى لا علاقة له بالوحي الإلهي ولا بالإيمان الصحيح. . يقول رب العزة:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ، تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾[١].

هنا يرقى القرآن الكريم بأنبياء الله إلى مكانهم اللائق بهم في علاقتهم بالله من حيث وضعهم كتّاب الكتاب المقدس بعهديه ـ قديماً وجديداً ـ فيما هو متداول الآن

(١) سورة البقرة ـ آيتا ١٤٠ ـ ١٤١.

ـ يهودية ونصرانية ـ تخرج النبوة عن أهدافها وتفسد عملها في الناس وتسيء إلى أنبياء الله في عواطفهم وأعراضهم وأخلاقهم ودينهم يرقى بهم القرآن الكريم إلى مكانها الحقيقي في علاقاتهم بربهم، وهو أنهم لم يكونوا يهوداً أو نصارى على ذلك النمط الآثم في حق أنبياء الله الذي يتم تداوله في تراث العهد القديم ومن هنا فرب العزة يطهرهم من نسبة ما في أيدي اليهود والنصارى إليهم ويقول سبحانه في سورة آل عمران: ﴿ **مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ** ﴾[1]. وعند شرح هذه الآية الكريمة يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب في تفسيره لها[2]: ﴿ **وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً** ﴾ تعريض بما عليه أهل الكتاب ـ اليهود والنصارى - من انحراف عن الدين القويم الدين الذي جاء به أنبياء الله إلى عباد الله.

﴿ **وَٱلْحَنِيفُ** ﴾ هو المتعبد لله، الراكع الساجد لعزته وجلاله، المائل عن طرق الهوى والضلال﴿ **وَٱلْمُسْلِمُ** ﴾ من أسلم وجهه الله، وأقامه عليه وحده دون أن يلتفت إلى سواه، واليهود والنصارى لم يسلموا وجههم لإله واحد قائم على هذا الوجود منفرد به، إذ جعل اليهود إلههم إلهاً فردياً هو ربهم وقائد جنودهم وقائم على تدبير شؤونهم هم وحدهم، أما الناس جميعاً غيرهم فلهم إلههم أو آلهتهم إذ لا شأن لهذا الإله أو تلك الآلهة باليهود كما لا شأن لليهود بها. هكذا يعتقدون.

أما النصارى فإلههم هو ثلاثة: آب وابن وروح قدس، تجتمع وتتفرق فإذا اجتمعت كانت إلهاً واحداً. وإذا تفرقت كان كل منها إلهاً وحده وهذا وذاك على غير الحق، وعلى ما يدين به إبراهيم الذي ينسبون دينهم إليه. لأن ذلك الذي عليه اليهود والنصارى الآن شرك والله تعالى يقول في إبراهيم (وما كان من المشركين).

---

(١) سورة آل عمران الآية ٦٧.

(٢) «عبد الكريم الخطيب». (التفسير القرآني للقرآن) الجزء الثالث صفحة ٤٨٨ ـ دار الفكر العربي - القاهرة ـ الطبعة الأولى.

هذا.. ويرفع القرآن الكريم الخطيئة التي دنس بها كتّاب العهد القديم سيرة الأنبياء وشوهوا بها وجههم الطيب حين نقلوا عنهم ونسبوا إليهم في إثم وافتراء ما وقع فيه شعبهم وقادتهم، لكن القرآن الكريم يرفعهم إلى أعلى درجة من التكريم والتقى مع تحديد أكرم وأرفع وألطف المهام والمسؤوليات التي يكلف الله بها بعض عباده وهي النبوة التي يصطفي الله لها من يختارهم من خلقه لها، ويخاطب الله سبحانه نبيه الخاتم ويضع شرفه الأسمى بالنبوة في الدائرة التي تشرف بها أنبياء الله جميعاً ويصل التكريم الأدبي في هذا المقام إلى أعلى ذروة الكمال والتكريم لأنبياء الله حين يشبه الله تعالى شرف ما أوحى به إلى محمد ﷺ بأنه مثل ما أوحى به إلى أنبيائه جميعاً، وأنبياء بني إسرائيل بالقطع من بين هؤلاء الأنبياء الذين عناهم الله سبحانه وتعالى بقوله في سورة النساء مخاطباً سيد ولد آدم ﷺ:

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّينَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُوراً، وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَـٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً، رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾(١).

وهذه الآيات الكريمة تجعل وحي الله إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب وغيرهم من أنبياء الله هو من نفس مستوى وحي الله تعالى لنبيه الخاتم. وإن مهمتهم على ضوء نعمة وحي النبوة هي التبليغ والتبشير والإنذار بما أمرهم الله تعالى به وبما نهاهم عنه، وأنهم كانوا حجة الله على الناس وبرهان رحمته وآية نعمته، فهل طالعنا كاتب العهد القديم في سيرة إبراهيم واسحق ويعقوب وأبنائه بشيء من عمل

---

(١) سورة النساء: الآيات ١٦٣ ـ ١٦٥.

النبوة وهدايتها في الناس على يد نبي من هؤلاء. إن الجواب هو ما انتهينا إليه في هذه الدراسة المقارنة.

وهو أننا لم نعثر للنبوة على أثر بين سيرة أنبياء الله في لغة العهد القديم: فقد رأينا أبا الأنبياء في منهج كتّاب الأسفار التي تناولت التراث الإسرائيلي في رحلة سياحية طويلة لم يستح أثناء الحديث عنها كاتب الأسفار وخاصة سفر التكوين من أن يرينا نبياً من الأنبياء في صورة من يبيع إمرأته مرتين، ولم يذكر لنا كتّاب العهد القديم فقرة أو موقفاً من مواقف أبي الأنبياء يتم في دعوة الرجل لله أو استجابة أحد له، بل أن بعض شراح العهد القديم، وهو القس (وليم مارش) قد راح في المجلد الأول من موسوعته يقول بغير حياء وبغير عقل أيضاً: (ويظهر أن ابرام حين ترك حاران اتفق هو وساراي على أن تقول بأنها أخته وهذا بحسب النظر إلى إيمان ابرام غريب جداً فإنه ترك أرض ميلاده إطاعة لأمر الله وذهب غريباً يتنقل من مكان الى مكان ومع هذا ارتكب ذلك وهو مما يؤول إلى إتخاذ إمرأته منه ولعل ابرام أتى ذلك لينقذ نفسه واتكل على نباهة امرأته في أنها تخلص نفسها من المصاعب، ولكن في كل الأحوال كان ما أتاه دليلاً على ضعف الإنسان ولا سيما إنسان سامي السجايا محسوب من أفاضل البشر[1] انتهى.

هكذا ولا يستحي كتّاب التراث أو شراحه من خلع مثل تلك المهانات على أنبياء الله وخاصة نبي مثل إبراهيم عليه السلام أوحى الله إليه وبلغ عن ربه ورتبته عند الله على ضوء ما كلفه من شرف النبوة لا تجعله يقع في مثل هذا الإثم الذي يدعيه كتّاب العهد القديم ظلماً وعدواناً. إن النبي الخاتمﷺ وهو كما تقول الآية الكريمة في سورة الأنعام التي أتينا عليها آنفاً قد أوحي إليه مثل ما أوحي إلى إبراهيم وإسماعيل واسحق، يعطينا الأنموذج والقدرة التي تتصور في سلوك وتصرفات وأعمال أنبياء الله

(١) «القس وليم مارش» السنن القويم في تفسير أسفار العهد القديم الجزء الأول صفحة ١٣.

تعالى، وباليقين فإن ما يمكن أن يصدر من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام وأبنائه من بعده وخاصة من اصطفاه الله بشرف النبوة لا بد وأن يكون على نفس المنهج، ومن خلال تلك الدائرة التي يحدد لنا ملامحها رسول الله ﷺ، وهذه الواقعة أو هذا الأنموذج الذي يقدمه لنا رسول الله ﷺ، في واقعة تتعلق بأم المؤمنين (صفية بنت حيي بن أخطب) رضي الله تعالى عنها لتعطينا كل الدلالات والمؤشرات التي يمكن أن تقوم برهاناً على سلوك وتصرفات نبي حيال أهله أو مع الناس. وخاصة هذه الواقعة كما أوردها ابن كثير في تفسيره[1]: إن صفية بنت حيي كانت تزور النبي ﷺ وهو معتكف في المسجد، فتحدثت معه ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلاً، فقام النبي ﷺ ليمشي معها حتى بلغ دارها وكان منزلها في دار اسامة بن زيد في جانب المدينة. فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار. فلما رأيا النبي ﷺ أسرعا، وفي رواية تواريا، أي حياء من النبي ﷺ لكون أهله معه فقال لهما ﷺ: على رسلكما: إنها صفية بنت أخطب أي لا تسرعا وأعلما أنها صفية بنت حيي، أو زوجتي، فقالا سبحان الله يا رسول الله فقال ﷺ (إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً، أو قال شراً). هذا هو الأنموذج والقدرة في السلوك العام في منطق النبوة وضوابطها وفي واقعة قد يلتبس فيها الحلال بالحرام أو الحق بالباطل عند من لم يتبين الموقف على حقيقته أو يتعرف على معالمه تقدمه لنا سيرة رسول الله محمد ﷺ كمثال في سلوك الأنبياء، ولا يقبل العقل والمنطق فضلاً عن ضوابط النبوة أن تكون سيرة نبي إبراهيم عليه السلام بذلك المستوى المهين الذي نقله كتّاب العهد القديم ونسبوه في زيف وعدوان إلى أبي الأنبياء عليه السلام ثم إلى أبنائه من بعده اسحق ويعقوب.

هذا. وما ينطبق على إبراهيم عليه السلام من رفض المنهج القرآني لكل المهانات التي ألبسها كتّاب العهد القديم به ينطبق على ولديه اسحق ويعقوب، وإذا

(١) «ابن كثير» تفسير القرآن العظيم ـ الجزء الأول ص ٢٩٧.

كان التراث الإسرائيلي يقدم لنا سيرة يعقوب عليه السلام متضمنة وقوع ابنته (دينة) في خطيئة الزنا بالغصب والقهر الذي أوقعها فيه «شكيم» ثم تعالج الجريمة في قصص كتّاب العهد القديم بذلك الشرط الذي طرحه أبناء يعقوب بأن تتبع العشيرة كلها وأهل بلد «شكيم» ما اشترطه عليهم أبناء يعقوب في تطبيق الختان على أنفسهم مثلما يفعل أبناء يعقوب وليتزوج «شكيم» من دينة ليقوم بين الطرفين أبناء يعقوب وأهل شكيم العهود والمواثيق فإن العجيب المحير هو ما يطلع به كاتب الأسفار على الباحثين والدارسين من أن أبناء يعقوب قاموا على أهل «شكيم» وهم في حال أشبه ما يكون بالجراحة من أثر الختان الذي طبقوه على أنفسهم وقتلوهم جميعاً غدراً وحيلة ومكراً وخداعاً، وهذه الصورة القصصية الروائية التي يقصها كتّاب التراث الإسرائيلي يفتقد فيها تماماً كل أثر للنبوة ولعمل الرسالة الإلهية فيمن يصطفيهم الله لرسالته فإذا ما قبلنا الرأي القائل بأن الأسباط هم أبناء يعقوب كانت المشكلة التي يطرحها العهد القديم تناولهم لتراث بني إسرائيل أشد خطورة وأكثر إثماً لأن هؤلاء الأسباط في منطق القرآن الكريم إسم على مجموعة من الناس تجيء في معظم ورودها في القرآن الكريم عقب اسم يعقوب[1]، وقد وضعهم الذكر الحكيم بين سلسلة الذين أوحى الله تعالى إليهم وحيا في قوله تعالى في سورة النساء: ﴿ **إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ** ﴾[2] الآية. وعلى هذا فقد دخل الأسباط دائرة النبوة وعليهم

---

(١) الشيخ محمد بن فتح الله بدران - في كتابه: (الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن) يذهب إلى أن الأسباط ليسوا هم أبناء يعقوب وقد خصص في كتابه مبحثاً بعنوان (أخلاق العشرة الكبار أصل بني إسرائيل) وانتهى إلى أن أبناء يعقوب ليسوا هم الأسباط الذين عناهم الذكر الحكيم بأنه نزل عليهم وحي الله تعالى وقد أخذ يسوق الأدلة والبراهين في التدليل على ما ذهب عليه، ومهما يختلف حول منهج الشيخ رحمه الله فإن ما ذهب إليه يعتبر بعض دليل على عدم اطمئنان العقل الإسلامي في بعض مراحله إلى أن ابناء يعقوب بالشكل الذي انتهى إلينا من خلال تراث إسرائيل في العهد القديم أهل للرسالة الدينية أو للنبوة الإلهية: إنظر صفحات ٥٥٧ - ٦٠٠ من الكتاب المذكور الطبعة الثانية عام ١٩٦٩ م.

(٢) سورة النساء: الآية ١٦٣.

التزاماتها ولا يتصور منهم إلا كل ما يصدر عن نبي فهل الواقعة التي تحكي قصة زنا دينة وقتل إخوتها للرجل الذي تزوجها بعد العهود والمواثيق تعتبر واقعة تتفق ومنهج النبوة في الكمال الأخلاقي والتوجيه الإجتماعي؟ وهل واقعة زنا يهوذا الولد الرابع ليعقوب بزوجة ابنه التي لم يكن يعرفها بعد أن تخفت هي لكي يفعل معها ما فعل لعلها على ضوء رواية العهد القديم تستطيع أن تجعله يقوم بهذه الخطيئة ويمارسها بانتظام، هل تتفق واقعة كتلك وجلال القول الذي يدعى أن الرجل كان نبياً يوحي إليه؟ أي هل تتفق واقعة كتلك وجلال معنى النبوة والرسالة المتعلقة بالأسباط، إن كان يهوذا هذا من الأسباط الذين أوحى الله إليهم، وأن كان أبناء يعقوب هم المعنيون بالأسباط وفي كلا الحالتين، إن كان الأسباط الذين نزل عليهم وحي الله كما تقول وتنص آية الأنعام هم أبناء يعقوب.. أم الأسباط قوم آخرون ليسوا من أبناء يعقوب، وخاصة أن في الذكر الحكيم آية قد تقوي الرأي القائل بأن الأسباط ليسوا بأبناء يعقوب وهي التي يقول فيها رب العالمين من سورة الأعراف: في الآيتين ١٥٩ - ١٦٠: ﴿ **وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ، وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾. فالأسباط

هنا من قوم موسى وبين عصر يعقوب وموسى أجيال عديدة، فإن سيرة أبناء يعقوب في العهد القديم لا تقبل بالحال الذي هي عليه ولا بالأخبار التي تلصقها بأنبياء الله في نهج القرآن الكريم ولا تستقيم في منطقه أبداً فلقد كانوا أبناء نبي ابن نبي وأخوة نبي، ومهما تكن الهنات أو العثرات التي قد يكونوا وقعوا فيها فلا يعقل أن تكون على مستوى الدنس الذي أرانا إياه كتّاب العهد القديم وهم يعرضون لسيرتهم مع أبيهم تارة ومع أخيهم مرة أخرى ومع أنفسهم وثالثة مع الناس وهكذا بغير ضوابط

ولا خلق ولا دين، والأسباط في لغة القرآن الكريم وعطائه أكانوا أبناء يعقوب أم غيرهم كما يذهب بعض العلماء[1] فوم أنزل الله اليهم سبحانه وحياً وعدهم في سلسلة الأنبياء الذين أوحى إليهم كما تفصح بذلك آية الأنعام وآية البقرة تبرئهم مما يمكن أن يدعيه أبناء إسرائيل مما انتهوا إليه في تراثهم يهودية ونصرانية لا تستقيم في لغة القرآن الكريم عند الحديث عن النبوة والأنبياء، ولذا فرب العالمين يضعهم في مكانهم اللائق بهم تكريماً وتطهيراً مما لحق بهم من أذى، ويدحض دعوى الذين ينسبون أنفسهم إليه ليظلموهم أو ليخلعوا عليهم صور الإثم والفساد التي تجيء دائماً مقترنة وملازمة لسلوك وقيم كل الذين يتحدث عنهم تراث العهد القديم ويقص سيرتهم.

فيقول سبحانه في سورة البقرة وهو يسكت لغط القائلين والمدعين ويدحض حجج المكابرين من كتّاب ونسّاخ تراث بني إسرائيل في العهد القديم:

﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُواْ هُوداً أَوْ نَصَـٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَـٰدَةً عِندَهُ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

هنا في هذه الآية الكريمة يرفض القرآن الكريم في صراحة ووضوح أن يكون الأسباط الذين أوحى إليهم وحيا، وكلفوا بالقطع بالوظيفة التي تناط بالذين يصطفيهم الله من خلقه بالنبوة وهي التبليغ والإنذار وعليهم على ضوئها كل التزامات ومسؤوليات أنبياء الله ورسله، ويرفض القرآن الكريم أن يكون الأسباط يهوداً أو نصارى، بالمعيار الذي انتهت إليه يهودية اليهود ونصرانية النصارى، أي أنهم لا بد وأن يكونوا في مستوى كل أنبياء الله في علاقاتهم برب العالمين من حيث توحيدهم له، وتنزيههم لجلاله عن الشبيه والنظير والصاحبة والولد، وبالإضافة إلى

---

(١) «محمد بن فتح الله بدران». الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن ص ٥٥٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ١٤٠.

طهارة قلوبهم ونظافة سلوكهم وعدم وقوعهم في الدنس أو الخطيئة، ومن هنـا فلا يقبل منطق القرآن، مـا نسبه كتّاب العهد القديم من مفتريات ومآثم ومخازي وخطايا الأنبياء بني إسرائيل عامة وأبناء يعقوب على وجه الخصوص، ومع كـل ادعاء كتاب اللاهوت بأن ابناء يعقوب هم الأسباط الذين يقفون في سلسلة أنبياء الله دون أن تكون في سيرتهم التي في العهد القديم نماذج عصمة النبوة وكمالاتها واضحة جلية، فإن ـ أخبار ـ العهد القديم عن أبناء يعقوب سواء أكانوا هم الأسباط أم كان الأسباط قوم غيرهم لا يمكن أن يكون برهاناً على خلق واستقامة فضلاً عن نبوة وأنبياء.

ومن هنا فرواية العهد القديم عن إسحـق ويعقـوب وأبنائهـم من بعدهـم لا تستقيم في عطاء القرآن الكريم ولا تقف أمام نور بيانه وطهارة نصوصه وعصمة الوحي الإلهي فيه.

* * *

النبي موسى في عطاء القرآن الكريم:

لعله النبي الوحيد بين أنبياء بني إسرائيل الذي تناول القـرآن الـكريم سيرتـه بتفصيل دقيق وإحاطة شاملة لكل ما يتعلق بنشأته منذ الطفولة المبكرة، حتى مرحلة تلقيه وحي ربه، وقيامه بتبليغ ما كلفه الله به في أمانة ومسؤولية، ولعل ذلك الإهتمام القرآني بنبي الله موسى يرجع إلى اعتبارات كثيرة أهمها: فيما نرى المنـاخ السياسي

الذي ظهر فيه بين بني اسرائيل وهم في مرحلة شديدة المتغيرات والتطورات في مصر بالذات بدأت بالعقيدة الدينية التي كان عليها المصريون وانتهت بالصراع السياسي الذي عاشته البلاد عقب موت الفرعون الشاب (امنحوتب) الرابع والذي بالتأكيد كان نبي الله موسى في مصر بعده بفترة قريبة قد ابتدأ يتلقى وحي الله ويمارس دوره في مجتمع مصر وإسرائيل على السواء ومن هذه الاعتبارات طبيعة الظروف التاريخية التي كان يحياها الشعب الإسرائيلي من عصر النبي إبراهيم حتى ظهور موسى، أي أنه هناك في تاريخ هذا الشعب عشرات من الأجيال وليس له اي انتماء ديني أو سياسي بعد عمليات التحريف وفقدان الأصول والمقومات التي تعرضوا لها بين صراعات قبائل وبطون بيت إسرائيل هذا فضلاً عن انعدام الوطن وعدم الاستقرار الاجتماعي في أرض بعينها، ومن هذه الاعتبارات ايضاً عمليات الفعل ورد الفعل المعاكس من قبل بني إسرائيل لكل ما كان يوجههم إليه نبيّ الله موسى وعدم تحقيقه عليه السلام ما كان يبتغيه من هداية وتوجيه لبني إسرائيل بفضل اصطفاء الله له وعمل النبوة والرسالة الإلهية ثم ما كان بعد ذلك من نقل سيرته وتدوينها مشوهة ومحرفة بل ومزورة بحيث لا يرى الناقدون والدارسون لسيرة نبي الله موسى في مصادر تراث بني إسرائيل المقدسة عندهم وغير المقدسة قيمة إيجابية وتوجيهات اخلاقية في عالم النبوة ووظيفة الرسالة الإلهية أقول لا يرى الدارسون في سيرة نبي الله موسى في تراث العهد القديم أي قيمة لوظيفة الرسالة الإلهية تذكر عن هذا النبي العظيم وعلى ضوء كل هذه العوامل مجتمعة، كانت عناية الله سبحانه وراء النبي موسى فلم تتركه لزيف ما نسب إليه من سلبية وفراغ في العهد القديم، فضلاً عما ألحقه به كتّاب الأسفار من مفتريات وآثام أعظمها خطورة وأشدها قبحاً فيما تداولوه عند بني إسرائيل في التعدد والتجسيم والتشبيه في المعتقد الديني في الإله عندهم ونسبتهم هذه الأنماط في العقيدة لنبي الله موسى عليه السلام. أقول لعل كل هذه الإعتبارات مجتمعة هي التي كانت وراء عناية القرآن الكريم العظيمة بكل ما يتصل بسيرة نبي الله موسى عليه السلام.

هذا.. ولا نود ونحن هنا نحاول أن نرى عطاء القرآن الكريم وبيانه العظيم في سيرة نبي الله موسى أن نتناول نماذج من الصور المقيتة والمهينة إنسانياً وأخلاقياً ودينياً التي خلعها كتاب العهد القديم على نبي الله موسى عليه السلام،

فنحن الآن أمام عطاء القرآن الكريم ولغة الوحي الإلهي فيه بكل إيحاءات العفة والطهر تمسح بارادة الله في محكم الذكر كل ما لحق أنبياء الله تعالى من أذى وما شاب سيرتهم من مفاسد ومفتريات.

يطالعنا القرآن الكريم بأنباء رعاية الله تعالى لنبيه موسى عليه السلام منذ البداية الأولى لوجوده بل منذ مرحلة طفولته المبكرة، قد طلب رب العزة من أم موسى بما ألقاه في قلبها وهي حامل به أن لا ترضعه في حالات خوفها وحزنها عليه خوفاً عليه من مطاردة الذين يقتلون أبناء إسرائيل الذكور ويستحيون منهم النساء فقال سبحانه في سورة القصص:

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ موسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١).

ومن عند هذه البداية المبكرة، وعين الله تعالى ترعى نبيه موسى في مختلف مراحل حياته، حتى بلغ أشده واستوى عوده، وهبه الله الحكمة والعلم والإحسان، وعلى ضوء خبر القرآن الكريم ابتدأ يعرف عليه السلام في الحياة العامة بذلك المشهد الذي يقصه خبر القرآن الكريم وخلاصته: أنه حين كان يمر في المدينة لقى رجلين أحدهما إسرائيلي والآخر مصري ووكز موسى المصري ليخلص وينتهي ما كان بين الرجلين فمات المصري على أثر هذا التدخل، وعلى أثر هذه الواقعة كانت رحلة نبي الله موسى إلى مدين وقد كان عليه السلام ابتدأ يمارس دوره الديني بين بين إسرائيل قبل الهجرة إلى سيناء وبعدها، يقول رب العزة في القصص:

﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ، وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ

---

(١) سورة القصص: الآية رقم ٧

يَقْتَتِلَانِ هَـٰذَا مِن شِيعَتِهِ، وَهَـٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَٱسْتَغَـٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى ٱلَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴾[1].

هذا . . وحين يكلف موسى من قبل ربه بدعوة بني إسرائيل إلى أن يستجيبوا لداعي الايمان يقول لهم مذكراً بأنعم الله عليهم، حتى يسمعوا ويطيعوا ويناديهم أن يستعدوا، لكي يكون لهم مأوى وانتماء في الأرض التي دعاهم لدخولها لكنهم لم يستجيبوا ولم يذعنوا يقول رب العزة في سورة المائدة:

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكاً وَءَاتَـٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ، يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰ أَدْبَـٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴾.

هذا . . ويؤكد رب العزة عن موسى عليه السلام أنه قد أوتي الكتاب (التوراة) وفيها تفصيل كل شيء ورحمة وهدى للذين هم بربهم يؤمنون، وهذا ما يؤكد انصاف القرآن الكريم لنبي الله موسى في تلقيه وحي الله مشتملاً على كتاب من الله فيه هدى ونور ولا يحمل عدواناً ولا قهراً، يقول رب العزة: ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّـٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ، ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ تَمَاماً عَلَى ٱلَّذِيٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام/١٥٣).

هذا . . ويتناول الذكر الحكيم طبيعة النبوة التي منحها الله لنبيه موسى عليه السلام وأنها لم تتجاوز في التكريم والتشريف حدود النبوة التي يكلف الله بها بعض عباده، فلم يكن موسى عليه السلام في ظل النبوة بأي حال من الأحوال قريباً من

---

(١) سورة القصص: آيتا ١٥ ـ ١٤.

الألـوهية ودلالاتهـا ومغايرتهـا للخلق ولـم يكن الآلـه (سبحانـه وتعـالى) في أي موقف مع عبده موسى قريباً من البشرية في مخلوقيتها وطبيعتها وحدودها كما حاول كتاب العهد القديم أن ينسبوا ذلك الزيف في تصورهم الخاطىء والآثم للعلاقة التي كانت بين الله وعبده موسى، فلم يكتب سبحانه وتعالى التوراة بأصبعه كما ادعى كتاب العهد القديم ونساخه، ولم يعطه وعوداً بأن يتنزل بنفسه (تعالى الله عن ذلك) إلى شيوخ إسرائيل، لكي يتحدث إليهم بنفسه فيرونه تعالى ويجلس إليهم، وليكون ذلك برهاناً من الله كما ادعوا على نبوة موسى لهم، ولكن الأمر في دائرة النبوة التي يرسمها منطق القرآن الكريم وعطائه لم يتجاوز فيه نبي الله موسى عليه السلام كونه بشراً مصطفاً من الله بالنبوة والرسالة الإلهية يقول تعالى في سورة الأعراف:

﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَـٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَـٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَـٰتُ رَبِّـهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَـٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ، وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِي وَبِكَلَـٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ، وَكَتَبْنَا لَهُ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَا سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَـٰسِقِينَ، سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَـٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِـكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ، وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ حَبِـطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ، وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا

جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ، وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ، وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَـٰنَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُواْ يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[1].

نورد هذا النص الكريم في الرد على ما طالعناه من كتّاب الأسفار في تراث إسرائيل في العهد القديم على مفترياتهم عن قصة الميعاد الذي ادعوا أن الله قد أعطاه لموسى لكي ينزل بنفسه (تعالى الله) إلى شيوخ بني إسرائيل، فيبرهن لهم على نبوة موسى ثم عدوله عن وعده الذي ادعوه عدواناً على الله تعالى وعلى نبيه موسى عليه السلام، ومما يدعو الى الدهشة والحيرة موقف علماء اللاهوت في ادعاءاتهم الكاذبة بأن قصص العهد القديم وما يتعلق به حول سيرة الأنبياء هو نفسه القصص الذي جاء به القرآن الكريم، ويعقدون مقارنة بين الأخبار الوثنية التي في العهد القديم حول واقعة الوعد وبين ما جاء في سورة الأعراف الآية ١٥٥ التي يقول فيها رب العالمين:

﴿ وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَـٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ

(١) سورة الأعراف: الآيات ١٤٢ ـ ١٥٠.

خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ﴾[1].

ومن المعنى البدهي والصريح في مباشرة دينية ولغوية لا تحتاج إلى لغط أو تأويل كما يحب علماء اللاهوت الذين يتعلقون كثيراً بالرموز والإصطلاحات الغامضة في تفسير النصوص يتضح أنه لا وجه للمقابلة بين هذه الآية الكريمة وبين الفكر الوثني الذي طرحه كتاب العهد القديم في سفر الخروج في الاصحاح رقم ١٩ في الفقرات ٧ ـ ١٢ والذي يقال فيه بالحرف: (. . لأنه في اليوم الثالث ينزل الرب أمام عيون الشعب على جبل سيناء﴾[2]. فالآية الكريمة في القرآن الكريم لم تتحدث عن اليوم الثالث ولا عن الأول والثاني ولم تتحدث عن ميعاد النزول ولم تطلب من موسى أن يجهز لمؤتمر، يتطيب فيه شيوخ إسرائيل ويغسلوا أيديهم وأرجلهم ويستعدوا للقاء ربهم الذي يعدل عن قرار نزوله ـ تعالى الله عن ذلك ـ وهذه الصور العادية الحسية والتي جعلت من العلاقة بين النبي وربه صوراً ونماذج من أثر علاقة القهر التي كانت بين حكام إسرائيل وسادتهم في عصور الذل والإستعباد لا يمكن أن يكون بينها وبين آية الأعراف صلة. ولكن آية الأعراف تتحدث عما وقع من موسى والله أعلم حين أخذ سبعين رجلاً من قومه ليدعوا الجميع ربهم ويستغفروا مما وقع منهم حتى لا يعاقبهم بما فعل السفهاء منهم، وكانت خطيئتهم التي نسبوها لأنفسهم ثم أكد القرآن الكريم وقوعهم فيها لا يرجى مع الوقوع فيها والإستمرار عليها أن يغفر الله أو يتوب، فقد عبدوا بعد إيمانهم بالله العجل الذي صنعوه بأيديهم، وأصبحوا بما فعلوا بعد أن ظلموا أنفسهم وتركوا عبادة الله لا يستحقون غير عقابه، فالآيات الكريمة التي سبقت هذه الآية التي تتحدث عن الميقات والسبعين رجلاً الذين قد يقبل الله منهم حين ينضوون تحت قيادة نبيهم من جديد رجاءهم وتربيتهم وقد لا يقبل على

(١) سورة الأعراف: الآية ١٥٥.

(٢) سفر الخروج: الاصحاح رقم ١٩ فقرة ١٢.

ضوء علمه تعالى بصدق نياتهم أو عدم اخلاصهم فيما ذهبوا إليه، هذه الآيات تؤكد طبيعة الموقف الذي وقفه السبعون رجلاً، وأنه لم يكن على غرار ما ذهبت إليه رواية العهد القديم عبارة عن مؤتمر يتطيب فيه الرجال ويغسلوا أيديهم وأرجلهم في حشد ينزل إليه الرب، فالآية رقم ١٤٨ من نفس السورة سورة الأعراف ـ تقول: ﴿ وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَـٰلِمِينَ ﴾. وفي نفس الموضوع ومن خلال وحدته الكاملة التي تعالج فيها هذه الآيات الكريمة من سورة الأعراف البداية والنهاية لهذا الموقف تقول الآية رقم ١٥٢ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾. ففي منطق القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه نرى القوم هنا ـ ظالمين ـ في آية، ومفترين ـ في آية أخرى لكنهم حين يطلبون من موسى عليه السلام وهو نبي أن يقف بهم في ميقات ليدعو ربه فإن استجابته كنبي تنطوي جوانحه على الأمل في توبتهم ومغفرة الله لهم تصبح متصورة وليس الأمر كما أدعى كتّاب التراث أن هناك الصفوة من شيوخ إسرائيل يدعون لاجتماع موسع ينزل فيه الرب ثم يعدل عن قراره فهم على ضوء خبر القرآن الكريم في حال من الظلم والإفتراء والمعصية يتعذر فيه أن تتعلق آمالهم بتوبة الله ورحمته، فضلاً عن النعمة المدعاة والتي حولوا مضمونها إلى صور ومواقف لا تليق بذات الله جل جلاله.

هذا.. ولقد قص القرآن الكريم فضل الله على نبي إسرائيل من خلال نبيه موسى قبل أن تتأكد وتتكرر منهم المشاهد والمواقف الظالمة والكافرة فبعد أن تجرد موسى واعتكف لربه أربعين ليلة، يعود فيجد الذين فرق الله بهم البحر، لينجيهم ويغرق عدوهم كما قال الله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَـٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة البقرة: الآية ٥٠.

يعود عليه السلام فيجد الذين رأوا هذا البرهان العظيم من الله قـد تركوا عبادته وتعاليم نبيه وعبدوا العجل، يقول رب العالمين في سورة البقرة:

﴿ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴾[1].

هذا.. ويلفت القرآن الكريم الإنسانية كلها إلى معنى لم يفطن له معظم الذين تناولوا سيرة بني إسرائيل بالدرس، ولم يدركه شراح العهد القديم أصلاً، وهو أن استجابة شعب إسرائيل للإيمان برب العالمين والإذعان له باعتباره الإله الخالق رب الكون الذي يرسل رسلاً ويكلف عباده بالواجبات، وعليهم فروضاً تؤدى وطاعات تقام له تعالى إكباراً وإجلالاً لعظيم ما خلق وجميل ما أسبغ من نعم ظاهرة وباطنة ضعيفة في نفوسهم وغريبة على طباعهم تنافي مع سلوكهم الذي فضلوه في القديم وهو حياة البدو الرحل الذين ينتجعون ويطالبون المرعى في كل مكان وبأي ثمن من قيم أو خلق وحديثاً بالسمسرة والمضاربة ودروب الإتجار والاحتكار المختلفة وانعدام العاطفة الدينية فضلاً عن خراب القلب الإيماني الذي يستجيب لمتطلبات والتزامات العمل في ظل الطاعة لنبي أو رسول أو الاقتداء بنبوة أو رسالة، ولذا فقد لفت القرآن الكريم إلى هذه الطبيعة التي تنطوي عليها النفسية اليهودية ويقف القرآن أمام ظرف مادي وبرهان قاطع كان يجب على أثره أن يقبل المدعوون من بني إسرائيل على نبيهم استجابة لربهم وطاعة لرسولهم، ولكن النتيجة التي ساقها الله إلى خلقه في القرآن الكريم درساً وعظة كانت على غير ما تلهم به العوامل الداعية إلى الإيمان والاستجابة له، فبعد دعوة موسى عليه السلام إلى الله في مصر دخل الكهنة والسحرة المصريون، بأمر الفرعون المصري في تحد ومكابرة للنبي موسى عليه السلام، على أمل من الفرعون أن يعجز السحرة برهان النبي موسى في دعوته الدينية التي قد تشكل خطراً على الفرعون فيتخلص منه ومن دعوته، فلما أفحم موسى عليه السلام

---

(١) سورة البقرة: الآية ٥١.

بأمر ربه وعونه السحرة كان الموقف كما عبر عنه رب العالمين في سورة يونس:

﴿ فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[1].

وبهذا المشهد القوي القائم على يقين النبي في عون ربه ومساندته أمام الجمع المحتشد دخل النبي موسى عليه السلام ميدان المحاجة ولم يخذله ربه وإنما كما قال الله تعالى في سورة طه:

﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[2].

كان طبيعياً ومعقولاً أمام كل هذه الدواعي، أن يقبل أبناء إسرائيل في مصر على نبيهم ولكن الخوف الذي يملأ قلوبهم من السيد المصري الممثل في سطوة الفرعون وهيمنته عليهم كان عائقاً أمامهم، ولذا فالذي حدث منهم تجاه نبيهم أنه كما قال رب العالمين:

﴿ فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[3].

ومع أن العهد القديم لا يتحدث كثيراً عن تأثيرات النبوة ودورها في عمل شعب إسرائيل، بل لا يوجه في معظم مروياته من قريب أو بعيد إلى دور الأنبياء والنبوة في ضبط واستقامة شعب إسرائيل وارتباطهم ببعض الحق الذي يمكن أن

---

(١) سورة يونس: الاية ٨١.

(٢) سورة طه: الآية ٦٩.

(٣) سورة يونس: الآية ٨٣.

يأخذوه من هدى النبوة وتوجيهها، الا أن القرآن الكريم وحده يقوم دليل انصاف على أن بعض أبناء إسرائيل قد تلقوا كتاباً من موسى، وأنه كان ضياء وذكرى للمتقين، وأن الذين تلقوا هذا اكتاب كانوا يخشون ربهم بالغيب ومن الساعة مشفقون يقول تعالى في سورة الأنبياء ﴿ **وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْراً لِّلْمُتَّقِينَ، ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ** ﴾[1]. قال قتادة: المراد بالفرقان هنا التوراة حلالها وحرامها وما فرق الله بين الحق والباطل[2].

ونحب في نهاية هذا العرض الموجز عن سيرة نبي الله موسى في القرآن الكريم أن نؤكد أننا بهذا العرض نريد أن نبين عن الفرق الجوهري والاختلاف التام بين سيرته عليه السلام في العهد القديم، وبين ما أكرمه الله به من شرف النبوة وخير النعمة وعظيم القدر في القرآن الكريم، كما نحب أن نؤكد أن كل ما نسب إلى نبي الله موسى في العهد القديم من أنه أقام محرقات وذبائح وأصنام وصنع حية من نحاس للعبادة، وأنه بنى محرقات بأمر إلهه الذي هو عند موسى في العهد القديم أعظم من آلهة الشعوب الأخرى، لأنه إله إسرائيل، نود أن نقرر هنا أن هذا الذي نسب إلى نبي الله موسى عليه السلام إنما هو من مفتريات ودسائس وعدوان الكتّاب والمسجلين على أنبياء الله وفي مقدمتهم موسى عليه السلام، والحقيقة التي يكشفها القرآن الكريم ويقدمها للناس درساً وتبصرة ورحمة فضلاً عن أنها تطهر نبي الله موسى مما أتهمه به من دنس ووثنية كتّاب العهد القديم هذه الحقيقة هي ان نبي الله موسى مثله فيما اصطفاه الله به من شرف النبوة مثل غيره من أنبياء الله جميعاً من حيث العصمة والطهر ولا يتميز عنهم بشيء يخرجه عن بشريته، أو يجرده عن نبوته كما حاول كتّاب العهد القديم أن يزيفوه على نبي الله موسى عليه السلام، وكل ما يستند عليه بعض اللاهوتيين المحدثين في تبرير الادعاء بأن لنبي الله موسى من الصلاحيات والمميزات ما ليس لغيره من أنبياء الله في العهد القديم هو محض افتراء خاصة وأنهم يستندون

---

(١) سورة الأنبياء: الآية رقم ٤٨ - ٤٩.

(٢) «ابن كثير» الجزء الرابع صفحة ٥٦٧.

فيما ذهبوا إليه في فهمهم القاصر لما ذكره القرآن الكريم عن نبي الله موسى من آثر وصفات وأخبار. تؤكد عندهم أنه بها يمثل امتيازاً في رتبته الدينية والدنيوية ويستندون في ذلك إلى آية الأعراف الخاصة بطلب موسى رؤية ربه، وغير ذلك من المطالب التي حاولوا فهمها أو تخريجها من كتاب الله، ومرجع ذلك إلى جهلهم وقصورهم عن تدارك وفهم كلمات الله في القرآن الكريم، وذلك بالقطع بسبب عجمتهم الفكرية واللغوية والدينية التي يتناولون بها كتاب الله، فآية الأعراف رقم ١٤٣ التي تقول ﴿ **وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ، قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِي وَبِكَلَـٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ** ﴾. وهاتان الآيتان الكريمتان لو تدبر عاقل لنص الآية الأولى منهما، لأدرك ان الله سبحانه يقص على خلقه كيف كان نبيه موسى في موضعه اللائق به كنبي بشر ولم يتجاوز حدود ذلك المعنى ابداً:

﴿ ... **رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِي** ﴾. هذا هو النص الذي تضمنته الآية الكريمة وهذا هو الأساس في الموقف الذي أحاط بنبي الله موسى عليه السلام وعبر عنه رب العالمين في سورة الأعراف. وإذا أردنا تلخيصاً فيمكن أن يتلخص الموقف في الآتي:

مع كل المناجاة والمناداة والاستمرار في متابعة وحي الله لنبيه فيما قص علينا عن هذا المشهد، فإن تتمة الآية تنهي إلينا الموقف، حين استحضر نبي الله موسى طبيعة المطلب وبرهان الله لعبده على استحالة بشرية موسى أن تتقبل استجابة ربه في الدنيا ﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا** ﴾. فإن نبي الله موسى عليه السلام أمام هذا البرهان العظيم خر صعقاً يسبح بحمد الله. وليكون من المؤمنين الشاكرين، وليس الأمر في هذه الواقعة كما أدعى الوثنيون من كتاب العهد القديم الذين جعلوا من هذه الواقعة موسى في رتبة إلّه أو بعض إلّه، الأمر هنا في عطاء

الإسلام من خلال نص الذكر الحكيم لا يخرج عن الحدود التي رسمها الله لعباده حتى ولو كانوا من صفوة خلقه ورسلا إلى الناس.

لقد كانت هذه الآية الكريمة وغيرها مما يتصل بهذا الموضوع في الفكر الإسلامي مصدراً لسخاء فكري عظيم، فعلى سبيل المثال ذهب المعتزلة عند فهمهم لدلالة هذه الآية مذهباً شططا ﴿ . . لن تراني . . ﴾. أن لن هنا تنفي الرؤية لله تعالى نفياً مؤبداً في الدنيا والآخرة. ومع أن رأيهم قد ناقشه الطرف الثاني من العلماء المسلمين وهم الجمهور من أهل السنة وأعترضوا عليه، وضعفوه ببراهين كثيرة تؤكد رؤية الله تعالى للمؤمنين في الآخرة إلا أن رأي المعتزلة هذا يرينا مدى أثر الآية الكريمة على العقل الإسلامي خشية ورهبة من الله تعالى واقراراً واعترافاً بمغايرة الخالق في كل صفاته للمخلوقين، حتى ولو كانوا من الذين اصطفاهم الله بشرف النبوة وأهلهم لتحمل الرسالة الآلهية رحمة منه بعباده ولطفاً بهم.

وبهذا العرض السريع يتبين لنا مدى الفرق الجوهري بين تناول الكتاب والمسجلين في العهد القديم لقضايا الإيمان والعقيدة الدينية من خلال ما نسبوه وما اعتقدوه إلى الله وإلى أنبيائه وما تناولوا به سيرتهم، وبين منهج القرآن الكريم القائم على عصمة الوحي وقداسة النص الذي طهر الله به أنبياءه ورسله من التهم والإفتراءات والمآثم التي خلعها كتّاب التراث الإسرائيلي في العهد القديم على صفوة خلق الله، فضلاً عما قرره القرآن الكريم وانفرد به وهو يعالج سيرة أبناء إسرائيل من تقرير قواعد الايمان ومقررات الحق والخير التي لازمت سيرة أنبياء الله ورسله والتي استجاب لها بعض أبناء إسرائيل حين كان الأنبياء بينهم رحمة من الله وفضلاً غير أنهم لم يحافظوا على نعمة الله ولم يستمروا في العمل بهديه واتباع ما أوحى الله به إليهم.

* * *

داود وسليمان في عطاء القرآن الكريم:

بعد الصور المقيتة والمهينة التي رأينا - آسفين - كتاب العهد القديم وهم يخلعونها على أنبياء الله جميعاً ورسله ولم يسلم منهم أحد حتى داود وسليمان عليهما السلام، كان منطقياً بل ومن الضرورة أن نرى القرآن الكريم، وهو يرفع عنهما آثار بني إسرائيل ويضعهما في مكانهما اللائق بهما كنبيين كريمين على الله وعلى الناس، وعلى غير منهج كتّاب العهد القديم في قصصهم ومفترياتهم وأثمهم. يطالعنا القرآن الكريم في سورة البقرة، ببداية ظهور نجم النبي الملك داود عليه السلام، وسطسياق بليغ ونظيف عن أخبار مرحلة من تاريخ بني إسرائيل كانت فيها أوضاعهم السياسية والدينية على أسوأ حال بلغته، ولم يعد فيهم من يصلح للنبوة أو الملك لكن نعمة الله عليهم على ضوء لغة القرآن الكريم لم تقف ولم يحرمهم الله سبحانه نعمة العون والمدد، وكما يقول ابن كثير: بعد أن انقطعت النبوة من أسباطهم، ولم يبق من سبط لاوي - الذي يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها، وقد قتل، ثم رزقهم الله من هذه المرأة غلاماً صالحاً ولما بلغ سن الأنبياء أوحى الله إليه وأمره بالدعوة إليه وتوحيده فدعا بني إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكاً يقاتلون به اعداءهم، فلما جاءهم الملك رفضوا أن يقاتلوا بعد أن كانوا يقولون (وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) وكانت حجتهم واهية: ذلك أن النبي عين له طالوت ملكاً وكان رجلاً من الجنود ولم يكن من بيت الملك فيهم، لأن الملك كان في سبط يهوذا فقالوا: أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. لكن نبيهم حسمها حين قال لهم مفحماً ومسكتاً أنه لا دخل لهم في فضل الله فالله يؤتى فضله من يشاء، والله واسع عليم، وبالفعل على ضوء القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تجلت أنعم الله ورحمته على طالوت، وأتى بالتابوت تحمله الملائكة، ليكون ذلك آية وبرهاناً لبني إسرائيل أن يعقلوا وأن يتدبروا بعد أن فقدوا كل شيء يربطهم بدين أو عقيدة، وكان على طالوت أن يختبر سرائر القوم وأن يعرف مدى استجابتهم للإنضواء تحت لوائه فأخبر القوم على ضوء قصص

الذكر الحكيم أن الله مبتليهم بنهر يمرون عليه وهم عطشى فمن شرب منه فليس من رجال طالوت، فشربوا إلا قليلاً منهم وهذا القليل الذي سمع وأطاع لم يصمد حين الحرب، ولم يقو قلبه لأنهم كانوا قلة في مواجهة جيش «جالوت» الفارس الفلسطيني الذي فاضت أسفار التراث الإسرائيلي برغم أنف كتابه بذكره. لم تقو هذه القلة على مواجهة جيش جالوت ولم يبرز فيهم عنصر الإيمان أو الجلد أو الاقتداء بقائدهم، وفي هذا المناخ ووسط هذه هذه الظروف التي يرى فيها الباحث في كل تفاصيلها بغير جهد أثر النبوة وبصماتها على كل المواقف ظهر بفضل الله وعونه ـ نجم النبي الملك داود يقول رب العالمين في سورة البقرة:

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكاً نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ، وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ، فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةَۢ بِيَدِهِ فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلاً مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ قَالُواْ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةَۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ، وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ

عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ، فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَءَاتَـٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَـآءُ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾[1].

داود هنا في معيار الذكر الحكيم واحد من جند طالوت ومن الفئة التي تقاتل بإذن الله وحين قتل داود جالوت قتله بإذن الله، وحين آتاه الله الملك والحكمة كان ذلك بإذن الله ثم علمه الله مما يشاء بعونه ورحمته وفضله ونعمته وهذا هو سياق لغة القرآن الكريم وصريح النصوص لا نرى فيها أثراً للصراعات السياسية أو المؤامرات العائلية أو القتل غيلة وقدراً كما فاضت أسفار تراث العهد القديم عند تناولها لهذه الواقعة في سيرة نبي الله داود عليه السلام.

هذا.. وفي الآيات الكريمة من كتاب الله تعالى التي أتينا عليها لفتة كريمة جداً يشير إليها سبحانه وتبرهن وتدلل على مستوى الإيمان بالله وأثره في قلوب الذين كانوا يقاتلون مع داود وتحت قيادة طالوت الذي هو شاول في العهد القديم والمنعوت في تراث إسرائيل بأقبح وأحط صفات البشر بينما هو معنا هنا قيادة لمجموعة كريمة على الله من البشر تقاتل في سبيل الله وهذه اللمحة الكريمة أو قل هذه اللفتة العظيمة التي يسير إليها رب العالمين درساً وعظة وتكريماً وانصافاً واحقاقاً للحق في منهج القرآن العظيم وهي أن جند الإيمان بالله مع أنهم من بني إسرائيل لكن حين خلصت قلوبهم لله تناولهم الذكر الحكيم على ضوء علم الله بهم. هؤلاء الجند حين برزوا لأعدائهم

(١) سورة البقرة: الآيتان ٢٤٦ ـ ٢٥١.

قالوا كما عبر عنهم ربهم:

﴿ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ، فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾. (البقرة / ٢٥٠ - ٢٥١)

هذا ويسجل القرآن الكريم أن الله حين منّ على عبده داود وكرمه وشرفه بالنبوة والرسالة من خلال الوحي الإلهي سمى الله سبحانه أوامره ونواهيه وما شرعه إلى نبيه داوود (بالزبور) فقال سبحانه للخاتم محمد ﷺ: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُوراً ﴾.

هذا. . ونحب أن نقرر هنا على ضوء ما قررته الآية الكريمة من ان الله تعالى قد أتى داود كتاباً فيه وحي الله الذي سماه رب العزة (زبوراً) أنه لا يمكن أن يكون وحي الله تعالى لنبيه داود في الزبور على ضوء صورة نبي الله داود وملامحه في القرآن الكريم متضمناً كل أو معظم أو حتى بعض ما في المزامير المنسوبة إلى داود عليه السلام في أسفار العهد القديم وكما هي مدونة في سجلات العهد القديم بالشكل الذي انتهت إلينا بعضها مجهول النسب لم تأت الشجاعة لناظمها أو مدونها أن ينسبها لداود لكنها جاءت بين جملة المزامير المنسوبة أصلاً لنبي الله داود، ولعل ذلك كما قلنا من قبح وعنف اللغة التي تفيض نقمة وسخطاً في حالات كثيرة على رب إسرائيل الذي تحدث عنه المزامير.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام ونحن نحاول أن نتعرف على الملامح المضيئة والنزيقة على واحد من أنبياء الله شوه صورته كتّاب تراث إسرائيل، أن الزبور الذي نزل وحياً على قلب نبي الله داود كما أخبر بذلك القرآن الكريم في آية النساء التي

(١) سورة النساء: الآية ١٦٣

استشهدنا بها لم يكن أغنيات يترنم بها كما هو الحال في المزامير التي يحتويها التراث الإسرائيلي في العهد القديم وجاءت كما هي عليه اليوم في معظم فقراتها تحت عنوان الترنم والغناء، وقد أشار رب العزة إلى قيمة الزبور وأهميته في قلوب المؤمنين كوحي من الله تعالى لنبيه داود في مقام التكريم والتفصيل وعلو الشأن فقال سبحانه وتعالى في سورة الاسراء: ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُودَ زَبُوراً ﴾[1]. وبالقطع لم يتضمن الزبور الذي أتاه الله سبحانه لداود ذلك الحشد من الأغنيات والترانيم التي يتضمن معظمها كل ما لا يليق في علاقة النبي بربه بل كل ما يتصور فيه أنه قام على نعمة الله ورحمته وبوحيه لنبيه داوود في هذا تقول سورة النمل: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْماً وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾. وبالفعل فلقد بلغ داوود عليه السلام على ضوء خبر القرآن الكريم في تصوير ملامحه الدينية في علاقته بربه المستوى الأكمل والأمثل، ولعل عظيم خشيته لله هي التي كانت وراء ذلك التكريم العظيم الذي حباه الله سبحانه به فضلاً ونعمة منه عليه وعلى ولده سليمان وقص على الناس أخبارهما وأخبار ذلك الفضل في كتابه الحكيم بعد أن شوهت سيرتهما في تراث العهد القديم يقول الله تعالى في سورة سبأ

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِي ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحاً إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ، وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴾[2].

---

(١) سورة الاسراء: الآية ٥٥.
(٢) سورة سبأ: الآية رقم ١٢.

هذا. . وفي مقام البحث عن القدرة وضرب المثل للناس لعظيم الصلة بالله وفي التدليل على بعض براهين الله الكونية مسخرة لعبد من عباده المتقين يقول سبحانه في سورة (ص) وهو يطهر نبي الله مما علق سيرته عبر التاريخ في تراث إسرائيل من مآثم ومفاسد قام بها كتّاب التراث الإسرائيلي ثم خلعوها على أنبياء الله تبريراً لخطيئتهم وإثمهم يقول سبحانه مخاطباً رسوله الأعظم محمداً ﷺ:

﴿ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا ٱلْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ، إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ، وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ، وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴾[1] فنبي الله داوود هنا في لغة القرآن الكريم وبيانه قد منحه الله الحكمة وفصل الخطاب، والحكمة في منطق القرآن الكريم هي دائرة النبوة الواسعة وما يتعلق بها من فضل الله ورحمته على من يختارهم من خلقه لشرف النبوة والرسالة الإلهية، فهل هذه الصورة الكريمة التي يرينا إياها الذكر الحكيم يمكن أن يقترب من نقائها وطهرها ملامح صورته عليه السلام في تراث العهد القديم بعد أن تشوهت صورته على أيدي الكتّاب والنساخ عبر الأجيال وهل صورته عليه السلام في العهد القديم بكل المآثم التي خلعها عليه كاتب التراث الإسرائيلي قبل أن يلي الملك واثناءه وبعد أن تنازل عنه في ظل صراعات ومؤامرات انعدم فيها كل أثر للنبوة، تتفق ومقام الذي يملك من الله الحكمة وفصل الخطاب؟

هذا. . ويطالعنا الذكر الحكيم في سورة الأنبياء بمشهد لم يعرفه الكتّاب في تراث العهد القديم، ولم يتعرضوا له وهو دور النبوة والرسالة الإلهية التي منحها الله سبحانه لنبيه داود وسليمان عليهما السلام وكانا يعملان بها وعلى هديها بين الناس إرشاداً وتوجيهاً أو إحقاقاً وحكماً، ومن فضل الله على داود وسليمان عليهما السلام أن معظم آيات الذكر الحكيم التي تناولت نبي الله داود نرى فيها ابنه سليمان يجيء في

---

(١) سورة (ص) الآيات ١٧ ـ ٢٠.

السياق ومن خلال وحدة الموضوع وهذا بخلاف ما صنعه كتّاب ونسّاخ تراث العهد القديم بحكم وضعهم للتراث الإسرائيلي عبر أجيال وأجيال.

يقول رب العزة في سورة الأنبياء:

﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ، فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَـٰعِلِينَ، وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَـةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ، وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾[1].

وفي هذه الواقعة كما يقول الإمام أبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي في كتابه الجامع لأحكام القرآن في الجزء الحادي عشر الصادر عام ١٩٦٧ عن دار الكاتب العربي للطباعة والنشر بالقاهرة[2]: قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ﴾ أي منحناه القضية والحكومة فكني عنها إذ سبق ما يدل عليها، وفضل حكم سليمان حكم أبيه في أنه أحرز أن يبقى ملك كل واحدا منهما على متاعه وتبقى نفسه طيبة بذلك، وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث بعد أن نفشت فيه غنم القوم ليلاً وبعد سماع سليمان لحكم أبيه وبأنه قضى للغنم بأن تكون لصاحب الحرث قال لصاحب الغنم لعل الحكم غير هذا ثم أتى أباه وقال يا نبي الله إنك حكمت بكذا وكذا، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع قال ما هو: قال: ينبغي أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه، فإذا عاد الزرع إلى حاله التي أصابته

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٧٨ - ٨١.

(٢) تفسير القرطبي: الجزء الحادي عشر - صفحة ٣٠٨ بتصرف.

الغنم فيه في السنة المقبلة رد كل منها ماله إلى صاحبه، فقال داود: وفقت يا بني لا يقطع الله فهمك وقضى بما قضى به سليمان. وفي قوله تعالى: ﴿ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ يذهب قوم من علماء المسلمين كما يقول القرطبي إلى أن داود عليه السلام لم يخطيء في هذه النازلة، بل أوتي الحكمة والعلم، وحملوا قوله تعالى: ﴿ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ﴾ على أنه فضيلة له وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه، وفي هذا يروى أن الوليد لما هدم كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم: إنك هدمت الكنيسة التي رأى أبوك تركها فإن كنت مصيباً فقد أخطأ أبوك، وإن كان أبوك مصيباً فقد أخطأت أنت فأجابه (الوليد) بقول الله تعالى: ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ، فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْماً وَعِلماً ﴾.

هكذا يتناول الذكر الحكيم سيرة بعض أنبياء الله بما يدل على أنهم لم يعيشوا في فراغ أو بمعزل عن الناس لا يعرفون غير المؤامرة والدسائس التي يفيض بذكرها والإطناب فيها كتّاب التراث الإسرائيلي في العهد القديم، ويبين الله سبحانه وتعالى فضله على داود وابنه ويكشف عن أنهما كانا على علاقة قوية بربهما يشكرانه ويعبدانه ويقران له بالفضل والنعمة والهداية يقول تعالى في سورة النمل:

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْماً وَقَالَا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1].

ولم لا يكون الأمر هكذا عند أنبياء الله، ولم لا تكون صورتهم بهذا الاشراق والطهر الذي يطالعنا به رب العزة في القرآن الكريم عنهم وهو يناديهم سبحانه واحداً

(١) سورة النمل: الآية رقم ١٥.

بعد الآخر يقول تعالى في سورة (ص):

﴿ يَـٰدَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِي ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾.

ويقول سبحانه وتعالى عن نبيه أيوب عليه السلام وهو يطهر وجهه الكريم مما قذفه به واتهمه فيه كتّاب المفتريات في تراث إسرائيل في العهد القديم، يقول تعالى في سورة (ص):

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ، ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلُۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴾[2].

ويقول سبحانه في نفس السورة:

﴿ وَٱذْكُرْ عِبَـٰدَنَآ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي ٱلْأَيْدِي وَٱلْأَبْصَـٰرِ، إِنَّآ أَخْلَصْنَـٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ، وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ، وَٱذْكُرْ إِسْمَـٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَذَا ٱلْكِفْلِ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴾[3].

هذه هي صور ونماذج محدودة أتينا عليها من مشاهد النبوة على أيدي بعض

---

(1) سورة (ص): الآية رقم ٢٦.
(2) سورة (ص): الآية رقم ٤٢.
(3) سورة (ص): الآية رقم ٤٨.

الأنبياء الذين تناولهم الذكر الحكيم بكل هذه الأمانة والعفة والطهر والترقي محملين من قبل ربهم بأعباء ضخمة هم فيها للناس نعم القدرة والأنموذج والمثل، وحين اعتدى عليهم كتاب التراث الإسرائيلي بأن خلعوا عليهم ما وقعوا فيه من مآثم ومفاسد جاءت عناية الله تعالى في محكم الذكر الحكيم ورفعت عنهم وطهرتهم من كل ما قذفهم به كتاب التراث الإسرائيلي من مآثم ومفتريات.

إن المآثم والمفتريات التي خلعها كتاب العهد القديم في سفري صموئيل والملوك على وجه الخصوص حين جعلوا من نبي الله داود رجل مؤامرات سياسية، وما أن يفرغ ويصبح ملكاً نبياً إلا ويرسل الجيوش ليغزو ويحارب ويعتدي جيشه بينما هو في رواية التراث الإسرائيلي يتمشى على سطح قصره يتصيد عورات الناس، ثم يرسل إلى زوجات رجال أزواجهن في الحرب فيقهرهن في جريمة الزنا، ثم لكي يستر خطيئته التي لم يستح كتاب العهد القديم أن يقبحوها تدويناً فقط في عيون الشعب ومع ذلك خلعوها بغير حياء على نبي الله داود الذي يأمر في زعمهم بقتل (أوريا) الحثى زوج (بتشبع) ثم لا تهزه في زعمهم جريمة زنا ولده (أمنون) في أخته (ثمار) إلى غير ذلك من مزاعم المؤامرات السياسية والقتل غيلة وغدرا، نبي الله هنا في القرآن الكريم يقدمه رب العزة طاهراً مطهراً لا يعرف شيئاً من هذا الإثم ولم يقع في معصية تنافي النبوة وحماه الله تعالى من المآثم ومن مفتريات كتّاب التراث الإسرائيلي وصدق رب العالمين حين يكشف عن فضله على عبده داود في سورة (ص)؛ الآية ٣٠:

﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَـٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾.

هذا.. ويطالعنا الذكر الحكيم في مواقف ومشاهد كثيرة طاهرة مطهرة عن نبي الله سليمان عليه السلام بما يدحض كل مفتريات وإثم ما خلعه كتاب التراث الإسرائيلي عن نبي الله سليمان، بعد أن عطلوا عمل النبوة معه في كل ما رووه عنه وما تداولوه عن سيرته وبعد أن نظروا إليه على أنه كان يترك عبادة ربه الواحد الخالق

الذي شرفه بالنبوة والرسالة ويعبد آلهة الشعوب الوثنية إرضاءاً لزوجاته الأجنبيات. يقول عنه رب العزة نافياً التهمة التي خلعها عليه أبناء إسرائيل عبر الأجيال ولم يخجل واحد من كهانهم أو زعمائهم أو حتى ممن أدعوا له النبوة والرسالة من أن يقف وقفة مع زيف المفتريات التي ألصقت بواحد من كبار أنبياء الله، ومن هنا فرب العزة بالوحي الإلهي في القرآن يكشف عن الوجه الحقيقي والدور الإيماني القائم على التوحيد لله رب العالمين الذي كان عليه ودعا له نبي الله سليمان عليه السلام ويقول تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَـٰرُوتَ وَمَـٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وعند شرح هذه الآية الكريمة يقول الإمام ابن جعفر بن جرير الطبري في قوله تعالى[2]: **﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ ﴾** الآية أي أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك، تلك الآيات هي ما حواه كتاب الله من خفايا اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بني إسرائيل والنبأ عما في كتبهم التي لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وما حرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التي كانت في التوراة فاطلع الله في كتابه الذي أنزله على نبيه محمدﷺ فكان في ذلك من أمره من الآيات البينات التي وصف من غير تعلم من بشر ولا أخذ

---

(١) سورة البقرة: آية رقم ١٠٢.

(٢) تفسير ابن كثير: الجزء الأول صفحة ٢٣٤.

شيئاً منه عن آدمي كما قال الضحاك عن ابن عباس (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) يقول فأنت تتلوها عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك، وأنت عندهم أمي تقرأ كتاباً، وأنت تخبرهم بخافي أيديهم على وجهه. يقول الله لهم في ذلك عبرة وبيان وحجة لو كانوا يعلمون يقول محمد بن إسحق: حدثني محمد بن أبي عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال ابن صوريا الفطويني لرسول الله محمدﷺ يا محمد ما جئتنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك من آية فنتبعك، فأنزل الله في ذلك قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍۭ بَيِّنَـٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴾.

البقرة / ٩٩

ويقول مالك بن الصيف حين بعث رسول اللهﷺ ذكرهم بما أخذ عليهم من الميثاق وما عهد عليهم في محمد، قالوا والله ما عهد إلينا في محمد وما أخذ علينا ميثاقاً، فنزل قول الله تعالى: **﴿ أَوَ كُلَّمَا عَـٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾** فالقوم الذين تحدث القرآن عن أخلاقهم بنبذهم العهود التي تقدم إليهم هم الذين شوهوا تراث أنبياء الله في كتب العهد القديم وألحقوا بهم ما ألحقوه من الأذى والمفتريات، ولذا فحين جاءهم الرسول الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل، أي فيما تبقى لديهم من حق ألبسوه الباطل، نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراءهم ظهرياً، وفي هذا يقول رب العزة في:

﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ، وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَـٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَـٰنُ وَلَـٰكِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ كَفَرُوا۟ ﴾[1].

وبمقتضى هذا الكفر من الأنبياء بكتاب الله على يد محمدﷺ كان كفر الآباء بما

---

(١) سورة البقرة: آيتا ١٠١ ـ ١٠٢.

جاء به نبي الله سليمان ولذا فبعد أن كفر بنو إسرائيل بسليمان دوّن كتّاب التراث عليه مفترياتهم في العهد القديم، ويبقى في النهاية ذلك التكريم الذي تتحدد به ملامح ذلك النبي العظيم على ضوء لغة القرآن النظيفة الطاهرة، ومن خلال بيانه المشرق وهو يتحدث عن نبي الله سليمان يقول رب العزة في سورة الأنبياء عن هذا النبي تكريماً له وتطهيراً من دنس ما قذفه به كتّاب التراث الإسرائيلي:

﴿ وَعَلَّمْنَـٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَـٰكِرُونَ، وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَـٰرَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَـٰلِمِينَ ﴾[1].

وفي النهاية أين هذا الطهر القرآني وهو يتناول سيرة الأنبياء ويكشف عن المهام الجليلة التي قاموا بها بأمر ربهم في مجال النبوة وعمل الرسالة الإلهية من دنس تراث إسرائيل في العهد القديم ومفتريات كتّابه على أنبياء الله ورسله، نعتقد أنه بعد هذا الموجز من عرض القرآن لسيرة أنبياء الله ورسله في مجال العقيدة الدينية الألهّية وفيما يتعلق بالنبوة والرسالة الإلهّية فإن تراث بني إسرائيل في العهد القديم فيه كما رأينا سيرة الإيمان تتركز حول عبادة الأصنام والأوثان.

* * *

النبي يوسف في عطاء القرآن الكريم:

في سورة في القرآن الكريم تسمت باسم هذا النبي الكريم عليه السلام قص القرآن الكريم سيرته كاملة دون تحريف أو مفاسد كما فعل كتّاب العهد القديم.

وتبدأ قصة يوسف عليه السلام بتلك المقدمة التي تهيء لها الآية رقم ٣ من

---

(١) سورة الأنبياء: آيتا ٨٠ ـ ٨١.

السورة والتي يخاطب فيها المولى سبحانه نبيه الخاتم ﷺ بقوله:

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ ٱلْغَـٰفِلِينَ ﴾[1].

هذا.. ويجيب الإمام القرطبي في كتابه (الجامع لأحكام القرآن)[2] عن مسألة اختلاف العلماء وهي لم سميت هذه السورة أحسن القصص من بين سائر الاقاصيص. فيقول: لأنها ليست قصة في القرآن تتضمن من العبر والحكم ما تضمنته هذه القصة، وقيل سماها أحسن القصص لحسن مجاوزة يوسف عن أخوته وصبره على أذاهم، وعفوه عنهم بعد الإلتقاء بهم عن ذكر ما تعاطوه وكرمه في العفو عنهم، وقيل لأن فيها ذكر الأنبياء والصالحين والملائكة والشياطين والجن والأنس والأنعام والطير وسير الملوك والممالك والتجار والعلماء والجهال والرجال والنساء وحيلهن ومكرهن، وفيها ذكر التوحيد والفقه والسير.

هذه السورة الكريمة التي تتضمن أحسن القصص أيا كان رأي العلماء فيما ذهبوا إليه خاصة وأنه ليس بينهم كبير اختلاف فيما ذهبوا إليه تبدأ بالحديث عن يوسف يقول الله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَـٰجِدِينَ ﴾[3] وعند تفسير هذه الآية يقول القرطبي: قال السهيلي: أسماء هذه الكواكب جاء ذكرها مسندا، رواه الحرث بن أبي أسامة قال: جاء بستانه وهو رجل من أهل الكتاب، فسأل النبي ﷺ عن الأحد عشر كوكبا الذي رأى يوسف فقال:

الحرتان، والطارق، والذيال، وقابس، والمصبح، والضروح، وذو

---

(١) سورة يوسف: الآية رقم ٣

(٢) (الجامع لأحكام القرآن) القرطبي - الجزء التاسع ص ١٢٠.

(٣) سورة يوسف: الآية رقم ٤.

الكنعات، وذو الفرع، والفليق، ووثاب، والعمدان رآها يوسف تسجد له. انتهى.

يقول رب العزة مفصحاً ومعبراً للخلق في كتابه المحكم عن قيمة وأهمية هذه الرؤية التي رآها يوسف.

﴿ قَالَ يَـٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْداً إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لِلْإِنْسَـٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾[1].

وفي قوله تعالى ﴿ فَيَكِيدُواْ لَكَ ﴾ أي يحتالوا على إهلاكك اشارة إلى طبيعة استعداد إخوة يوسف وهي أنهم لا يقبلون براهين الله التي أجراها على قلب واحد منهم ابتدأ يحدثهم بما رآه من براهين الله وآياته إرهاصاً للنبوة وإعلاناً عنها.

هذا ويطلعنا القرآن الكريم في سيرة يوسف عليه السلام على جزء من خطة المؤامرة التي أعدها له أخوته بعد أن رأوا فيما حدثهم به براهين الله تقترن بكل تصرفاته فقد قرروا حسداً وبغياً التخلص منه وفي بئر عميقة لكن يد الله وعونه لم تتركا يوسف وحده أمام هذه المؤامرة يقول تعالى:

﴿ فَلَمَّا ذَهَبُواْ بِهِ وَأَجْمَعُوٓاْ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَـٰبَتِ ٱلْجُبِّ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَـٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾.

ثم يطالعنا القرآن الكريم أيضاً في مشهد متكامل متتابع رعاية الله وعونه للصغير الملقى في البئر، حتى ينجو منه ويخرج للحياة وإذا به بعد تجربة خصبة في دروب الحياة الخصبة تعصمه فيها النبوة من كل الشراك وأساليب الخداع التي حيكت

---

(١) سورة يوسف: الآية رقم ٥.

(٢) سورة يوسف: الآية رقم ١٥.

له من أن يقع أو ينحرف حتى عندما تعرض لكيد امرأة العزيز. يقول رب العزة:

﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن بُرْهَـٰنَ رَبِّهِ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾(٢).

ويشاء الرحمن الرحيم أن تحل في منطقة فلسطين حالة من الجدب والكساد يجيء على أثرها أبناء يعقوب إلى مصر ليقفوا على غير علم منهم أمام أخيهم يوسف الـذي عرفهم وهم له منكرون، ويدخل معهم في حوار لعلهم يلمحون شاهداً مما يقوله على أنعم الله وبراهينه التي أنعم بها عليه ثم يأمرهم بالعودة من حيث أتوا بعد أن يزودهم من خير مصر وبرها وفي سوق هذا المشهد يقول رب العزة:

﴿ وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُواْ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴾(٢).

وبعد رحلة العودة من حيث أتوا عادوا إلى مصر للمرة الثانية بما اشترطه عليهم يوسف حين جاؤوا بأخيهم من أبيه وهنا في خبر القرآن الصـادق ودروسـه البليغـة للتأمل والتدبر في دور النبوة وعملها وأثرها في الناس يفاجئهم يوسف بذلك الدرس الأخلاقي الذي يفتقد مثله كثيراً في أسفار العهد القديم:

﴿ قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَـٰهِلُونَ، قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَاْ يُوسُفُ وَهَـٰذَآ أَخِي قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾(٣).

---

(١) سورة يوسف: الآية رقم ٢٤.
(٢) سورة يوسف: الآية رقم ٥٨.
(٣) سورة يوسف: آيتا ٨٩ ـ ٩٠.

هذا ومعالم النبوة وأثرها بين الناس بالخير والرحمة والهداية والتوجيه المعاني، والقيم المفتقدة تماماً في معظم جوانب سيرة أنبياء بين إسرائيل في العهد القديم نراها هنا في لغة القرآن الكريم على أقوى وأعظم ما تكون تأثيراً وتوجيهاً بين الناس، فبعد كل تلك الرحلة من الأخطاء والآثام والمفاسد والكذب والإفتراء الذي قام به أبناء يعقوب ضد أخيهم وهو صغير ثم وهم في حضرته وزيراً نبياً لا يعرفونه بل يقفون أمامه سائلين ومستجدين قالوا كذباً عن أخيهم الذي أمر يوسف عليه السلام بوضع ثمن الغلال في أوعيته اختباراً لهم وكشفاً عن سرائرهم قالوا كما عبر عنهم رب العزة في نفس السورة[1] ﴿ قَالُوٓاْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ ومع كل عنف وافتراء هذا الموقف من جانب أخوة يوسف فإن رحمة النبوة في لغة القرآن وبيانه المعصوم تجيء في مقابلة هذا الإثم بهذه الصورة المشرفة التي تبرز عن وظيفة النبي وعمله في الناس قال كما قال عنه رب العزة.

﴿ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2].

وبهذه السيرة الموجزة عن حياة يوسف عليه السلام في لغة القرآن وبيانه أردناها لا لنقدم بها ترجمة كاملة لسيرة هذا النبي العظيم في القرآن الكريم وإنما لنتعرف على أثر من آثار النبوة على يد واحد من أنبياء الله في بيان القرآن الكريم ولغته عن أنبياء الله ورسله هذا الأثر الذي لا يعثر عليه الباحث في قليل أو كثير بين سياق وأخبار كتب التراث الإسرائيلي في العهد القديم.

* * *

---

(١) سورة يوسف: الآية رقم ٧٧.

(٢) سورة يوسف: الآية رقم ٩١.

النبي أيوب عليه السلام في عطاء القرآن الكريم:

ليس في سيرة نبي الله أيوب عليه السلام في لغة القرآن وبيانه تلك النماذج والأنماط الوثنية التي تحدثت عنها وأفاضت كتب التراث الإسرائيلي في العهد القديم حيث نسبت حواراً إلى الله والشيطان وأيوب، رجح فيه زعم كتّاب التراث الإسرائيلي الوثني رأي الشيطان وتغلب على أيوب وربه ـ معاذ الله ـ وأصبح الرجل الذي تتحدث عنه الأسفار وأفاضت على أنه يرمز للصبر وقوة التحمل والرضاء بقضاء الله وقدره رمزاً لمعاني أخرى وقع فيها على ضوء ما زعم كاتب التراث الإسرائيلي مضطراً لهذه المعاني أبعد ما تكون عن النبوة وعملها وعن الصبر والإمتثال، بل أقرب إلى روح التمرد والرفض لكل قضاء الله تعالى في عبده أيوب وهذا ما يتنافى مع أبسط قواعد وأخلاق النبوة ومن هنا تطالعنا سيرة أيوب عليه السلام في كتاب الله تعالى بغير ما ذهب إليه كتّاب التراث الإسرائيلي تماماً سواء قبل أن يمسه الضر أو بعده تطالعنا وفيها كل دروس العظة والموقف النبوي الممتثل الصابر لقضاء الله والذي لم يتجاوز فيه النبي أيوب منطق الكمال والعصمة الذي يجب أن يكون عليه من الذين بينهم وبين الله علاقات عبودية فضلاً عن واجبات النبوة والتزاماتها على من يصطفيه خالقه لشرف هذه النبوة والتزاماتها، تطالعنا سيرة أيوب في القرآن الكريم بلغة عفة وسيرة كريمة ودرس يستحق التأمل وعظة تدعو للنظر في براهين الله ودلالاته، ويذكرها رب العزة في سورة (ص) عقب ذكره لنبيين كريمين على الله هما داود وسليمان، وبهذا المدخل المؤثر والمنبه للمؤمنين يخاطب رب العالمين نبيه محمداً ﷺ وهو يسوق له في معرض التكريم جزءاً من سيرة نبي الله أيوب درساً وعظة لمن كان عنده قلب فيقول:

﴿ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴾[1]

وهكذا تجيء الآية في برهانها وخبرها صريحة بغير لغط أو حوار أو تجسيم أو تشبيه فالرجل النبي حين اختبر وابتلى بإرادة ربه وحده نادى بحكم

---

(1) سورة (ص) الآية ٤١.

عبوديته لله أن يكشف عنه الضر، فليس في الأمر مراهنة أو مغامرة خسرها طرف في مواجهة طرف كما حاول كتاب العهد القديم بالإثم الذي دونوه أن يخلعوا على سيرة الرجل بأفكارهم المادية والوثنية صوراً مما تأثروا به في عقيدتهم وأفكارهم وما انتهى إليهم من أساطير الأمم وأحاديث الخرافة.

كان نبي الله أيوب معنا هنا في منطق القرآن الكريم وعطائه حين أصابه الضر فإنه على الفور ومن دائرة النبوة الكريمة على الله تأخذه يد الله الحانية برحمة ورأفة وتهيء له من الأسباب ما يبرأ به جسده وتشفى به جوارحه ويحمل أهله وولده وينتقل من مكان لآخر في طريق الله يدعو إلى الله ويترك بصمات النبوة وأثرها بين الناس، بغير زلازل أو براكين أو رياح تعصف بالقرى تقتلع البيوت وتقتل الماشية كما نسج خيال كاتب أسفار التراث الإسرائيلي في العهد القديم، وإنما الأمر هنا في تناول سيرة الرجل بنهج القرآن الكريم يناديه رب العالمين بالوحي الإلهي من فوق السموات العلى؟

﴿ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ، وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ، وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَـٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴾[(١)].

هذا هو تفسير القرآن الكريم ولغته المشرقة النظيفة في تناول ما اختبره الله تعالى به باعتباره عبداً نبياً وهذه هي أنعم الله أيضاً على عبده النبي أيوب ليس فيها ما يعاون على فهم موقف أو تصرف ينبىء عن جزع أو فزع من القضاء الذي حل بنبي الله كما حاول كاتب العهد القديم ان يصوره في سيرته لكنه هنا وكما يقول أحد علماء الإسلام وهو الإمام البيضاوي في كتابه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل)[(٢)] عند تفسيره

---

(١) سورة (ص) الآيات ٤٢ - ٤٤.

(٢) (أنوار التنزيل وأسرار التأويل). ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

لقول الله تعالى عن عبده أيوب: ﴿ . . . إنا وجدناه صابراً . . ﴾ أي فيما أصابه في النفس والمال وكان أوابا أي مقبلاً على الله غير جازع.

وهكذا يتناول القرآن الكريم سيرة أنبياء الله حين يقصها الله تعالى في محكم الذكر الحكيم درساً للمؤمنين وعظة وتدبراً وهكذا تكون سيرة أنبياء الله في الناس على ضوء اختيار الله لهم بحكم أنهم الصفوة المختارة من بين خير خلق الله تعالى للناس هداية ورحمة بالأنموذج والمثل والقدوة وليس أمر أنبياء الله ورسله كما حاول كتاب العهد القديم أن يقدموه الى الناس حقلاً لتجارب الإثم ومسرحاً لدروس المعصية والمفاسد التي وقع فيها شعب إسرائيل عبر التاريخ ورغب كتاب العهد القديم أن يحولوا أحاديث الذكريات إلى سيرة عن أنبياء الله ورسله، وعلى ضوء خبر نبأ القرآن الكريم الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فإن أنبياء الله يكونون أبعد ما يكونون عن خبر العهد القديم ولغته.

والحمد لله رب العالمين. وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ـ الجزء الخامس ص ٢٠ من المجلد الثاني مؤسسة شعبان للنشر والتوزيع بيروت.

محتويات الكتاب

الموضوع | الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة